طبعة ثانية

"انتقامي الوحيد ... أن أروي ما حدث"

النسيان

إكتور آباد فاسيولينسي

ترجمة: مارك جمال

مراجعة: مونيكا كاريون



24.7.2015



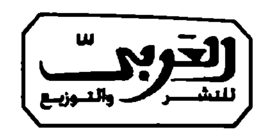
رواية

النسيان

إكتور آباد فاسيولينسي

ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال
مراجعة الترجمة: مونيكا كارّيون

2014



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت: 27921943 - 27954529 / فاكس: 27947566
sherifbakr@yahoo.com
www.alarabipublishing.com.eg

النسيان

إكتور آباد فاسيولينسي

ترجمة: مارك جمال

مراجعة: مونيكا كاريّون

تحرير: حمدي عبد الرحيم

الطبعة الأولى 2014

رقم الإيداع 22423 /2013

ISBN : 978-977-319-197-9





This book was published with the support of the Ministry of Culture of Colombia.



This book was published under the sponsorship of the Embassy of the Republic of Colombia to the Arab Republic of Egypt.

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة الكولومبية و سفارة جمهورية كولومبيا بجمهورية مصر العربية.

مقدمة الترجمة العربية[1]

في أغلب المرات التي أفصح فيها عن لقب عائلتي، "آباد"، يسألني الناس إذا كنتُ من أصول عربية. وهو ما لا أنكره قطّ، وإن لم أكُن على يقين من ذلك في الحقيقة. كلّ ما أعرف أن أسلافي من جهة أبي قد جاءوا من إسبانيا، وأعرف أن هناك كان يعيش العرب الموريسكيون واليهود المتحولون دينيًا، إلى جانب الإسبانيين. وربما أكون منحدرًا من أي من تلك الأصول الثلاثة، أو حتّى منها جميعًا في وقت واحد. في الواقع، دائمًا ما شعرت بصورة أو بأخرى بأن الإسبان والعرب واليهود في منزلة إخوتي الكبار، وبينهم أحسّ بأنني من العائلة.

ولقد كُتِب هذا الكتاب، الذي هو الآن بين يديّ القارئ بالعربية، باللغة الإسبانية على يد كاتب من قارة أمريكا الجنوبية ينحدر من أصول عرقية مختلفة، وحتّى وقتنا هذا لم يكُن قد تُرجم سوى إلى بعض اللغات الغربية. والآن يصدر أخيرًا بإحدى اللغات الشرقية، بل بأهمّ اللغات الشرقية وأوسعها انتشارًا، اللغة العربية. لقد كتبت هذا الكتاب في الأساس لأبنائي، وأسرتي، ولبعض الأصدقاء. وعندما قرأه الناشر الكولومبي قبل صدوره الأوّل، رأى أن أهميته لا تتعدى النطاق المحلي، وأنه سيُقرأ على الأكثر في مدينتي، "ميديّين"، حيث بعض أبطال الكتاب هم فضلًا عن ذلك أشخاص معروفون.

إنها قصّة شخصية وعائلية إلى درجة جعلتنا نعتقد معها أنه من الصعب لها أن تتجاوز الحدود الثقافية لمدن كولومبيا المختلفة.

ومن المفاجآت العظيمة والسارة لي ككاتب كان نجاح قصّة حياة أبي في نيل اهتمام القارئ وإثارة مشاعره، في محيط اللغة الإسبانية أولًا (خاصة في بلدي وفي إسبانيا والمكسيك)، وتجاوزها بعد ذلك حدود أكبر اللغات الغربية من حيث عدد الناطقين بها في أوروبا وقارة أمريكا (الإنجليزية، والبرتغالية، والفرنسية).

---

[1] إكتور آباد فاسيولينسي 2013/12/31

ولكن المفاجأة السارة كانت أعظم وأعظم حين تسلمت رسالة من "مارك جمال"، قارئ من القاهرة، يقترح عليّ فيها ترجمة القصّة إلى العربية. ورغم أن العالم العربي يتطلع إلى الغرب عبر مرآة البحر المتوسط، فإن الفجوة الدينية والثقافية أشدّ عمقًا، وتمثّل العقبة الأشد استعصاء على التجاوز، ولا سيما في هذه الأوقات التي تسودها الاضطرابات السياسية والاجتماعية.

ومع ذلك، أعرف تمام المعرفة أن تلك العقبة يمكن تخطيها. فقد أقمت بنفسي في مصر عام 2000 على مدى بضعة أشهر كتبت خلالها كتاب رحلات بعنوان «القاهرة، حيث يبدأ الشرق». وإن دلّ عنوانه، المأخوذ من رسالة لـ"فلوبير"، على شيء فإنما يدلّ على السحر والذهول اللذين تملكا منّي إزاء الاتصال الأوّل والصدمة الثقافية التي مثلتها رحلتي الأولى إلى بلدٍ يعدّ بمثابة مهد «الآخر»، وهو ما يعني الشرق بالنسبة لنا. وهناك شعرت بأنه مهما اختلفت الثقافات الإنسانية، فإن الأخوّة التي تجمع بين أبناء جنسنا لم تزَل باقية دون مساس.

قد يظنّ المرء أن التباين في الأشكال السياسية والثقافية، والتقاليد الدينية والعائلية، وأسلوب تناول الطعام، أو الصوم، أو التجارة يُنتج أنواعًا شديدة الاختلاف من البشر. وهو ما ليس صحيحًا. فلقد شعرت بذلك شخصيًا حين قرأت كلاسيكيات الثقافتين العربية والفارسية (ألف ليلة وليلة، ورباعيات عمر الخيّام) أو روايات "نجيب محفوظ" حديثة العهد، والتي كانت أول ما تذوّقت من الغذاء الأدبي حتّى أفهم مصر.

ثمّة مشاعر جيّاشة يشترك فيها الإنسان في جميع أنحاء العالم: الفرحة بعناق جسد آخر، السخط في مواجهة الظلم، الأذى الذي يُحدثه التعصّب الديني، حبّ الأبناء، السرور الغامر بالصداقة، الاندفاع نحو الصفح أو الانتقام، الألم والذهول في حضرة الموت، ولا يبدو أن كلّ هذه الأحاسيس تنتقل بالتعلّم، بل وكأنها مولودة معنا، مع كلّ البشر، أينما ولدوا.

وهو ما يملأني ثقة بأن تلك القصة التي كُتبت في إحدى المناطق النائية الجبلية المطيرة على الحدود الخارجية للغرب، في الركن الشمالي من أمريكا الجنوبية، ستكون ذات دلالة أيضًا بالقرب من دلتا نهر النيل المقدّس، وفي صحاري إفريقيا وشبه الجزيرة العربية، وتحت ظلال أرز لبنان.

وسواء كانت الأعين التي ستمرّ على تلك الأحرف، والتي تجيد فكّ رموز الأحرف العربية البديعة، كثيرة أو قليلة، هو شيء لا يُمكنني معرفته. ولكن مجرّد إمكانية حدوث ذلك، إذ ربما يتوقف رجل أو امرأة عند تلك القصّة (في مكتبة الإسكندرية الشهيرة على سبيل المثال) بعد مرور بضعة عقود، عندما تكون شخصيات كتابي جميعًا، وأنا شخصيًا، أمواتًا، لأن كلًا من لغة القصّة والمواقف التي تضمها مفهومة، مجرّد تلك الحقيقة تُسعدني وتُعد بمثابة مفاجأة سارة بالنسبة لي.

أتوجّه بالشكر إلى كل من ساهم في عملية نقل «النسيان» إلى العربية: الناشر شريف بكر، والمترجم والمراجعين، وكلّ من رأى أن قراءة قصّة الحياة الكريمة والجميلة التي عاشها أبي يجب أن تكون مُمكنة بنفس اللغة التي تُرفع بها الصلاة فوق المآذن. أشعر بسعادة ودهشة لأن قراءة تلك القصّة بالغة الشخصية عن حياتي أصبحت الآن ممكنة بنفس اللغة التي أخذت عنها لغتي كلماتها الأجمل: Almohada (المخدة)، Alcázar (القصر)، Álgebra (الجبر)... بنفس اللغة التي يدور بها النقاش الآن حول الحاضر المضطرب الذي تعيشه مصر والشرق الأوسط. ولا أستبعد أن تكون بين دفتي هذا الكتاب أفكار تساهم في الانفتاح الفكري والتسامح، وقد تكون لهاتين الفضيلتين فائدة عظيمة في ظلّ الأوضاع المتأزّمة، على غرار الوضع القائم اليوم.

المؤلف

ولد "إكتور آباد فاسيولينسي" عام 1958 بمدينة "ميديّين" في كولومبيا، حيث درس الطبّ والفلسفة والصحافة، إلّا أنه لم يتمّ دراسته في أي من هذه التخصصات. وبعد أن تعرّض للطرد من جامعة "بونتيفيسيا" بسبب مقال كتبه معادٍ للبابا، سافر إلى إيطاليا حيث درس الآداب الحديثة، ثمّ عاد إلى كولومبيا عام 1987، وفي نفس العام تعرّض والده للاغتيال على يد الجماعات شبه العسكرية، وتلقّى الكاتب تهديدات بالقتل، مما اضطره إلى السفر إلى إيطاليا من جديد، حيث قام بتدريس اللغة الإسبانية حتّى عودته إلى كولومبيا مرة أخرى عام 1992.

بدأ "فاسيولينسي" مشواره الأدبي مبكرًا، إذ حصل على «الجائزة الوطنية الكولومبية للقصة القصيرة» عام 1980 عن قصة «أحجار الصمت» وهو في عمر الحادية والعشرين.

كما نُشرت له أربع روايات: «علاقات السيد الماجن» (1994)، «شذرات حبّ عابر» (1998)، «قمامة» (2000)، والتي نال عنها جائزة السرد الإبداعي الأولى مُقدّمة من «دار أمريكا اللاتينية بمدريد»، وأخيرًا روايته "أنجوستا" (2003). هذا إلى جانب مجموعة قصصية بعنوان «أفكار شريرة» (1991)، وكتاب رحلات بعنوان «القاهرة، حيث يبدأ الشرق» (2001)، وسيرة ذاتية بعنوان «كلمات طليقة»، وكتاب لونه الأدبي غير واضح المعالم بعنوان «وصفات طعام للنساء الحزانى» (1996).

وتجدر الإشارة إلى أن عمله الأشهر والأوفر حظًا من النجاح: «النسيان»، قد نال جائزة حقوق الإنسان المقدّمة من مكتب واشنطن لشؤون أمريكا اللاتينية "WOLA"، كما حصل على جائزة أفضل عمل مُترجم إلى اللغة البرتغالية لعامي 2008 و2009 مُقدّمة من «دار أمريكا اللاتينية بلشبونة».

مقدمة المترجم

الأمر الذي أخذ يتأكّد لي مع كل سطر من سطور هذا العمل، أن بين يديّ رسالة جديرة بأن يعرفها العالم أجمع، ولا سيما عالمي... العالم العربي، في غمرة التغيرات التي شهدها وما زال يشهدها.

ولعل واحدًا من أهمّ الأسباب التي دفعتني إلى ترجمة هذا العمل هو التشابه الشديد بين كلّ من الإطار الذي تدور فيه مجريات أحداث هذا العمل، والوضع الراهن في بلاد المنطقة، المعنى الذي أكّد عليه الكاتب في أكثر من موضع «باعتبار الناس جميعًا إخوة» على حدّ قوله.

إننا بصدد واحد من أنجح الأعمال الأدبية المرموقة وأوفرها حظًا من الشهرة خلال العقد الماضي في كلّ من كولومبيا وأمريكا اللاتينية، عمل يضع صاحبه في مصاف مواطنيه من كبار الأدباء الذين أنجبتهم كولومبيا، استطاع "إكتور آباد فاسيولينسي" من خلاله أن يُطلعنا على صفحة في تاريخ وطن شهد من العنف أشدّه، ومزّقه الصراع بين جماعات التمرّد المسلحة والجماعات شبه العسكرية والجيش النظامي والعصابات الإجرامية وغيرها من الأطراف المتنازعة.

وفي الوقت نفسه يروي لنا الكاتب مسيرة والده الطبيب، والأستاذ الجامعي، والمناضل، الذي نادى بالتسامح وأحبّ الحياة والجمال بكلّ مظاهره. الإنسان الذي وقف في وجه التشدّد والتعصّب، مؤمنًا بأن الفهم الرجعي للدين يمثّل تهديدًا خطيرًا للبلاد، وخاض الصراع الأزلي الدائر بين مفهومين مختلفين عن الحياة، **«بين المُشكّكين المُتَوعَّدين بنيران جهنم، والمؤمنين الذين نصبوا أنفسهم حماةً للخير [...] بين القناعات القديمة والقناعات الجديدة»**. وبلغ التزام "إكتور آباد" الأب بمُثُله وأفكاره أقصى درجاته في السنوات الأخيرة

من حياته، والتي كرّسها بالكامل للدفاع عن حقوق الإنسان، ليسقط في النهاية ضحية العنف إبّان واحدة من أحلك وأعنف الفترات في تاريخ كولومبيا الحديث.

ولست أملك إلّا أن أسجل إعجابي، وأتفق مع الكاتب حول ما خلص إليه من أن انتقامه الوحيد يتمثّل في رواية ما جرى، وسلاحه الأكثر فعالية في مواجهة القتلة هي الكلمات.

وعلى الرغم مما تقدّم، فإن الكتاب يفيض بهجة وأملًا في عالم أفضل، حتّى إنني أَسَائِل نفسي كيف لكتاب واحد أن يجمع بين دفتيه هذا القدر من الحزن والبهجة، اليأس والأمل، الألم والجمال، في مفارقة تدعو إلى التأمّل.

ربما أكون مجحفًا بمحاولتي تعديد الأوجه المختلفة والثرية لهذا الكتاب في أسطر قليلة، أو كثيرة، بل إنني لم أواجه شيئًا في صعوبة توصيف هذا العمل وتقديمه إلى القارئ على مدار الأشهر الطويلة التي قضيتها مع هذا الكتاب، قارئًا فمترجمًا.

وفي النهاية أَود أن أشكر كلّ من ساهم في إنجاز هذه الترجمة، وأخصّ بالشكر الكاتب الذي لم يتردّد لحظة واحدة في منحي شرف نقل رسالته النبيلة إلى القارئ العربي.

إلى "ألبرتو أجيرّي" و"كارلوس جابيريا"

الناجين

«ولأجل حب الذكرى، أحمل فوق وجهي وجه أبي».

"يهودا عميحاي"

بطاقة فهرسة

آباد، أكتور

النسيان / أكتور آباد، ترجمة مارك جمال. – ط1. - القاهره : العربى للنشر والتوزيع ، 2013 ، . ص ؛ سم .

تدمك 9789773191979

1- الادب الكولمبي

أ – جمال، مارك (مترجم)

ب - عنوان 897.353

طفل في يد أبيه

-1-

كان يسكن في البيت عشر نساء وطفل ورجل. أما النساء فكنّ "تاتا"، التي عملت مربية لجدتي فيما مضى، شبه صماء شبه عمياء، قاربت عامها المائة؛ والخادمتان "إيما" و"تيريسا"، وأخواتي الخمس: "ماري لوس"، "كلارا"، "إيبا"، "مارتا"، "صول"؛ وأمي وراهبة. الطفل، أنا، كان يحب الرجل، أباه، من كل قلبه ومن كل نفسه. كان يحبه أكثر من الرب. ذات يوم كان علي الاختيار بين الرب وأبي، فاخترت أبي. شهد هذا اليوم أول جدالٍ لاهوتي في حياتي، وخُضتُه مع الراهبة "خوسيفا"، الراهبة التي كانت تعتني بي أنا و"صول"، الأخوين الأصغر سنًا. إذا أغمضت عيني، أستطيع سماع صوتها العالي الغليظ في مواجهة صوتي الطفولي. كان صباحًا مضيئًا، وكنا في الفناء، تحت أشعة الشمس، نراقب الطيور الطنّانة وقد جاءت تتنقل من وردة إلى أخرى. وفجأةً قالت لي الراهبة:

- سيذهب والدك إلى الجحيم.

- لماذا؟ سألتها.

- لأنه لا يواظب على القداس الإلهي.

- وأنا؟

- أنت ستذهب إلى الفردوس، لأنك تصلي معي كل ليلة.

في المساء، بينما تبدل الراهبة ملابسها خلف البارافان المزين بنقوش الـ"يونيكورن"، كنّا نتلو صلوات «أبانا الذي» و«السلام عليكِ يا مريم». وأخيرًا، وقبل أن نخلد إلى النوم، كنا نتلو «قانون الإيمان»: «أؤمن بالله الآب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى...»، راحت تخلع ثياب الراهبات خلف البارافان حتى لا نرى شعرها، فقد سبق لها تحذيرنا بأن رؤية شعر راهبة خطيئة مميتة. أما أنا، إذ أُحسن تفهم الأشياء ولكن ببطء، ظللت طوال اليوم أتخيل نفسي في الفردوس بدون أبي (أطلّ من نافذة في الجنّة، فأراه هناك بالأسفل، يطلب العون بينما يحترق بنيران الجحيم)، تلك الليلة، حين بدَأَت تترنم بالصلوات خلف البارافان المزين بنقوش الـ"يونيكورن"، قلت لها:

- لن أعود للصلاة مرة أخرى.

- آه، حقًا؟ - قالت في تحدٍ.

- أجل، لا أريد الذهاب إلى الفردوس. لا أحب الفردوس بدون بابا. أفضّل الذهاب معه إلى الجحيم.

أطَلّت الراهبة "خوسيفا" برأسها (كانت المرة الوحيدة التي رأيناها بدون حجاب، أعني المرة الوحيدة التي اقترفنا فيها معصية رؤية خصلات شعرها الذي يفتقر إلى الجمال) وصاحت: «صه!». ثم رسمت علامة الصليب.

كنت أحب أبي حبًا لم أحسه مرةً أخرى حتى وُلد أبنائي. مَيَّزْتُه حين أنجبتهم، فهو مساوٍ له في الشدة، وإن كان مختلفًا، حيث تبدلت الأدوار في تلك الحالة على نحوٍ ما. كنت أشعر أنه لا يمكن أن يقع لي مكروه في وجود أبي. وأشعر أنه لا يمكن أن يقع لأبنائي مكروه في وجودي. أعني أنني متأكد من استعدادي للتضحية بحياتي دفاعًا عن أولادي قبل أن يلم بهم أذى، دون أن أتردد لحظة واحدة. وأعرف أن أبي كان ليضحي بحياته دفاعًا عني دون أن يتردد لحظة واحدة. كانت

أفظع التصورات التي راودتني خلال طفولتي هي موت أبي، ولذا فقد قررت أن ألقي بنفسي في نهر "ميديّين" في حال موته. كما أعرف أن ثمة ما هو أسوأ بكثير من موتي: موت أحد أبنائي. إن كل هذا لشيء غريزي جدًا، فطري، نحسّه في أعمق درجات الوعي، في مكان سابق على التفكير. شيء لا نفكر به، بل هو ببساطة هكذا، بلا تخفيف. إذ لا يدركه المرء برأسه بل بأحشائه. أحببت أبي حبًا حيوانيًا. أحببت رائحته، وذكرى رائحته فوق الفراش حين يسافر، فكنت أتوسل للخادمات ولأمي كي لا يبدلنّ الملاءات أو كيس الوسادة. أحببت صوته، أحببت يديه، أحببت نظافة ملابسه وبدنه الدقيقة. كنت إذا انتابني الخوف ليلًا أذهب إلى فراشه، حيث كان دائمًا ما يفسح لي مكانًا إلى جواره لكي أنام. لم يقل لا قط. كانت أمي تتذمر قائلة إنه يدللني، أمّا أبي فينسحب إلى طرف الفراش ويتركني أبقى إلى جواره. كنت أحسّ نحو أبي بمثل ما يحسّه أصدقائي من مشاعر نحو أمهاتهم حسب قولهم. كنت أتنشّق رائحة أبي، ألف ذراعي حوله، واضعًا إبهامي في فمي، وأنام بعمق حتى يعلن صوت حوافر الجياد وصليل أجراس عربات الحليب عن مطلع الفجر.

-2-

كان أبي يتركني أفعل كل ما شئت. و«كل» هنا للمبالغة. إذ لم يكن بإمكاني أن أقدم على أفعال مقززة، كالعبث في أنفي أو أكل التراب، كما لم يكن بمقدوري أن أضرب أختي الصغيرة، أو أمسّ شعرة واحدة من رأسها. لم يكن بمقدوري الخروج دون تنبيه، أو عبور الطريق دون النظر إلى الجانبين، كان عليّ أن أبدي لـ"إيما" و"تيريسا" - أو أي من الخادمات اللاتي عملن لدينا في تلك الفترة: "مارييلا"، "روسا"، "مارجاريتا" - احترامًا يفوق احترامي لأي زائر أو قريب. كان عليّ أن أستحم كل يوم، وأغسل يدي قبل الأكل وأنظف أسناني بعده، وأعتني بنظافة أظفاري... ولكن لأنني كنت مطيعًا، فقد تعلمت تلك الأساسيات بسرعة كبيرة.

إنما أقصد بقول «كل» أنه كان بإمكاني، على سبيل المثال، أن آخذ كتبه أو أسطواناته بلا مانع، وأعبث بكل متعلقاته (فرشاة الحلاقة، الأوشحة، زجاجة الكولونيا، الفونوغراف، الآلة الكاتبة، القلم) بدون استئذان. كما لم أكن مضطرًا أن أطلب منه نقودًا. شرح لي الأمر كالآتي:

- كل ما هو لي، فهو لك. ها هي حافظتي، خذ منها ما احتجت.

وهناك كانت دائمًا، في جيب السروال الخلفي. كنت آخذ حافظة أبي وأعد ما بها من نقود. لم أعرف قط هل آخذ "بيزو" أو اثنين أو خمسة. كنت أفكر برهةً ثم أقرر ألا آخذ شيئًا. حذرتنا أمي مرات كثيرة:

- يا بنات!

كانت أمي تنادينا دومًا قائلةً «يا بنات»، لأن البنات كنّ أكثر عددًا، فلم تأخذ بعين الاعتبار تلك القاعدة النحوية (رجل بين ألف امرأة يُضفي صفة التذكير على كل شيء).

- يا بنات! رواتب أساتذة الجامعات هزيلة. لا يربحون شيئًا تقريبًا. لا تستغلن والدكم فهو ساذج ويعطي كل ما يُطلب منه، دون أن يكون في مقدرته.

كنت أحسب أنه بإمكاني أخذ كل ما بالحافظة من نقود. عندما كانت الحافظة تمتلئ بقدوم أول الشهر، كنت آخذ ورقة فئة 20 "بيزو" بينما ينام أبي القيلولة، وأذهب بها إلى غرفتي. ألهو بها حينًا، عارفًا أنها لي، وأشتري أشياءً في خيالي (دراجة، كرة قدم، قضبان تسير فوقها العربة الكهربائية، ميكروسكوب، تلسكوب، جواد) وكأنني ربحت اليانصيب. ولكن بعد ذلك، كنت أذهب لأضعها في مكانها مرة أخرى. نادرًا ما كانت تحوي الحافظة أوراقًا كثيرة، وباقتراب الشهر من نهايته، أحيانًا، كانت تخلو من الأوراق تمامًا. لم نكن أثرياء وإن بدا غير ذلك، إذ كان لدينا مزرعة، سيارة، خادمات، بل وراهبة تعتني بنا. عند سؤال أمي عما إذا كنّا أثرياء أو فقراء، كان ردّها واحدًا: «يا بنات! لا هذا ولا ذاك، نحن ميسورو الحال.» كثيرًا ما كان أبي يعطيني نقودًا دون أن أطلب، حينئذ لم يكن لدي أدنى مشكلة في قبولها.

وفقًا لأمي، لم يكن أبي قادرًا على فهم الاقتصاد المنزلي، وقد أصابت. كانت قد بدأت تعمل في مكتب صغير بوسط المدينة - ضد رغبة زوجها - فلم يكن راتب الأستاذ الجامعي يكفي حتى نهاية الشهر، ولم يكُن لديه أية مدخرات يستعين بها، إذ كان يفتقر لأدنى فكرة عن الادخار.

عند وصول الفواتير، أو عندما كانت أمي تقول بضرورة دفع أجر عامل البناء مقابل إصلاحه موضع التسريب بالسقف، أو أجر الكهربائي مقابل

إعادته التيار بعد انقطاعه، كان يتعكر مزاج أبي ويحبس نفسه في المكتبة للقراءة وسماع الموسيقى الكلاسيكية بأعلى صوت لتهدئة أعصابه. ورغم أنه هو الذي كان يتعاقد مع عامل البناء بنفسه، فقد كان ينسى بصفة دائمة الاتفاق على المقابل مقدمًا، ولذا فقد كانوا في النهاية يطالبون بالأجر الذي يحلو لهم. أما أمي، فبخلافه كانت إذا تعاقدت على عمل تطلب عرضين مختلفين، وتساوم، فلم تكن تقابلها أية مفاجآت عند الانتهاء من العمل قط. لم يملك أبي يومًا ما يكفي من المال، لأنه كان يعطيه أو يُقرضه لمن يسأله، أيًا كان، أقارب، معارف، أغراب، شحاذين. فكان طلاب الجامعة يستغلونه. وكذلك ناظر المزرعة، دون "ديونيسيو"، يوغوسلافي وقح، كان يتقاضى أجره من أبي مقدمًا، على أمل أن يقوم بزراعة تفاح أو كمثرى أو تين البحر المتوسط، أشياء لم تثمر في المزرعة قط. في نهاية المطاف، تعافت الفراولة والخضروات على يديه، وبدأ عمله الخاص في أرض اشتراها بالمبالغ التي دفعها له أبي مقدمًا، مُحرزًا تقدمًا مقبولًا. حينئذ تعاقد أبي مع دون "فيليسيانو" ودونيا "روسا" لتولّي شؤون المزرعة، وهما والدي "تيريسا" الخادمة، اللذان كانا يتضوران جوعًا بقرية في الشمال الشرقي تدعى "أمالفي". كان دون "فيليسيانو" قد شارف على الثمانين من العمل، ولازمه التهاب المفاصل، وعجز عن العمل في المزرعة، فضاعت الخضروات والفراولة التي زرعها دون "ديونيسيو". و بمرور ستة أشهر، تحولت المزرعة إلى قشّ وحشائش. ولكننا لم نكن لنترك دونيا "روسا" ودون "فيليسيانو" يتضوران جوعًا، وإلا لزاد الأمر سوءًا. كان لا بد من الانتظار حتى يموتا كهلين لتعيين آخرين للعناية بشؤون المزرعة، وقد كان. ثم جاء "إديلسو" و"بيلين"، وما زالا هناك، بعد ثلاثين سنة، بموجب عقد شديد الغرابة اخترعه أبي: الأرض لنا، أما البقر والحليب فلهما. عرفت أن الطلاب يقترضون منه نقودًا لأنني كثيرًا ما صحبته إلى الجامعة، حيث كان يبدو مكتبه وكأنه مزار للحجاج، فيصطف الطلاب في طابور بالخارج؛ كان بعضهم بالفعل يحضر لاستشارته فيما يتعلق بشؤون أكاديمية أو شخصية، ولكن الأغلبية

بغرض اقتراض النقود. كلما ذهبت معه، كان أبي يُخرج من الحافظة أوراقًا نقدية مرات عديدة ويناولها للطلاب، فلا يردّوها أبدًا، ولذا فقد كان يحيط به حشدٌ من كثيري السؤال طوال الوقت. - أولاد مساكين - كان يقول، لا يمتلكون حتى ثمن الغداء. ومع الجوع تستحيل الدراسة.

- 3 -

قبل التحاقي بروضة الأطفال، لم أكن أحب البقاء في البيت كل يوم مع "صول" والراهبة. فعند انتهائي من ألعاب الطفل الوحيد (تخيلات تدور حول حصون وجنود على الأرض)، كان أكثر ما يخطر ببال الأخت "خوسيفا" تسليةً، بخلاف الصلاة، هو الخروج إلى فناء البيت لمراقبة الطيور الطنّانة تمتصّ رحيق الزهور، أو التجول في الحيّ بعربة الأطفال حيث تجلس أختي التي كانت تنام في تلك الأثناء، في حين أقفُ على قضبان العربة الخلفية إذا تعبت من السير، بينما تدفعها الراهبة عبر الأرصفة. كنت أطلب من أبي أن يصحبني إلى المكتب تجنبًا لذلك الروتين اليومي الممل. كان يعمل في كلية الطب، بجوار مستشفى "سان فيسينتي دي بول"، بقسم الصحة العامة والعلاج الوقائي. إذا لم يكن بالإمكان الذهاب معه لانشغاله، كان يومئذ يأخذني في جولة بالسيارة في شارعنا على الأقل. كان يُجلسني فوق ركبتيه فأتولى عجلة القيادة بينما يراقبني. كانت السيارة كالفيل العجوز، ضخمة، كثيرة الضجيج، ذات لون أزرق سماوي وعلبة تروس أوتوماتيكية، من طراز "بلايماوث"، ترتفع حرارتها فينبعث الدخان من مقدمتها عند أول مُرتفع تقابله. كان أبي يصحبني معه إلى الجامعة كلما أمكن، على الأقل مرة واحدة في الأسبوع، فنمر عند دخولنا بجوار قاعة المحاضرات، حيث تُلقى محاضرات التشريح، فأتوسل لأبي كي يريني جثامين الموتى. أمّا هو، فكان ردّه دومًا: «كلا، ليس بعد.» كل أسبوع يتكرر نفس الموقف:

- بابا، أريد أن أتعرّف على ميّت.

- كلا، ليس بعد.

بمجرد معرفته بخلوها من المحاضرات والموتى، كنا ندخل إلى القاعة التي كانت بالغة القدم، من تلك القاعات التي تحيط بها مدرجات كي يتسنى للطلاب رؤية تشريح الجُثث، تقوم في منتصفها طاولة رخامية، حيث كان يستلقي بطل الدرس، كما في لوحة "رامبرانت". ولكن يومئذ، خلت القاعة من الجثث والطلاب وأساتذة التشريح. وفي ذلك الخواء، وعلى الرغم منه، علقت بالجو رائحة الموت، كحضور شبحي غير محسوس، لتجعلني أدرك، في تلك اللحظة بعينها، أن قلبي ينبض في صدري.

كنت أنتظر أبي جالسًا في مكتبه ريثما يلقي محاضرته، فأرسم أو أتظاهر بالكتابة كما يفعل أمام الآلة الكاتبة مستخدمًا السبابة. ومن على بُعد، كانت تراقبني "خيلما إوسي" السكرتيرة وهي تبتسم بشقاوة. لماذا كانت تبتسم؟ لا أعرف. كانت لديها صورة لزفافها، موضوعة داخل إطار، بدت فيها مرتدية ثوب الزفاف وهي تُزَف إلى أبي. كنت أسألها مرارًا وتكرارًا، لماذا تزوجت من أبي، فكانت تشرح لي باسمةً أنها تزوجت من رجل مكسيكي يدعى "إيبان ريستريبو" بالنيابة، وأن أبي قد ناب عنه في الكنيسة. بينما كانت تحكي لي عن تلك الزيجة، التي بدت لي غير مفهومة - غير مفهومة مثل زيجة والديّ نفسيهما، إذ تزوجا بالنيابة أيضًا، وفي الصور الوحيدة للزفاف تبدو أمي وهي تُزف إلى العم "برناردو" - كانت "خيلما إوسي" تبتسم وتبتسم، وعلى وجهها أكثر تعبير يمكن للمرء أن يتخيله بهجةً وإخلاصًا. بدت وكأنها أسعد امرأة في الدنيا، حتى كان يوم، ودون أن تكفّ عن الابتسام، أفرغت رصاصة في حلقها، ولم يعرف أحد السبب. ولكن في أيام طفولتي تلك، كانت تساعدني على وضع الورق في بكرة الآلة الكاتبة، حتى أتمكن من الكتابة. لم أكن أجيد الكتابة، ولكني كنت أكتب، وعند عودة أبي من المحاضرة كنت أعرض عليه النتيجة.

- انظر ماذا كتبت.

كانت سطورًا قليلة تزدحم بالشخابيط:

تشسهثصهخننثتتةيثقخ

تهنثةثاخضحهؤطضزئنؤ

خممض2س"ش9مخنتيخخخ

- رائع! - كان يقول أبي ضاحكًا ملء شدقيه، ضحكةَ رضا، ويهنئني بقبلة كبيرة على وجنتي، بالقرب من أذني. قبلاته، الكبيرة الرنانة، كانت تفاجئنا، وتتردد داخل طبلة الأذن، كذكرى مؤلمة سعيدة، لوقتٍ طويل. في الأسبوع التالي، كنت أكلف نفسي بعمل صفحة من الحروف المتحركة، قبل أن أخرج قاصدًا محاضرته، أولا الـ"A" ثم الـ"E"، وهكذا، وفي الأسابيع التالية، المزيد والمزيد من الحروف الساكنة، بدءًا بالأكثر شيوعًا، الـ"C"، الـ"P"، الـ"T"، ثم بعد ذلك كل الحروف، حتى الـ"X" والـ"H"، فرغم أنه حرف لا ينطق ويندر استخدامه، فهو الحرف الذي به يبدأ اسمي واسمه. ولذا فقد كنت بالفعل قادرًا على تمييز كل الحروف الأبجدية عندما التحقت بالمدرسة، ليس بأسمائها بل بأصواتها، وعندما علّمتنا مدرسة الصف الأول، "ليدا روت إسبينوزا"، القراءة والكتابة، تعلمتها في غمضة عين، وفهمت آليتها على الفور كما لو كنت تحت تأثير السحر، وكأنني ولدت قادرًا على القراءة.

كانت هناك كلمة، رغم ذلك، لم تدخل رأسي، واستغرقت سنوات لأتعلم أن أقرأها قراءة سليمة. كنت كلما رأيتها مكتوبة اعتراني الذهول (وهي كلمة يندر استخدامها من حسن الحظ)، فلا يخرج صوتي. إذا صادفتني، أرتجف، متأكدًا

من عدم قدرتي على نطقها نطقًا سليمًا: كانت الكلمة هي «الأبَرشية». لم أكن أعرف موضع النبرة، فبدلًا من وضعها في المكان المناسب، كنت في معظم الأحيان، وعلى نحو سخيف، أضع التشديد كاملًا على حرف الراء: الأبررررررشية. أو أنطقها مشددًا المقطع قبل الأخير: الأبرششششية، أو الأخير: الإبرشيااااا، وفي جميع الأحوال، لم أكن أنطق التشديد حسب موضعه الصحيح قط. قضت أختي "كلارا" حياتها تسخر مني بسبب تلك الحيرة، وكلما أمكن كانت تكتبها على ورقة وتسألني ببسمةٍ مشرقة: «يا تخين، ما المكتوب هنا؟» كانت تكفيني رؤيتها حتى يحمرّ وجهي وأعجز عن القراءة.

بعد سنوات حدث لي نفس الشيء بالضبط مع الرقص. كانت أخواتي جميعًا راقصات بارعات، أمّا أنا فقد كانت لي أذن موسيقية مثلهن، على الأقلّ عند الغناء، ولكن كلما دعيت إلى الرقص، كنت أضع التشديد في غير موضعه، بعدم انتظام تام، أو على نفس إيقاع ضحكاتهن التي تنطلق بينما يشاهدنّني أحرّك قدميّ. ورغم أنه جاء اليوم الذي تعلمت فيه أن أقرأ «الأبرشية» دون خطأ، إلّا أن خطوات الرقص ظلّت مستعصية عليّ أبدًا. من الصعب أن تكون للمرء أمّا، ناهيك عن ست أمهات.

أظن أن أبي تفهم سريعًا أن هناك طريقة أكيدة ليمنعني من القيام بشيء نهائيًا: بالسخرية مني. فما كنت أعود إلى شيء قط، إذا لاحظت أنه قد يبدو سخيفًا أو مثارًا للضحك. ربما لهذا كان يحتفي بكتابتي، حتى الشخابيط الفارغة من كل معنى، وعلمني بتمهلٍ شديد كيف تعبر الحروف عن الأصوات، كي لا تكون أخطائي الأولى مثارًا للضحك. تعلمت بفضل طول أناته الأبجدية كاملةً، الحروف وعلامات التشكيل على الآلة الكاتبة الخاصة به. ربما لهذا السبب فإن لوحة المفاتيح عندي تعد التجسيد الأكثر فعالية للكتابة، أكثر بكثير من القلم الرصاص أو الجاف. تلك الطريقة في غمر الأصوات، كالبيانو، لتحويل الأفكار إلى حروف

وكلمات، بدت لي منذ البدء، وما زالت، لون من ألوان السحر الأكثر فتنة في هذه الدنيا. علاوة على ذلك، بسبب تلك البراعة اللغوية المذهلة التي تتحلى بها النساء، فإن أخواتي ما كنّ يتركنّني أتحدث قط. كنت كلما فتحت بالكاد فمي لأقول شيئًا، فإذا بهنّ وقد قلنه باستفاضة أكبر وعلى نحو أفضل وأكثر فكاهةً وحذقًا. أعتقد أنني اضطررت لتعلم الكتابة حتى أتمكن من التواصل من حين لآخر، ومنذ صغري كنت أرسل خطابات إلى أبي، فيحتفي بها وكأنها رسائل "سينيكا"، أو روائع الأعمال الأدبية. حين أُدرك كم هي محدودة موهبتي في الكتابة (نادرًا ما أنجح في جعل الكلمات رائقة كالأفكار في عقلي، فما أقوم به يبدو غمغمة ركيكة خرقاء مُقارنةً بما كنّ أخواتي قد استطعن قوله)، أتذكر الثقة التي أولاني إياها أبي. حينئذ أهز كتفيّ وأستمر. حتى سطوري المشخبطة كانت تلقى إعجاب أبي، فماذا يهمّني إذا لم أرضَ كل الرضا عما أكتبه؟ أظن أن الدافع الوحيد الذي من أجله استطعت مواصلة الكتابة كل هذه السنوات، وتسليم كتاباتي للمطبعة، هو معرفتي بأن أبي كان ليستمتع أكثر من أي شخص آخر بقراءة كل تلك الصفحات التي لم يتمكن من قراءتها. والتي لن يقرأها أبدًا. إنها واحدة من أتعس المفارقات في حياتي: كل ما كتبت تقريبًا، كتبته لمن لا يستطيع قراءته، وهذا الكتاب تحديدًا، ليس بأكثر من رسالة إلى ظلّ.

سخر مني أصدقائي وزملائي بسبب عادة أخرى مُتَّبعة في بيتي، بيد أن تلك السخرية لم تنجح في وضع حدٍ لها. عند وصولي إلى المنزل كان أبي يحييني بالأحضان والقبلات والكثير من الكلمات الحانية، ثم في النهاية يضحك ضحكةً مجلجلة. يوم سخروا مني لأول مرة بسبب تلك «التحية التي تليق بمخنث وطفل مدلل»، لم أكن أتوقع مثل تلك السخرية. حتى تلك اللحظة كنت على يقين من أن تلك هي الطريقة السائدة والمعتادة للتحية بين الآباء والأبناء. ولكن كلّا، اتّضح أن الأمر في "أنتيوكيا" لم يكن كذلك. فالتحية بين الذكور، بين الأب والابن، يجب أن تكون فاترة، خشنة، وبلا عاطفة بادية.

تجنبت لفترة من الزمن تلك التحيات بالغة الحرارة في حضور الغرباء، إذ كانت تتسبب لي في حرج، ولم أكن أود أن أكون مثارًا للسخرية. ولكن المشكلة أنه وحتى في وجود رفقة، كنت أشعر بحاجتي إلى تلك التحية، كانت تدخل الطمأنينة إلى نفسي، ولذا فبمرور بعض الوقت تظاهرت خلاله بالعكس، قررت أن أتركه يحييني كما فعل دائمًا، حتى وإن سخر مني رفاقي وقالوا ما بدا لهم. على كل حال، كانت تلك التحية الحانية شيئًا خاصًا به، وليس بي، فكل ما كنت أفعله هو أن أتركه يحييني. ولكن لم يكن كل ما لقيته من زملائي سخريةً؛ أذكر ذات مرة، في أواخر سنوات المراهقة، اعترف لي صديق: «أشعرني أمثال أبيك بالغيرة دومًا. أبي لم يقبّلني طوال حياته.»

- أنت تكتب لأنك كنت طفلًا مدللًا، "Spoiled Child" - قال لي ذات مرة شخص يُفترض به أنه صديقٌ لي. قالها هكذا، بالإنجليزية، إمعانًا في التهكم، ورغم أنني غضبت، أظنه أصاب القول.

أؤمن بما ذهب إليه أبي دائمًا من أن تدليل الأبناء هو أفضل نظام تعليمي، وأحذو حذوه.

في مفكرة عثرت عليها بعد موته بعنوان «دليل التسامح»، كتب ما يلي: «إذا أردت أن يكون ابنك بخير، أسعِده، وإذا أردت أن تجعله أفضل حالًا، فزده سعادة. إننا نُسعدهم كي يكونوا بخير فيعود عليهم ذلك بمزيد من السعادة». ربما لا يكون بمقدور أحد، ولا حتى الآباء، أن يجعل أبناءه سعداء بكل معنى الكلمة. ولكن ما هو حقٌ وأكيد أنه باستطاعتهم إتعاس أبنائهم أيّما تعاسة. لم يضرب أيًا منًا قط، ولا حتى برفق، وهو ما يُطلق عليه في "ميديّين" "Alcahueta"، أي متساهل. لو كان ثمة ما يدعو لانتقاده، لانتقدت الحبّ المفرط الذي أظهره لي، رغم أنني لا أعرف إذا كان ثمة إفراط في الحب. ربما يكون ذلك ممكنًا، بل إنّ مِن الحب ما أضرّ، ففي بيتي ترددت بسخرية دائمًا واحدة من أولى العبارات التي تفوهت بها في حياتي، وأنا بنصف لسان ما زلت:

- بابا، لا تحبني إلى هذا الحد!

عندما قرأت «رسالة إلى أبي» لـ"كافكا" بعدها بأعوام، فكرت أنه يمكنني كتابة نفس الرسالة، ولكن معكوسة، مستخدمًا متضادات خالصة ومواقف نقيضة. لم أشعر نحو أبي بالخوف، بل بالألفة؛ ومن جانبه لم يكن مستبدًا، بل متسامحًا؛ لم يُشعرني بالضعف، بل بالقوة؛ لم يحسبني مغفلًا، بل نابغة. دون أن يكون قد قرأ قصة واحدة لي، ناهيك عن كتاب، ولأنه كان مطلعًا على سرّي، كان يخبر الجميع أنني كاتب، رغم أن تسليمه بما لا يعدو كونه حلمًا كان يثير حنقي.

كم شخصًا يمكنه القول بأنه سيتمنى نفس الأب الذي حظي به لو قُدرت له الولادة من جديد؟ أنا يمكنني القول بذلك. والآن أرى أن الوصفة الوحيدة لتحمل مدى قسوة الحياة على مرّ السنين، هي أن ينعم المرء في طفولته بحب الأبوين الغامر. لولا ذلك الحب المبالغ فيه الذي خصني به أبي، لكنت أقل سعادة بكثير.

الكثيرون يشكون آباءهم. وهناك مقولة مريعة تتردد في مدينتي: «الأمّ واحدة ليس سواها، أما الأب فقد يكون أيّ وغد.» ربما اتفقت والشطر الأول من المقولة المأخوذة عن أغنية تانجو، رغم أني، وكما شرحت، كان لدي نصف دزينة من الأمهات. أما الشطر الثاني من العبارة، فلا يمكنني أن أتفق معه. بالعكس، أظن أنه كان لدي أب أكثر مما ينبغي. كان، ولا يزال، إلى حدٍ ما، حضورًا دائمًا في حياتي. وحتى يومنا هذا أطيعه، ولكن ليسَ على الدوام (علمني العصيان أيضًا، عند الضرورة). في كل مرة يجب أن أحكم فيها على شيء فعلته أو سأفعله، أحاول أن أتخيل رأي أبي في ذاك الأمر. وقد حللت الكثير من المآزق الأخلاقية ببساطة مستدعيًا ذكرى سلوكياته الحياتية، قدوته، وكلماته.

ما سبق لا يعني أنه لم يوبخنا قط. كان صوته هادرًا إذا غضب، يضرب بيده على المائدة إذا أهدرنا شيئًا أو تفوهنا بحماقة أثناء الطعام. بوجه عام، كان متسامحًا جدًا مع ضعفاتنا إذا اعتبرها متعذرة العلاج كما لو كانت مرضًا. ولكنه لم يكن يتنازل أبدًا حين يرى أنه شيء يمكننا إصلاحه. ولأنه كان أخصائي صحة، لم يكن يطيق أي تلوث بأجسادنا، وكان يرغمنا على غسيل أيدينا وتنظيف أظفارنا في طقوس تكاد تبدو وكأنها تحضيرات لعملية جراحية. كان يكره، فوق كل شيء، أن نفتقد إلى الوعي الاجتماعي أو ألّا نفهم البلد الذي نعيش فيه. مرِض ذات يوم ولم يتمكن من الذهاب إلى الجامعة، فشعر بالأسف لأن طلابًا كثيرين سيدفعون أجرة الأوتوبيس وسيذهبون إلى قاعة المحاضرات سُدى.

قلت له:

- لماذا لا تتصل بهم عبر الهاتف كي تنبههم؟

فامتقع وجهه غضبًا:

- أين تخال نفسك؟ في أوروبا؟ في اليابان؟ أتظن الناس جميعًا يقطنون بـ"لاوريليس"؟ ألا تلاحظ أن هناك أحياء في "ميديّين" ليس بها حتى مياه جارية، من أين لهم بالهاتف؟

أذكر جيدًا نوبة أخرى من نوبات غضبه، كانت بمثابة درس قاسٍ بقدر ما كانت لا تنسى. لا أعرف كيف وجدت نفسي وقد تورطت بضع مرات مع مجموعة من الأطفال يسكنون بالقرب من المنزل في شكل من أشكال الحملات التخريبية، «ليلة بلور» مصغرة (لا بد وأنني كنت أبلغ من العمر حوالي عشرة أعوام، أو اثني عشر عامًا). على ناصية بيتنا، كانت تسكن عائلة يهودية: "آل مانيبيتش". وقال لنا قائد العصابة، صبي ضخم البنيان بدأ يخط شاربه بالفعل، أن نذهب إلى واجهة منزل اليهود لنقذفه الأحجار ونكيل لهم الشتائم. انضممت إلى العصابة. لم تكن الأحجار بالغة الضخامة، بل كانت بالأحرى حبات حصى صغيرة التقطناها عند حافة الشارع، بالكاد ترن فوق الزجاج دون أن تكسره، وفي تلك الأثناء أخذنا نصيح بعبارة لم أعرف مصدرها قط: «اليهود يأكلون الخبز! اليهود يأكلون الخبز!» أعتقد أنهم كانوا مدفوعين بالغيرة الثقافية على خبز الـ"أريبا". كنا على هذه الحال يومًا، حين وصل أبي من المكتب ليرى ويسمع ما كنا نفعله. ترجل من السيارة يستشيط غضبًا، جذبني من ذراعي بعنف لم أعهده وأخذني إلى باب "آل مانيبيتش".

- إياك وأن تفعل هذا! أبدًا! الآن سننادي السيد "مانيبيتش" وستعتذر له.

طرق الباب، فتحت فتاة تكبرني سنًا، فاتنة، مختالة، ثم أتى السيد "سيسار مانيبيتش" متجهمًا، فاترًا.

- سيعتذر لك ابني، وأؤكد لك بنفسي أن هذا لن يتكرر هنا مرة أخرى - قال أبي.

ضغط على ذراعي فقلت خافضًا بصري إلى الأرض: «آسف، يا سيد "مانيبيتش"!». «أقوى!»، أصرّ أبي، فكررت بصوت أقوى: «آسف، يا سيد "مانيبيتش"!». أومأ السيد "مانيبيتش" برأسه، صافح أبي وأوصد الباب. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ترك فيها عقاب أبي علامة على جسدي، خدش على ذراعي، وهي علامة أستحقها وما زالت تشعرني بالخزي، بسبب كل ما عرفت فيما بعد عن اليهود بفضله، ولأنني لم أقدم على تلك الفعلة الحمقاء الوحشية بناء على قرار اتخذته، ولا متأثرًا بأية أفكار طيبة أو خبيثة ساورتني حول اليهود، بل كنت مدفوعًا بغريزة القطيع تمامًا، وربما لهذا أبتعد منذ حداثتي عن الجماعات والأحزاب والجمعيات والتظاهرات الحاشدة وكل التجمعات التي قد تؤدي بي إلى أن أفكر تفكيرًا جماعيًا وليس فرديًا وأتخذ قرارات لا عن تأمل وتقييم شخصي، بل خضوعًا لذلك الضعف الناتج عن الرغبة في الانتماء لقطيع أو عصابة.

عند عودتنا من بيت آل "مانيبيتش"، وكما كان دأبه دومًا في اللحظات المهمة، أغلق باب مكتبه علينا، وقال ناظرًا إلى عيني إن العالم ما زال يعاني من طاعون يدعى معاداة السامية. قصّ علي ما فعله النازيون مع اليهود قبل ذلك بخمسة وعشرين عامًا بالكاد، وقال إن كل شيء قد بدأ تحديدًا بقذف الفتارين بالحجارة، خلال الـ"Kristallnacht" المروعة، أو «ليلة البلور المحطم». بعدها أراني صورًا بشعة لمعسكرات الاعتقال. قال إن أعز صديقاته وزميلته في الفصل، "كلارا جلوتمان"، أول طبيبة تتخرج من جامعة "أنتيوكيا"، يهودية،

وإن اليهود أهدوا إلى الإنسانية بعضًا من أعظم عباقرة القرن الأخير في العلوم والطب والأدب، الذين لولاهم لكانت المعاناة أشدّ والسعادة أقل كثيرًا في هذا العالم. وذكرني أن يسوع المسيح نفسه كان يهوديًا، وأن الكثيرين من سكان "أنتيوكيا" تجري في عروقهم دماء يهودية - وربما حتى نحن - لأنهم أُرغموا على التحول عن دينهم في إسبانيا، وأنه من واجبي احترامهم جميعًا، ومعاملتهم كأي إنسان، بل وأفضل، إذ إن اليهود - وكذلك الهنود والزنوج والغجر - من الشعوب التي عانت من الظلم أفظعه على مرّ التاريخ، في القرون الأخيرة. وقال إنه إذا أصرّ أصدقائي على القيام بذلك العمل الوحشي، لن أستطيع الانضمام إليهم في الشارع أبدًا. ولكن جيراني، الذين شهدوا الواقعة من الرصيف المقابل لم يعودوا قط إلى قذف الحجارة أو كيل الشتائم نحو نوافذ آل "مانيبيتش" بمجرد أن رأوا «ثورة الدكتور "آباد" العارمة».

- 5 -

عندما التحقت بروضة الأطفال أشعرتني القواعد المدرسية الصارمة بالهجر وسوء المعاملة. وكأنني سُجنت بغير جُرم. كنت أكره الذهاب إلى المدرسة: الطوابير، المكاتب، الجرس، المواعيد، إنذارات الراهبات كلما لاحت بارقة بهجة أو بادرة حرية. "لا بريسينتاسيون"، أول مدرسة قصدتها، حيث درست أمي وأخواتي جميعًا، كانت بدورها مدرسة راهبات للبنات فقط، ومع ذلك كان يُسمح للبنين أيضًا بالالتحاق بفصلي روضة الأطفال قبل مرحلة التعليم الأساسي، حتى وإن أصبحنا بذلك جنسًا نادرًا وأقليّة. بل والأكثر من ذلك أنني لا أذكر طالبًا ذكرًا واحدًا بين جميع زميلاتي، ولذا فقد كانت مدرسة الراهبات هذه وكأنها امتداد للبيت بالنسبة لي: نساء، ثم نساء، فالمزيد من النساء، باستثناء واحد لا غير، الحافلة، حيث كنت أجد السائق وطفلًا آخر. في الحافلة فقط كنت أجلس بجوار طفل آخر. كنّا نجلس في أحد المقاعد الخلفية، بالقمصان البيضاء والسراويل القصيرة ذات اللون الأزرق الداكن، وأذكر أن هذا الطفل، طوال الطريق، منذ صعوده إلى الحافلة وحتى وصوله إلى المدرسة، كان يُخرج «عصفوره الصغير» من أحد جانبي السروال، فيحكُّهُ ويفركهُ ويشدُّهُ بلا توقف. ثم يتكرر نفس الموقف في طريق العودة، من المدرسة وحتى تتركه الحافلة في بيته. كنت أشاهده مذهولًا دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة، إذ لم أفهم فعلته قطّ، وما زلت لا أفهمها، وإن كنت لا أنساها.

كنت أنتظر حافلة المدرسة عند الباب كل صباح، ولكن ما إن تلوح مقدمتها على الناصية، حتى يرتجف قلبي وأركض مذعورًا إلى داخل البيت.

- إلى أين أنت ذاهب؟

كانت تصرخ الراهبة "خوسيفا" مهتاجة، بينما تحاول أن تجذبني من القميص.

- سأودِّع بابا وأعود في الحال.

بهذا كنت أجيبها من مكاني فوق أولى درجات السلم ثمّ أصعد إلى غرفته وأدلف إلى الحمام (كان هذا هو موعد حلاقته)، فأعانقه متعلقًا بساقيه، وأقبله، ثمّ أودعه كما يفترض. كانت طقوس الوداع تبلغ من الطول حدًا يملّ معه سائق الحافلة من إطلاق آلة التنبيه والانتظار. عند نزولي كنت أجد الحافلة قد غادرت، فلا اضطر للذهاب إلى "لا بريسيتناسيون". يوم آخر من الهدنة. كانت تثور ثائرة الراهبة "خوسيفا"، وتقول إنهم لو استمروا في تدليل ذلك الطفل لن يحقق شيئًا في حياته، فيجيبها أبي بضحكة مجلجلة:

- رويدك يا أخت "خوسيفا"، لكل شيء وقت.

تكرر هذا المشهد مرة تلو الأخرى، حتى جاء يوم أغلق فيه أبي باب مكتبه علينا، وتفحص عيني سائلًا في جديّة شديدة إن كنت بالفعل لا أودّ الذهاب إلى المدرسة بعد. قلت له نعم، وفي الحال تأجل التحاقي بالمدرسة لعام آخر.

كان شيئًا رائعًا، نجدة عظيمة، حتى إنني إلى يومنا هذا، وبعد مرور أربعين عامًا، أشعر بخفةٍ حين أذكره. أتراه كان على خطأ؟ أؤكد لكم أنني خلال العام التالي لم أرِد البقاء في البيت ولا يوم واحد، ومن حينها لم أتغيب عن المدرسة، باستثناء بضعة أيام مرضت خلالها، ولم يفتني درس واحد طوال سنوات التعليم الابتدائي والثانوي ثم الجامعي. «السعادة، هي خير وسيلة للتعليم»، كان يردد أبي، ربما بتفاؤل زائد عن الحد، ولكنه كان يقولها عن قناعة حقيقية.

رَغمَ أن الحافلة فاتتني أغلب أيام العام الأول الذي انقطعت فيه عن الدراسة، بسببي، فإنها لم تفتني ولا مرة واحدة في العام التالي. أو بمعنى أصحّ، فاتتني مرة واحدة لن أنساها ما حييت. أذكر أنه بعد مرور أسابيع قليلة على التحاقي بنفس مدرسة الراهبات، في ثاني محاولة لفطامي، شرد ذهني ذات صباح واستغرقت وقتًا طويلًا في تذوق صفار البيض المقلي، فغادَرَت الحافلة بدوني. رأيتها تنعطف عند الناصية، ورغم أنني انطلقت أعدو خلفها، فلم يُسمع صوتي وأنا أنادي صائحًا. لم ينتبه أحد في البيت إلى أن الحافلة قد تركتني، ولم أرِد العودة إلى البيت بدوري، فقررت الذهاب سيرًا على الأقدام. كانت مدرسة "لا بريسينتاسيون" للراهبات، حيث التحقت بروضة الأطفال، تقع في وسط المدينة، في حي "أياكوتشو"، بالقرب من كنيسة "سان خوسيه"، مكان قسم الشرطة اليوم. بلغت جادة 33 عبر طريق 78، حيث كنا نسكن، ثم اتجهت إلى وسط المدينة وأنا لا أملك سوى فكرة مبهمة عن الطريق. عند مروري بميدان "بوليرياس" انطلقت أبواق السيارات لتحذيري، وكادت تصدمني سيارة أجرة، إلا أنها تفادتني متوقفةً بعنف على نحو مباغت، فصدر عن إطاراتها صفير حاد. سِرت على حافة الطريق بأقصى ما استطعت من سرعة، حاملًا حقيبتي الجلدية فوق كتفي، بينما يتصبب عرقي. كاد ميدان "بوليرياس" يكون عقبة مستعصية، ولكنني ذللتها وواصلت المسير نحو النهر ظنًّا مني أن الحافلة تمرّ من هناك. عندما هممت بعبور الجسر الذي يمرّ فوق نهر "ميديّين"، قريبًا من تلّ "نوتيبارا"، توقفت لوهلة كي أستريح وأتطلع إلى جريان المياه، عبر قضبان السور. كان ذلك هو النهر حيث فكرت بإلقاء نفسي إذا مات أبي، ولم أكن قد رأيته قط قريبًا، قذرًا، مشؤومًا إلى هذا الحد. كادت تتقطع أنفاسي، ولكني شرعت في المسير ثانيةً، على حافة الطريقة. في تلك اللحظة بعينها شعرت بسيارة أخرى تتوقف بغتةً إلى جواري، وكأنني أسمع صوت مكابحها الحاد الآن. سيارة أجرة ثانية على وشك أن تقتلني؟ كلا، بل رجل في

سيارة "فولكس فاجن"، قدم نفسه باسم "رينيه بوتيرو"، صاح بي عبر النافذة: «يا ولد! ماذا أنت فاعل هنا؟ إلى أين أنت ذاهب؟» «إلى المدرسة»، قلت له، فأجابني يستشيط غضبًا: «اركب، سأصحبك أنا، وإلّا قتلتك سيارة أو تعرضت للسرقة هنا!» كان ما زال أمامي عدة كيلومترات كي أصل إلى مدرسة «لا بريسينتاسيون»، وطوال الربع ساعة التي استغرقها الطريق لم نزِد كلمة واحدة.

ذلك المساء، بعد أن اشتكى السيد "بوتيرو" بشأن ما حدث لأمّي، وبختني توبيخًا طويلًا. اتُّهمت بأنني مجنون لرغبتي في الذهاب وحدي إلى وسط المدينة، دون حتى أن أعرف الطريق. حذرتني قائلة، بعد عبور النهر كنت ستصل إلى ما يُسمّى بـ«الحيّ البائس»، وهناك كنت ستضل طريقك بلا رجعة، ولولا السيد "رينيه بوتيرو" جارنا، لما كنت هنا تحكي لنا القصة. في وقت لاحق، بدلًا من أن يوبخني أبي قال لي شيئًا آخر:

- لو غادرت الحافلة بدونك مرة ثانية، في أي وقت، ولأي سبب، حتّى وإن كنت أنت السبب، اطلب مني أن أصحبك، ولسوف أفعل. دائمًا. وإن لم أستطع مرافقتك، فلا تذهب إلى المدرسة يومئذ، ولتبقَ في البيت. لا يهمّ؛ يمكنك أن تقرأ وتتعلم أكثر.

كان فطامي عن البيت عمليةً طويلة للغاية. وأنا في عمر الثامنة والعشرين من عمري، حين اغتيل أبي، كنت ما زلت أتلقى مساعدات مادية من حين لآخر، منه أو من أمي، رغم أنني كنت أسكن مع زوجتي الأولى منذ خمس سنوات، وكانت لي ابنة تخطو أولى خطواتها بالفعل. عندما تبعت حبيبتي الإيطالية "باربارا"، وأنا في الثالثة والعشرين من عمري، وذهبت للدراسة في "تورين"، كتبت لأبي رسالة مهمومة لكونه ما زال مضطرًا للإنفاق علي. وما زلت محتفظًا بردِّه المؤرخ 30 يونيو لعام 1982 (كنت قد ذهبت إلى أوروبا قبلها بخمسة عشر يومًا) ونصُّه كالآتي:

«إن انشغالك بسبب ما تُسميه "الاعتماد المادي" الذي طال أمدًا، ذكرني بفصول الأنثروبولوجيا، حيث تعلمت أنه كلما كان جنس الكائن أكثر تطورًا، طالت طفولته ومراهقته. وأظنّ أن «جنس عائلتنا» متطور إلى حد كاف، بكل معنى الكلمة. أنا كذلك كنت "اعتمد" ماديًا حتى سن السادسة والعشرين، ولكنني بصراحة، لم أنشغل بهذا قط. تأكّد أنك طالما واصلت دراستك وعملك كما تفعل، فإن "اعتمادك" علينا لن يكون حِملًا، بل التزام مُحبب إلينا، نأخذه على عاتقنا ببالغ الزهو والسرور.»

كانت تجمعني بأبي عاطفة مشتركة (وجسدية فوق ذلك)، اعتبرها الكثيرون من المقربين إلينا فضيحة تقف على مشارف المرض. قال بعض أقاربي إن أبي سيجعل مني مخنثًا من فرط التدليل. أمّا أمي، وربما لكي توازن الأمر، كانت تحاول إيثار أخواتي الخمس، وتعاملني بصرامة شديدة (لم تكن ظالمة يومًا، لا بخيرٍ ولا بشر، بل منصفة على الدوام) فكانت تكرس لهن وقتًا أطول وتوليهن عنايةً أكبر بكثير من تلك التي كنت ألقاها منها. ربما آثرني أبي لأنني الابن الذكر الوحيد، وخامس الأبناء من حيث الترتيب، وربما يكون العكس صحيحًا، فحملته محبتي له على إيثاري، لأن الآباء لا يحبون أبناءهم جميعًا بنفس القدر، حتى وإن تظاهروا بغير ذلك، بل يزيد حبّهم للأبناء كلما زاد حبّ الأبناء لهم بوجه عام، في الحقيقة أقصد كلما زادت حاجة الأبناء إليهم. إلى جانب ذلك (لن أدّعي كماله يومًا)، فإنه إذ آثرني، ولا سيما بتخصيصه وقتًا أطول بكثير لتعليمي وتبادل الأحاديث الجادة معي، فقد ظلم بعض أخواتي وميزني عنهن تمييزًا بالغًا على أساس الجنس. أمّا باقي الأقرباء، ورغم ظنّي بأنهم لم يولّوا الأمر اهتمامًا كبيرًا، فقد كان بهم ميلٌ للنظر إلى كل شيء بعين غير راضية. استعمر "آل آباد" الشارع حيث كنّا نسكن، فكان بيتنا يقع في تقاطع شارعي 34أ و79؛ يليه مباشرةً بيت العم "برناردو"، ثم بيت العم "أنطونيو"، أمّا على الناصية الأخرى في شارع 78، فهناك كان يقوم بيت جدي وجدتي لوالدي، "أنطونيو" و"إيبا"، اللذين كانا يعيشان مع ابنتهما الأرملة، العمة "إينيس"، وابنة أخرى غير متزوجة، العمة "ميرسي"، بخلاف أقرباء آخرين غير وثيقي القرابة كانوا يقضون بعض الأوقات هناك، ابن العم "مارتين ألونسو"، الفنان الهيبي الحشّاش، القادمِ من "بيريرا" والذي كتب في وقت

لاحق روايتين شيقتين، العم "داريو" عندما هجرته زوجته؛ ابنة العم "ليديا" وابن العمّ "راؤول" قبل زواجهما؛ أبناء العم اليتامى "برناردو" و"أولجا" و"سيسيليا" و"ألونسو"، وآخرين.

لا أعمامي ولا أجدادي - على ما أذكر - قبّلوا أبناءهم الذكور قط، ولا حتى من حين لآخر، فما كان ذلك يليق بجبال "أنتيوكيا" الجدباء القاسية، ذات المعالم القاحلة. ربّى جدّي أبي تربية خالية من أية مظاهر خارجية للعاطفة، بالسوط والقبضة القاسية، وسلك أعمامي نفس السلوك مع أبناء أعمامي الرجال (كانوا أقل قسوة بقليل مع النساء). لم ينسَ أبي يوم ضربه جدي بنفس اللجام الجلدي الخاص بالفرس الذي أسقطه عشر جلدات «لعلّه يتعلم ركوب الخيل كالرجال»، ولا المرات التي أرسله فيها إلى المراعي، في منتصف الليل، ليجلب البهائم إلى الحظيرة بلا فائدة تُذكر، لمجرد أن يجعله يواجه خوفه من الظلام ولكي «يروض طباعه». لم يكن ثمة تدليل أو عناق بينهم، ولا أية بارقة تفاهم، أمّا العاطفة الأخوية، فقد كان التعبير عنها يقتصر على اليوم الأخير من العام، بعد الذبائح والأطعمة المحمّرة، وشوط من الشراب يطول حتى يرقق القلب. ما كانوا يتخاطبون إلّا باستخدام لقب «حضرتك»، وكان ثمة فتور شعائري في أسلوبهم في الحديث. أمّا التعبير عن العواطف بين الرجال فكان يدخل ضمن نطاق الابتذال أو الخلاعة، لم يكن يُسمح سوى بالربتات الثقيلة والضربات كأقصى تعبير عاطفي ممكن. كانت الجدة "إيبا" تقول إن «التربية مستحيلة تمامًا بغير السوط والشيطان»، وهكذا تقول لأمي التي لم تكن تستخدم لا هذا ولا ذاك. أمّا جدي فكان يقول عني أحيانًا: «هذا الطفل تُعوزه يدٌ قاسية.» فيردّ أبي قائلًا: «أجل، تُعوزه يدٌ قاسية، والحياة كفيلة بذلك، فهي تقسو علينا جميعًا؛ الحياة أكثر من كفيلة بأن تذيقنا الشقاء، ولا أفكر في إعانتها على ذلك.»

ما لم أكن مخطئًا، أظن أن الجدّ "أنطونيو" لم يكن أقلّ تدليلًا مني، مهما قال. أحيانًا كنت أمرّ ببيته أيام الأحد، أو مساء الإثنين، كي آخذ الخزين، والذي كان عبارة عن كيس يحوي منتجات يجلبها من المزرعة الواقعة بـ"سورويستي" لكلٍ من أبنائه: "يوكا"، ليمون، بيض، جُبن مغلف بأوراق نبات الـ"كالاتيا"، وأهم من ذلك الجريب فروت، أكداس من الجريب فروت الذي كان جدّي يطلق عليه "بامبليموسا" ويُعزي له خصائص إعجازية، كمنشط جنسي، بصفة خاصة، كما علمت في وقت لاحق. كثيرًا ما كنت أجد جدتي "إيبا" جاثيةً أمامه تخلع عنه الحذاء، عند ذهابي لآخذ الخزين. كانت تقوم دومًا بنفس المهمة، صباحًا ومساءً، عند عودته من سوق الماشية حيث عمِل وسيطًا، أو من مكتب تجارة الماشية: تجثو أمامه، تخلع عنه الحذاء وتساعده على وضع النعال، وكأنه طقس روتيني من طقوس الخضوع. كما كانت تضطر الجدة "إيبا" لتحضير ملابسه في الصباح، ووضعها فوق السرير، بنفس الترتيب الذي يرتديها به: الملابس الداخلية، الشراب، القميص، السروال، الحزام، ربطة العنق، السترة، ثم المنديل الأبيض. أمّا إذا حدث ونسَت أن تحضر له ملابسه يومًا - أو وضعتها بترتيب غير صحيح - كانت تثور ثائرة الجدّ ويبقى كما ولدته أمّه يصرخ سائلًا عمّا سيرتدي يومها، اللعنة، ماذا ينتظر من زوجة حتى الملابس لا تستطيع تحضيرها من أجله.

كان الأبناء والأحفاد جميعًا يكنون للجدّ "أنطونيو" احترامًا مشوبًا بالخوف. كان يبلغ من الطول حوالي متر وخمسة وثمانين سنتيمترًا، إلى جانب كونه الأكثر ثراءً وطولًا والأفتح بشرة بين أفراد العائلة. لُقِّب بـ"آباد الأشقر"، إذ كان أشقر ذا عينين زرقاوين. وحده أبي لم يخشاه، ووحده كان يستطيع الردّ على كلماته القاطعة، ربما لأنه الابن الأكبر، والأكثر نجاحًا في الدراسة والعمل. كانت المعاملة بينهما فاترة، وكأن شيئًا قد انكسر في ماضيهما. بل والأكثر من ذلك، أظن أنه في أسلوب أبي المثالي في التعامل معنا، كان يكمن

احتجاج صامت على المعاملة التي لقاها من الجدّ، إلى جانب عزمه على ألّا يعامل أبناءه أبدًا بنفس ما لاقاه من جدي. عند ذهابي لأخذ الخزين، كنت أخرج حاملًا الكيس الممتلئ بالـ"يوكا" والجُبن والجريب فروت، فيناديني جدّي، «يا بُنيّ، تعالَ!»، ثم يخرج حافظة النقود الجلدية التي يحتفظ بها في جيبه لاهثًا بفمٍ نصف مغلق، ويفتّش فيها بعناية عن أصغر العملات المعدنية، ثم يعطيني اثنتين أو ثلاث، بأنفاسٍ مختنقة ودون أن يتوقف عن اللهاث: «كي تشتري لنفسك شيئًا يا بُنيّ، أو من باب أولى، كي تدّخر.» ادّخر جدي طوال حياته مكونًا ثروة لا بأس بها إضافةً إلى مزرعة مواشي في "سوررويستي"، وحيوانات ترعى في مزارع لملاك أراضٍ بـ"لا كوستا" يمتلكها بالشراكة معهم. حين بلغت ملكيته ألف رأس من عجول التسمين، أقام حفلًا ضخمًا حيث قُدم الشراب والـ"فريسوليس" والـ"تشيتشارون" لكل من أراد. عندما تُوفي، لم نعرف للألف عجل مكانًا قط؛ ادّعى أعمامي تجار الماشية أن العجول لم تكن بهذا العدد الضخم. كنت أذهب مرتين أو ثلاث كل عام إلى "لا إينيس"، مزرعة المواشي التي ورثها جدي عن أبويه في "سوررويستي"، بين "بوينتيس إجليسياس" و"لا بينتادا". كنا نذهب في شاحنة صغيرة حمراء من طراز "فورد"، عند مطلع الفجر، فيجلس العم "أنطونيو" خلف عجلة القيادة وأنا في المنتصف وجدّي بجوار النافذة، حاملًا كيسًا من جلد القندس مصنوع في "خيريكو"، البلدة التي ولدا فيها هو وأبي. وفي الطريق، عند وقت معين، دائمًا ما كان يُريني المسدس ذا الطلقات الستة الذي يحتفظ به داخل الكيس، «من باب الاحتياط». كما كان للكيس جيبٌ سريّ حيث يخفي رزمة من النقود ليدفع أجور ناظر العزبة والعمال. كان ذلك اختلاف آخر بين جدي وأبي، ففي حين كان دون "أنطونيو" مُسلحًا طوال الوقت، كره أبي الأسلحة ولم يشأ حتى أن يمسّها طوال حياته قط. كان أبي إذا سمع صوت لصوص في البيت ليلًا يذهب إلى الحمام، فيأخذ قلامة الأظافر ويخرج صائحًا: «ماذا تريدون؟ من هناك؟ ماذا تريدون؟ من هناك؟» كانت النقود تنساب من بين يديه، فلم أرَ بحوزته

يومًا رزما كثيرة من النقود. ورثت عنه، أو تعلمت منه، نفس النفور من الأسلحة، ونفس الصعوبة في الادخار، رغم أن دوافعي أكثر أنانية، فليس بي ذلك التعطش للعطاء، بل أوثر إنفاق النقود على الجود بها. كان يقال في بيت جدي إن ثمة نوعين من الذكاء، الذكاء «الطيب»، والذكاء «الآخر»، ورغم عدم وصفه بالشرير، فقد كان الحكم ضمنيًا. وبينما كانت فائدة الذكاء «الطيب» (والذي حظي به بعض أعمامي وأبناء أعمامي) هي جمع المال، فإن الذكاء «الآخر» لم يكن وراءه سوى إثارة القلاقل وتعقيد الحياة.

للوصول إلى البيت القائم في "لا إينيس" كان لا بد من ركوب الخيل لنصف ساعة، فكان ينتظرنا العمال على حافة الطريق، بجوار منزل كبير يُطلق عليه «المرآب» - إذ كان يتمّ صفّ السيارات هناك - به قطيع من البغال وثيران الحراثة وعدد من الخيل المسرجة. كان العمال يعرفون أنه يجب عليهم التواجد هناك كل خميس، من الساعة العاشرة، وفي حالة إلغاء السفر، تُرسل إليهم إشارة عبر إذاعة "سانتا باربارا": «إخطار موجه إلى ناظر عزبة "لا إينيس" في "باليرمو". برجاء عدم التوجه إلى الطريق يوم الخميس القادم، دون "أنطونيو" لن يحضر.» في الطريق كنت أسأل جدي "أنطونيو" أي جواد سأمتطي، فيجيبني إجابة واحدة دائمًا:

- "الحظّ" يا بُني، "الحظّ".

والغريب في الأمر بالنسبة لي، أن "الحظّ" كان يتلوّن كل مرة بلون جديد، ويعدو عدوًا مُختلفًا. توصلت إلى فهم ما قصده جدّي بعد ذلك بوقت طويل، حين فسره لي ابن عمي "برناردو" الذي كان يكبرني سنًا ويقلّ عني سذاجةً، إلى حدٍ ما:

- يا مُغفّل! "الحظّ" ليس جوادًا. يقصد جدّي أنه ليس للأطفال أن يختاروا، بل عليهم امتطاء الجواد الذي يشاءه لهم الحظّ.

كنّا نبقى في "لا إينيس" حتى مساء السبت، فأقضي الصباح سعيدًا أحلب الأبقار وأركب الخيل وأعدّ الحيوانات بطرف السوط، أشاهد كيف يُخصى العجول والمُهور، وتُحمَّى الماشية في المغطس للتخلص من القرادة، وتُغطى ضروع الأبقار المتورِّمة بالميثيلين الأزرق، وتُدمغ العجول بأسياخ من حديد تلتهب كالجمر. كما كنت أستحم بدوري، بغير مبيدات، تحت خيط المياه الرفيع المتساقط من الشلال ذو المترين المُسمى «جدول "بابا فيليكس"». و"بابا فيليكس" هو جدّ جدّي، وسُمي الجدول باسمه لأنه، وكما تقول الأسطورة، كان يأتي من "خيريكو" كي يستحمّ هناك مرتين فقط كل عام، مرة في أسبوع الآلام ومرة في عيد الميلاد المجيد.

كنت مولعًا بكل تلك المسرات الصباحية، ولكن بحلول المساء، وبينما النور آخذ في الانحسار، كان يغمرني حزنٌ لا يوصف، ضرب من ضروب الحنين نحو كافة أرجاء العالم، ما عدا "لا إينيس". كنت أستلقي فوق سرير معلّق أشاهد مغيب الشمس، وأنصت إلى صرير الجُدجُد الشجيّ، ونحيب الصمت، وأفكر في أبي بينما يغمرني الشجن من شعر رأسي إلى أخمص قدمي، في الوقت الذي كان يضبط فيه جدّي موجات الراديو على برنامج الأخبار الرتيب الكئيب (المُراسل "إيسّو"، مسيرة "جيليت" الرياضية)، الذي كان يبدو لي وكأنه يجذب الظلام، بينما يأخذ جدّي في اللهاث بسبب حرارة الجو، جالسًا على كرسي في رواق البيت، يتأرجح بلا نهاية، على نفس وتيرة آلامي. عندما يسدل الليل ستائره، كان جدّي يصدر تعليماته بتشغيل مولد كهرباء من طراز "بيلتون"، يدور مع جريان مياه الجدول. ذلك الطبل ذو الإيقاع الرتيب المتواصل، والذي لم يكن يكفي سوى لإنارة المصابيح بضوء متلألئ شاحب، كان يُمثل صورة أخرى للحزن والوحدة في نظري. في مدينتي، كان ذلك المرض المروّع الذي يصيب الأطفال مُسببًا لهم شعورًا بغياب الأبوين يُسمّى «حمّى الأمّ»، أما أنا فكنت أسميه اسمًا آخر سرًا، تيمنًا بشيء حاجتي إليه أشد بكثير: «حُمّى الأب». في

الحقيقة، الشخص الوحيد في حياتي الذي كنت أفتقده إلى حد البكاء، عند ساعة الغسق الطويل الكئيب في "لا إينيس"، هو أبي.

عند عودتنا إلى "ميديّين" مساء السبت، كنت أجد أبي في انتظاري بمنزل جدي "أنطونيو"، فيستقبلني بصيحات وضحكات مجلجلة، وقُبلات تصمّ الآذان، وأحضان تقطع الأنفاس. ثم بعد التحية، يجذبني من كتفي، ويميل نحوي ناظرًا إلى عيني، ويوجه لي أشدّ الأسئلة إثارةً لحنق جدي:

- حسنًا يا حبيبي، قل لي: كيف كان سلوك جدّك؟

لم يكن يسأل جدّي عن سلوكي أنا، بل ينصبني قاضيًا لأحكم على تلك الرحلات. كان ردّي واحدًا على الدوام، «جيد جدًا» وهو ما كان يخفف من حدة سخط جدي. ولكن ذات مرة - وأنا طفل في عمر السابعة - رفعت يدي مفتوحة أمام صدري وحركتها يمينًا ويسارًا، بتلك الإشارة التي تعني بَيْن بَيْن.

- بَيْن بَيْن؟ لماذا؟ - سألني أبي وقد اتسعت عيناه، بين خائف ومُستمتع.

- لأنه أرغمني على تناول حلوى الـ"ماساموزّا".

زفر جدّي ساخطًا، وقال لي حقيقةً لا بد أن أقبلها، وهي من أشدّ نقائصي التي ظلّت ترافقني طوال حياتي: «ناكر جميل!» ولكنّ أبي لم يوافقه على قوله، بل أطلق ضحكة مجلجلة سعيدة، أخذني من يدي وذهبنا إلى المنزل فرحين، للقراءة في المكتبة، أحيانًا كان يصحبني إلى "إل مولتيبلي" لتناول أيس كريم بالفانيليا والزبيب؛ «كي تنسى مذاق الـ"ماساموزّا"». بعد ذلك، عند وصولنا إلى المنزل، كان يقصّ على أخواتي ما دار بيني وبين جدّي، محرّكًا يده يمينًا ويسارًا، بينما يضحك على التعبير الساخط المُرتسم فوق وجه دون "أنطونيو"، وضحكته المجلجلة ترن في أرجاء المكان. لم أُرغم على أكل شيء في بيتي، واليوم آكل كلّ شيء، عدا الـ"ماساموزّا".

طبيب في وجه الألم والتعصُّب

- 7 -

لم أعرف الشقاء، أوّل ما عرفته، في نفسي ولا في بيتي بل عرفته في الآخرين، فقد اِهتمّ أبي بأن يعرف أبناؤه أن بعض الناس لا يحظون بنفس القدر من السعادة والحظّ. آمَن بضرورة أن نعرف منذ طفولتنا الشقاء الناجم، في أغلب الأحيان للأسف الشديد، عن مصائب وأمراض ملازمة للفقر الذي يعاني منه الكثير من الكولومبيين. كان أبي يُكرّس بعض العطلات الأسبوعية أثناء توقف المحاضرات الجامعية للعمل في أحياء فقيرة بـ"ميديّين". أذكر أنه، وفي وقتٍ مبكر جدًا من طفولتي، نزل ببيتنا خواجة فارع الطول، عجوز، أشيب الشعر، دمث الخلق، الدكتور "ريتشارد سوندرز"، وقرر إجراء برنامج يُدعى « Future for the Children»، أي «المستقبل للطفل»، بمشاركة أبي، كان قد سبق للدكتور "سوندرز" وأن نفذّه في عدد من بلدان إفريقيا وأمريكا اللاتينية. كان هذا الخواجة الطيب يجيء كل ستة أشهر، وعند دخوله إلى البيت، حيث يبيت لأسابيع، كنت أستقبله بالنشيد الوطني للولايات المتحدة. فقد كنّا نحتفظ في بيتنا بأسطوانة تحوي أهم الأناشيد الوطنية في العالم بمصاحبة الأوركسترا، بدءًا بالنشيد الوطني للولايات المتحدة، "نجوم وشرائط"، ثم «نشيد الأممية» وحتى النشيد الوطني لكولومبيا، أقبحها جميعًا، وإن أخبرونا في المدرسة أنه يحتل المرتبة الثانية في قائمة أجمل الأناشيد الوطنية على مستوى العالم بعد النشيد الوطني الفرنسي، "لامارسييز".

سُميّت غرفة الضيوف في بيتي «غرفة الدكتور "سوندرز"»؛ كذلك أفضل الملاءات، وكأنني أراها الآن بلونها الأزرق الفاتح، سُمِّيت «ملاءات الدكتور "سوندرز"»، وكانت تُفرش له فقط عند حضوره. أثناء وجود الدكتور "سوندرز" كانت تُستخدم أطباق البورسلين الفاخرة، والمناديل والمفارش الكتانية التي طرزتها جدتي، والأشواك والسكاكين الفضية: «أطباق الدكتور "سوندرز"»، «مفرش الدكتور "سوندرز"»، و«أشواك وسكاكين الدكتور "سوندرز"».

كنت أُنصت بينما يتحدث الدكتور "سوندرز" وأبي بالإنجليزية، مفتونًا بتلك الأصوات والكلمات غير المفهومة. أول تعبير تعلمته بالإنجليزية هو «it stinks»، أذكر جيدًا يوم سمعت الدكتور "سوندرز" يقولها بوضوح، أثناء عبورنا نهر "ميديّين" عبر جسر شارع "سان خوان". قالها يهمس همسًا جريحًا ساخطًا، مُشيرًا إلى حافلة تنفث سحابة سوداء من الدخان الكثيف المثير للغثيان، عند مستوى أنوفنا بالتحديد.

- ما معنى «it stinks»؟ - سألتُ. ضحكا، ثمّ اعتذر الدكتور "سوندرز"، لأنها كلمة نابية، حسب قوله.

- شيء من قبيل "مُنَفّر" - قال أبي.

وهكذا تعلمت كلمتين في آن واحد.

كان أبي يأخذنا إلى أكثر المناطق فقرًا بـ"ميديّين" برفقة الدكتور "سوندرز" (وأحيانًا كثيرة بدونه عند عودته لبيته في "البوكوركي" بالولايات المتحدة). وكانا يجتمعان بزعماء المنطقة عند وصولنا، ويقوم أبي بدور المترجم لطرح مقترحات العمل الجماعي لتحسين ظروف معيشتهم. كانت تُعقد اجتماعاتهم على إحدى النواصي أو في بيت القسيس في حال موافقته على ذلك (لم تكن هذه الخدمات الاجتماعية تحوز إعجاب كلّ القساوسة)، فيحدثهم

ويسألهم عن عدة قضايا ومشاكل واحتياجات أولية، يدوّنها أبي في مفكرته. كان ينبغي عليهم تنظيم صفوفهم، في المقام الأول، للحصول على مياه شرب على الأقل، فقد كان الأطفال يلقون حتفهم بسبب الإصابة بالإسهال ونقص التغذية. لعلني كنت في الخامسة أو السادسة من عمري في ذلك الوقت، فكان أبي يقارن بين طولي وأطوال أطفال من عمري أو حتى أكبر سنًا كي يبيّن لزعماء المنطقة أن بعض أبنائهم يعانون من الهزال وقصر القامة ونقص التغذية، وبالتالي لن يتمكنوا من استذكار دروسهم جيدًا. لم يكن يُحقّر من شأنهم؛ بل يحثّهم على اتخاذ موقف. كان يقيس محيط رؤوس الأطفال حديثي الولادة ثم يدوّنه في جدول ويلتقط صورًا للأطفال ذوي الأجساد النحيلة والبطون المنتفخة، المصابين بالطفيليات، كي يعرضها لاحقًا في محاضراته بالجامعة. كما كان يطلب منهم أن يعرضوا عليه الكلاب والخنازير. ففي حال بلغ جوع الحيوانات حدًا برزت معه ضلوعها، يعني هذا أنه لا تفيض عن حاجة تلك البيوت ولا حتى كسرة خبز، وأن سكانها يتضورون جوعًا.

«إذا شحّ الغذاء، فليس صحيحًا أننا نولد سواسية، أولئك الأطفال يأتون إلى الدنيا تسبقهم المصاعب» كان يقول.

أحيانا كنا نذهب أبعد من ذلك، إلى بعض القرى، فيصحبنا عميد كلية الهندسة المعمارية بجامعة "بونتيفيسيا" الدكتور "أنطونيو ميسا خاراميو"، المسؤول عن تعليم كيفية تصنيع خزانات مياه باتباع تقنيّات سليمة، وتوصيل مواسير المياه بالبيوت، لأن الأولوية كانت لمياه الشرب. ثم بعد ذلك تأتي المراحيض («للتخلص من الفضلات بطريقة مناسبة»، كان يقول أبي مستخدمًا مصطلحات على قدر كبير من التقنية) ثم أعمال شبكة الصرف الصحي، إن أمكن، والتي كانت تُجرى أثناء العطلات الأسبوعية بالجهود الذاتية. ثم كانت تُباشر في وقت لاحق حملات التطعيم ودروس النظافة والإسعافات الأولية للوقاية من الحوادث المنزلية، وفقًا

لبرنامج ابتكره أبي مع النساء الأكثر تقبّلًا والأوفر حظًا من الذكاء في كلّ مكان، ونفذّه فيما بعد في كافة أرجاء كولومبيا باسم «برنامج تعزيز الصحة في المناطق الريفية». في بعض الأحيان كنّا نستقل حافلة الجامعة ونذهب مع طلاب الصفّ جميعًا، فقد كان يحبّ أن يقوم طلابه بتقديم المساعدة وتحصيل العلم في آن واحد: «دراسة الطب لا تقتصر على المستشفيات والمعامل، والكشف على المرضى وفحص الخلايا، بل إنها ممكنة أيضًا في الشوارع والأحياء، من خلال رصد أسباب ودواعي الإصابة بالأمراض»، كان يقول لهم ممسكًا بالميكروفون، بجدية شديدة، وهم وقوف في الطابور أمام الحافلة.

ذات مرّة، أطلقوا حملة للقضاء على الطفيليات المعوية في كافة أرجاء المنطقة الحضرية بـ"سانتو دومينجو"، وقد أتت ثمارها إلى درجة انسدت معها مواسير الصرف الصحي بكميات الديدان التي تخلص منها القرويون في يوم واحد. كنّا نحتفظ في بيتنا بصورة لقناة صرف صحي وقد سدّها تكتل من الديدان بدا وكأنه كومة من المكرونة الإسباجيتي باللونين الأرجواني والأسود.

كانت مياه الشرب هي أولى الهواجس التي طاردت أبي وظلت تطارده حتى النهاية. فقام بإطلاق حملةٍ من أجل الصحة العامة، وهو طالب طبٍّ لا يزال، من خلال صحيفة طلابية أسسها في أغسطس من عام 1945 وأدارها لأكثر من سنة بقليل، حتى أكتوبر من عام 1946، حين اختفت الصحيفة من الوجود، ربما لأنه لم يكن ليستطيع التخرج لو استمر في إصدارها. كانت صحيفة شعبية شهرية تحمل اسمًا مستقبليًا: U-235. في واحد من أعدادها الأولى، الصادر في مايو من عام 46، ندد بتلوث مياه الشرب والحليب في المدينة: «مجلس مدينة "ميديّين" وصمة عار في جبين الدولة»، هكذا كان عنوان الصفحة الأولى، وأضاف في العنوان الفرعي: «قناة المياه تنشر البكتيريا المُسببة

لحمّى التيفويد. الحليب غير صالح للشرب. مجلس المدينة لا يملك مستشفى.» وبسبب تلك التنديدات، المُدَعَّمة بأرقام وتحاليل معملية، استُدعي أبي لمناقشة علنية وطارئة أمام مجلس مدينة "ميديّين". كانت أول مرة يُسمح فيها بأن يستعرض طالب عادي تنديداته في مناقشة علنية، في مواجهة مسؤولي الحكومة. وهناك، أمام ممثل وزارة الصحة، وعلى مدار ليلتين متتاليتين، قدم لهم تقريرًا علميًا محكمًا، لم يستطع ممثل الوزارة دحضه فسعى إلى التملص بشتائم تمسّ شخص أبي وحجج وبراهين مبتذلة. إلّا أنه كان نصرًا فكريًا لا سبيل لإنكاره، وهكذا، وبفضل كلمته وما قدمه من بيانات دقيقة، بدأ العمل بعد وقت قصير في مشروع بناء قناة ملائمة توفر المياه لكافة أرجاء المدينة، (البذرة الأولى للقناة التي ما زلنا نستخدمها)، مزودة بنظام مناسب لمعالجة المياه، ومواسير حديثة لا تختلط بها مياه الشرب بالصرف الصحي، فقد كانت شبكة الصرف قديمة، ومصنوعة من طين يسهل نفاذ السوائل من خلال ثغراته، مما يؤدّي إلى تلوّث مياه الشرب.

كانت إحدى المناقشات الأخرى التي يرجع الفضل في إثارتها لصحيفته وأطروحة التخرج من كلية الطبّ التي أعدّها فيما بعد تدور حول جودة الحليب والمشروبات الغازية. كان التهاب الكبد الوبائي والتيفويد من الأمراض الشائعة في "ميديّين" حتى ذلك الوقت الذي أعلن فيه أبي عن استنكاره للوضع، علاوة على ذلك توفي اثنان من أخوال أمي بالتيفويد الذي انتقلت لهما عدواه عن طريق المياه الملوثة. وأصيب جدّي بنفس المرض، كما لقي والد جدّي "أنطونيو" حتفه مصابًا بالتيفويد في "خيريكو". ربما لهذا استحوذ هاجسي النظافة ومياه الشرب على أبي؛ كانت مسألة حياة أو موت، وسيلة أراد بها، على أقل تقدير، أن يتفادى ألمًا يمكن تفاديه في هذا العالم المترع بآلام لا مفر منها. ولكن شرارة كفاحه من أجل المياه انطلقت بموت أحد زملاء دراسته في

الجامعة، توفي هو الآخر مصابًا بحمى التيفويد. رآه أبي ينازع الموت مفارقًا الحياة، شاب له نفس أحلامه، فقرر أنه لا ينبغي لهذا أن يتكرر في "ميديّين". إن التنديدات المُلتهبة التي أعلن عنها في صحيفته الطلابية، وكلماته النارية أمام المجلس، والتي وصمها البعض بالتحريضية، لم تكن لُعبة سياسية، كما وصفوها أيضًا، بل كانت نابعة من شعورٍ حقيقي بمعاناة الإنسان، وسخط شديد مبعثه الشقاء الذي يمكن الوقاية منه بقليل من النشاط الاجتماعي ليس أكثر. هكذا قال أبي لمؤرخ الطب "تيبيريو ألباريس":

«شرعت أُفكر في الطب الاجتماعي حين رأيت أطفالًا كثيرين يفارقون الحياة في المستشفى مصابين بالدفتريا وعرفت بعدم وجود حملات تطعيم؛ فكرت في الطبّ الاجتماعي حين توفي زميلنا "إنريكي لوبيرا"، بالتيفويد والسبب عدم معالجة مياه القناة بالكلور. كما أودت حمى التيفويد بحياة الكثيرين من أهالي حي "بوينوس آيرس"، ببناته بارعات الجمال، صديقاتنا. كنت أعرف أن الوقاية من هذا المرض ممكنة بإضافة الكلور إلى القناة... فأعلنت عن تمرّدي من خلال صحيفة U-235، وعندما عُقدت المناقشة العلنية الطارئة وَصَفتُ أعضاء المجلس المحلي بالمجرمين، لأنهم تركوا الأهالي للموت بحمّى التيفويد بسبب عدم تشييد قناة ملائمة. وقد أتى ذلك ثماره، فعقبه إطلاق حملة موسّعة من أجل المياه؛ أُطلق عليها اسم "حملة H_2O"، والتي ساهمت في تحسين القناة والانتهاء من تشييدها.»

القارئ لبعض افتتاحيات U-235 يدرك الأثر الرومانسي الشديد لأحلام ذلك الشاب، طالب الطبّ. كان يطلق حملةً في كلّ عدد من أعداد الصحيفة من أجل قضية مهمّة يكاد يكون نجاحها، على يد شاب قروي حديث العهد بعاصمة المقاطعة، مستحيلًا. ولكن، إلى جانب حرصه على الكفاح من أجل مُثُله التي تجاوزت حب الذات (أو تمثلت في ذلك اللون من ألوان حب الذات الأشد عمقًا،

والذي يظهر في رغبة المرء في أن يصير بطلًا رومانسيًا يبذل ذاته ويضحي بنفسه) كان يفتح صفحات الجريدة لكتاب يدعون إلى المضي قدمًا في هذا الطريق.

ربما كان المقال الذي نُشر في العدد الأول من صحيفة U-235 هو أهمها. وقد ذيّله بتوقيعه الفيلسوف الأعظم، وربما الوحيد، في إقليمنا: "فرناندو جونساليس". روى لنا أبي أنه كان يقرأ لمفكر "أوترابارتي"، ويخفي كتبه تحت الفراش، فقد سبق لجدّتي وأن ألقت بها في القمامة بعد أن رأته يقرأها ذات مرّة. ذهب أبي بنفسه إلى "إنبيجادو" ليطلب من الأستاذ أن يكتب له مقالًا حول مهنة الطب ليُنشر في العدد الأول من الصحيفة. لم يرفض "جونساليس"، وأعتقد أن الوصايا التي قدمّها للأطباء في تلك المناسبة قد انطبعت في ذاكرة أبي بمدادٍ لا يزول. ما أوصى به "فرناندو جونساليس" هناك هو ما سعى أبي لتحقيقه، وحققه بالفعل خلال ما تبقى له من حياة: «ينبغي على الطبيب الأستاذ أن يكون هناك في قلب الطرقات، فيراقب، يتلمّس، يرى، يسمع، يمسّ، يناضل من أجل علاج مرضاه ومن وراءه تلاميذه الذين يخلعون عليه لقب الألقاب: أستاذ!... أجل، أيها الأطباء الصغار، ليست الغاية هي التمتع بالوسامة وتقاضي الأجور الضخمة وبيع أقراص غذاء ملكات النحل... بل هي إرسالكم إلى كافة الأنحاء للعلاج والابتكار، أو باختصار، للخدمة.»

-8-

كان من رأي أبي أن الطبيب لا بد وأن يبحث ويتفهم العلاقة بين الوضع الاقتصادي والصحة، ويكف عن أداء دور المشعوذ ليصبح ناشطًا اجتماعيًا وعالمًا. ندّد في أطروحته بالأطباء الحواة: «الطبيب، في رأيهم، لا بد وأن يظل الحِبْر الأعظم، رفيع المقام واسع النفوذ، الذي يوزّع النصائح العائلية والتعازي كما لو كانت عطايا إلهية، ويحسن إلى المعوزين بينما يداخله شعور مبهم بأنه كاهن مُنزل من السماء، ويعرف كيف يُحسن القول ساعة الموت التي لا رجعة فيها، ويجيد مداراة نقائصه بالمصطلحات اليونانية.» كان يستشيط غضبًا ممن يريدون «استخدام العلاج» ببساطة مع المصابين بحمّى التيفويد، بدلًا من الوقاية منها باتخاذ التدابير الصحية. كانت تثير سخطه «الأدوية العجيبة» و«الحقن الجديدة» التي يعطيها الأطباء لـ«زبائنهم» ممن يدفعون بسخاء مقابل الاستشارات الطبية، وكان يعترم بداخله نفس الغضب ممن «يشفون» الأطفال بدلًا من الحول دون الأسباب الحقيقية لأمراضهم، والتي كانت اجتماعية.

أنا لا أذكر، ولكن أخواتي الأكبر مني سنًا يذكرن أنه في بعض الأحيان كان يأخذهن أيضًا إلى مستشفى "سان فينسيتي دي بول". "ماري لوس"، الكبرى، تذكر جيدًا يوم أخذها إلى مستشفى الأطفال وجعلها تمرّ بأجنحتها جميعًا وتزور الأطفال المرضى واحدًا تلو الآخر. بدا وكأنه مجنون، مهتاج، تروي أختي، يقف أمام كل مريض تقريبًا ويسأل: «ما خطب هذا الطفل؟» ثم يرد على نفسه بنفسه: «الجوع.» ثم بعدها بمسافة صغيرة: «ما خطب هذا الطفل؟ الجوع.» «ما خطب هذا الطفل؟ نفس الشيء: الجوع.» «وهذا الطفل الآخر؟ لا شيء:

الجوع. كل أولئك الأطفال ليس بهم خطب سوى الجوع، إن بيضةً واحدة وكوبًا من الحليب يوميًا يكفيان كي لا يبقوا هنا. ولكن ولا حتى هذا يمكننا توفيره لهم: بيضة وكوب من الحليب! ولا حتى هذا، ولا حتى هذا!! لقد طفح الكيل!».

وبفضل قلبه الرحيم، وإصراره على جعل النظافة الصحية في متناول اليد من خلال التعليم والمشاريع ذات المنفعة العامة، استطاع أيضًا، وهو طالب لا يزال، أن يجعل تعقيم الحليب بطريقة سليمة قبل بيعه إجباريًا، رغم معارضة تجار المواشي ممن كان باعتقادهم أنهم سيتعرضون لخسائر مادية على هذا النحو. كان قد اكتشف من خلال تجاربه المعملية وجود أميبا وعصية الدرن وروث في الحليب الذي يباع في "ميديّين" والقرى المجاورة. كان يقول إن مجرد توفير مياه شرب وحليب نظيف ينقذ أرواحًا أكثر من العلاج الفردي، النوع الوحيد من العلاج الذي يرغب غالبية زملائه في ممارسته، للإثراء من ناحية، وتعزيز مكانتهم الاجتماعية باعتبارهم سَحَرة القبيلة من ناحية أخرى. كان يقول إن غرف العمليات، والجراحات الكبرى والتقنيات الأكثر تطورًا المستخدمة في تشخيص الأمراض (والتي تستطيع تحمل تكاليفها قلّة قليلة)، والتخصصيين في أي مجال أو حتى المضادات الحيوية - مهما كان لها من خصائص إعجازية - تنقذ أرواحًا أقل من المياه النظيفة. كان يدافع عن الفكرة الأساسية - الثورية أيضًا، باعتبارها تهدف إلى مصلحة الناس جميعًا، وليس فئة قليلة منهم - والقائلة بأولوية توفير المياه وعدم إنفاق الموارد المالية في أغراض أخرى حتى يتم توفير مياه الشرب لكافة السكان. «لقد أنقذ علم الوبائيات أرواحًا أكثر من كافة علوم التداوي»، كتب في أطروحته. كان يمقته كثيرٌ من الأطباء بسبب دفاعه عن هذا الرأي المتعارض ومشاريعهم الضخمة الحافلة بالعيادات الخاصة والمعامل وتقنيات تشخيص الأمراض والدراسات

التخصصية. شعروا نحوه بكراهية دفينة، ربما كان لها ما يفسرها، فالحكومة فَي حالة تردد دائم حيال كيفية توزيع الموارد القليلة، وفي حالة مدّ قنوات المياه يستحيل شراء أجهزة متطورة أو بناء مستشفيات.

ولم يكن كارهوه مجرد حفنة من الأطباء فحسب. بوجه عام، لم يلقَ أسلوبه في العمل ترحيبًا بالمدينة. قال زملاؤه «لا حاجة للحصول على دبلومة لعمل ما يقوم به هذا "الطبيب"»، إذ لم يكن يمثل لهم الطب أكثر من علاج المرضى في عياداتهم الخاصة. أما أولئك الأكثر ثراءً ظنوا أنه ينظم صفوف الفقراء للقيام بثورة، بسبب هوسه بالمساواة والوعي الاجتماعي. خلال زياراته إلى الأقاليم وحديثه مع الفلاحين لتنفيذ مشاريع بالجهود الذاتية، كان يتكلم إليهم أكثر مما ينبغي عن الحقوق، وأقل مما ينبغي عن الواجبات، حسب قول منتقديه من المدينة. متى شوهد الفقراء يتذمرون بصوت مسموع؟ قال السياسي المرموق "جونسالو ريستريبو خاراميو" في نادي "أونيون" - النادي الأرقى في "ميديّين" - إن "آباد جوميس" هو الماركسي الأفضل تنظيمًا في المدينة، ويساري خطير لا بد من قصّ جناحيه كي لا يستطيع التحليق. تلقّى أبي دراسته في إحدى الكليات البراجماتية الأمريكية (بجامعة "مينيسوتا")، لم يكن قد قرأ "ماركس" قط، بل وكان يخلط بين "هيجل" و"إنجلز". ولكي يعرف الاتّهام الموجّه له جيدًا قرر أن يقرأ أعمالهم، فلم يبدُ له كل ما قرأ سخيفًا، وتحول شيئًا فشيئًا خلال مسيرة حياته إلى ما يشبه المناضل اليساري، الذي اِتُّهم بكونه. في أواخر أيامه، انتهى به المطاف إلى القول بأنه ذو أيديولوجية هجينة: مسيحي الديانة، مُتأثرًا بشخص يسوع الطيب وميله الظاهر للمستضعفين؛ وماركسي الاقتصاد، مدفوعًا بالكراهية التي كان يشعر بها نحو الاستغلال الاقتصادي وانتهاكات الرأسماليين المشينة؛ وليبرالي السياسة، لأنه لم يكن يطيق غياب الحرية ولا الديكتاتورية، ولا حتى ديكتاتورية طبقة

البروليتاريا، فالفقراء في السلطة، وبعد أن يتجاوزوا عتبة الفقر، ليسوا بأقل طغيانًا وقسوةً من الأثرياء في السلطة.

- أجل، هجين من الجواد والبقرة: لا يعدو ولا يدرّ الحليب - كان يقول بسخرية "ألبرتو إتشاباريا"، أخصائي أمراض الدم وزميل أبي في الجامعة، والد "دانييل" أعز أصدقائي و"إلسا" حبيبتي الأولى.

في الجامعة كذلك كانت تُوجّه له الانتقادات وتوضع العثرات في طريقه لتعكير صفو حياته. فكان قيامه بعمله في سلام، أو بين وابل من الشكاوى ورسائل الاتهام والخوف من التهديدات المُقنّعة بإقالته من منصبه، أمرٌ يتوقف على رئيس الجامعة أو عميد الكلية في حينه. ورغم محاولته للتصدي لكل تلك الهجمات، أو على الأقل نسيانها بضحكة مجلجلة، فقد جاء وقتٌ لم تكفِ فيه ضحكاته المجلجلة لدرءها.

من بين الهجمات الكثيرة التي تعرض لها، تذكر أمي بوضوح هجومًا شنّه واحد من زملائه، أستاذ مرموق في نفس الجامعة، ورئيس قسم جراحة القلب والأوعية الدموية، "تويرتو خاراميو". ذات مرة، وفي حضور أبي وأمي، قال مُشددًا خلال أحد الاجتماعات: «لن أتنفس الصعداء حتى أرى "إكتور آباد" مُعلقًا على شجرة بجامعة "أنتيوكيا"». بعد مرور بضعة أسابيع على اغتيال أبي، أخيرًا، كما تمنى الكثيرون زمنًا طويلًا، التقت أمي بـ"تويرتو خاراميو" في متجر، وبينما كان الأخير يلتقط بضعة أطباق من اللحم، اقتربت منه وقالت ببطءٍ شديد وهي تتفرس في عينيه: «دكتور "خاراميو"، هل تنفست الصعداء؟» امتقع وجه "تويرتو" ودون أن يدري ماذا يقول، أولاها ظهره وابتعد دافعًا عربة المشتريات. كذلك أصيب بعض القساوسة بهوس انتقاده باستمرار. كان أحدهم على وجه الأخصّ، الكاهن "فرناندو جوميس ميخيّا"، يكره أبي بكل

جوارحه، بتفانٍ وإخلاص قلّما عرفهما الحب! جعل من كراهيته لأبي شغفًا لا يحدّه حد. كان له عمود ثابت في الجريدة اليومية المحافظة "إل كولومبيانو"، وبرنامج إذاعي أيام الآحاد، «الساعة الكاثوليكية». كان هذا الكاهن متشددًا حاد المزاج (تلميذ أسقف "سانتا روسا دي أوسوس" الرجعي، المونسنيور "بويّيس") يجد شبهة خطيئة الجسد في كل شيء، يصب لعناته يمنة ويسرة، بلهجة متهكمة خبيثة، تبلغ من العلو والتكرار حدًا عُرف معه البرنامج في نهاية المطاف باسم «الببغاء الكاثوليكي». كان يكرس عدّة مقالات وعلى الأقل خمس عشرة دقيقة من تلك الساعة، شهريًا، ليهاجم وبعنف الخطورة التي يمثلها ذلك الـ«طبيب الشيوعي» مُفسد ضمائر سكان الأحياء الشعبية بالمدينة. حسب قوله، كان أبي «يدسّ سمّ الكراهية والحقد والحسد في عقول الفقراء البسيطة»، لمجرد أنه فتح أعينهم على تعاستهم وحقوقهم. عانت أمي الأمرين من هذا، ورغم ضحكة أبي المجلجلة، فقد كان يستاء في دخيلة نفسه. ذات مرّة لم يضحك. فقد ألقى الكاهن عبر الإذاعة بيانًا صادرًا عن أسقفية "ميديّين" ضد أبي، ومُذيّلًا بتوقيع رئيس الأساقفة.

-9-

كانت أمّي ابنة رئيس أساقفة "ميديّين"، "خواكين جارسيا بينيتيس". أعرف أن تلك العبارة قد تبدو تجديفًا، لأن التبتّل كان مفروضًا على الكهنة الكاثوليك، على الأقل في تلك الحقبة، ورئيس الأساقفة كان أكثر تبتُّلًا وصرامة من أيٍ منهم. في الواقع لم تكن أمّي ابنته، بل ابنة أخيه التي عاشت معه قسطًا طويلًا من طفولتها وشبابها لكونها يتيمة، ولطالما قالت إن العمّ "خواكين" كان بمثابة أبٍ لها. كنا نعيش في بيت عادى في "لاوريليس"، أمّا أمّي فقد تربّت في «القصر» مع العمّ "خواكين"، في أكبر وأفخم بيت في وسط المدينة، «قصر "آمادور"»، على اسم التاجر الثري الذي شيّده في مطلع القرن من أجل ابنه، جالبًا الخامات من إيطاليا والأثاث من باريس. بيتٌ هائل، اشتراه مجلس الأسقفية حين توفي الوريث الثري، ثم أطلق عليها اسم «قصر الأسقفية». كان العمّ "خواكين" ضخم البنيان، رزينًا، كثور وديع، ينطق الراء على الطريقة الفرنسية، وله بطنٌ بلغت من البروز حدًا اضطر معه شقّ فجوة دائرية عند رأس المائدة، حيث يجلس، كي يأخذ راحته في غرفة الطعام.

كانت ثمة قصة أسطورية في ماضيه، تعود إلى العشرينيات من القرن الماضي، أثناء عمله في المكسيك حيث أسّس معهدًا لاهوتيًا جديدًا في "جالابا" وتولّى إدارته، إلى جانب شغله منصب أستاذ في علم اللاهوت المقدّس واللغتين اللاتينية والإسبانية. وفقًا لما قيل في البيت، فإنه خلال حرب "كريستيرا" - والتي نشبت بين حكومة المكسيك والآلاف من الكاثوليك المتطرفين بتحريضٍ من الفاتيكان احتجاجًا على دستور 1917 - خرج العمّ "خواكين" فارًا من المعهد اللاهوتي (حيث تعرضت بعض الراهبات للاغتصاب) وقصد "باباتنلا" لاجئًا. وهناك اعتُقل وحُكم عليه بالإعدام، وبينما هو ماثلٌ أمام فرقة الإعدام،

خُففت عقوبته إلى السجن عشرين عامًا لكونه أجنبيًا. لا يُعرف جيدًا كيف استطاع الفرار من السجن، ولكنه اعتقل في "بابانتلا" من جديد، على يد الجنرال "جابرييل جابيريا"، الموالي لـ"بانتشو بيّا"، وأودع في إصلاحية هرب منها أيضًا، بمعاونة بعض النساء التقيات، كما قيل إنه بلغ هافانا، حيث كان يشغل أخوه منصب القنصل، في قارب تجديف وضع يده عليه في "بيراكروس"، برفقة كهنة آخرين معرضين للملاحقة. قيل إنهم عبروا خليج المكسيك على ضربات المجاديف، وركبوا أمواج البحر الكاريبي العاتية معتمدين على قواهم.

كانت أمّي، عند الحديث عن «قصر الأسقفية» أو العمّ "خواكين" تحذف أدوات التعريف، فتقول دائمًا: "قصر" أو"عمّ" (كما لو كانا اسمي علم). فعلى سبيل المثال، كلما أعدّت شيئًا مُميزًا في المطبخ مع الطاهية "إيما"، كأيس كريم "سابوتي" بالغ التعقيد، أو لفائف الـ"تامال" التي يستغرق صنعها على طريقة "سانتاندير" دهرًا من الزمان، أو سلاطة الإسباراجوس بعصير فاكهة الـ"كوروبا" التي تُعدّ بشق الأنفاس، أو الخمر المحلاة باليوسفي المُعتّقة بعناية لأربعة أشهر في أوانٍ فخارية، كانت أمّي تقول: «إنها وصفة من "قصر"»، فيسخر أبي منها قائلًا:

- وبما تفسرين إذن أن حلوى التوت بالحليب هي أشهى ما قُدِّم لي طوال فترة خطوبتنا، أثناء إقامتك في «قصر الأسقفية»؟ - ثم يطلق ضحكته المجلجلة المعهودة.

أخذ رئيس الأساقفة في أواخر أيامه يفقد ذاكرته شيئًا فشيئًا. فيشرد ذهنه أحيانًا بينما هو في الكاتدرائية، ويُسقِطُ أجزاءً من القدّاس الإلهي، بل والأسوأ من ذلك أنه بعد رفع القربان، ودون أن ينتبه إلى ذلك، كان يعتريه الذهول، فيعاود الكرّه ويبدأ من جديد باللاتينية:

- باسم الآب والابن

كان القساوسة في تلك الحقبة يرفعون القداس الإلهي باللغة اللاتينية موليين ظهورهم إلى المؤمنين، فقد كانت تلك السنوات سابقة على انعقاد «مَجْمَع الفاتيكان». أشفق بعض رعايا الكنيسة على راعيها، بينما سخر البعض الآخر منه. واستغلّ الكهنة الذين يقدمون له المساعدة في الأسقفية تلك الفجوات في ذاكرته. ذات مرّة أعطاه سكرتير، يمقت أبي هو الآخر، خطابًا لكي يوقعه، فوقعه العمّ "خواكين" دون أن يقرأه، لثقته في مرؤوسه وظنًا منه بأنه مجرد مستند روتيني. ثُمّ اِتضح أنه بيان يهاجم أبي بسبب أنشطته في أحياء "ميديّين"، الاشتراكية بطبيعة الحال، ومقالاته «التحريضية» في الصُحُف، «الحافلة بالتجديف، والمتعارضة مع الأعراف والتقاليد السليمة، والتي من شأنها إفساد الأخلاق وتخريب عقول ما زالت تفتقد إلى الرُشد، والمترعة بسموم الإثم الفتّاكة التي تحثّ الشعب على التمرّد والثورة وتدعو إلى نشر الفوضى في البلاد».

حين سمعت أمّي البيان عبر الراديو في برنامج «الساعة الكاثوليكية»، أخذت ترتجف، وهي بين غضبى ومتخوّفة. رفعت الهاتف في الحال للاتصال بعمّها وسؤاله عمّا إذا كان قد وقّع على هذا الهجوم القاسي المجحف على زوجها. لم يكن لدى العمّ "خواكين" أدنى فكرة عمّا وقّعه. ورغم أنه لم يتفق يومًا مع ما يقول أو يكتب أبي، لكونه أحد الأساقفة المحافظين ذوي الفكر القديم، ولتعنته الشديد في كل شيء (حظر أفلامًا لأنها تحتوي على مشاهد يبدو فيها كاحل عارٍ، وحرّم على الممثلات والمغنيات زيارة المدينة ملوحًا بعقوبة الحرمان من الكنيسة)، فما كان ليرتكب فعلة وقحة مثل توجيه اللوم علانيةً لشخصٍ هو، بالتفكير في الأمر، صهره.

عندما رأى توقيعه على البيان (الذي اتفق وما جاء به، رغم عدم رغبته في الإعلان عن رأيه بهذه الطريقة) أحسّ بالخيانة، وبلغ غضبه حدًا قرر معه تقديم استقالته من الأسقفية بعد أيامٍ قلائل. وبعد مرور عدة أشهر وصلت

الموافقة التي أخّرها البابا قليلًا من روما، أمّا هو فقد انزوى في بيت جدتي، يتملّكه شعور غامر بالإخفاق والمرارة. غادر رئيس الأساقفة وهو لا يملك مليمًا، فقد كان أحد الأساقفة القلائل الذين يوفون بنذورهم بجدية، ليس فقط نذر العفاف، بل ونذر الفقر كذلك، ولذلك اضطر للعيش في بيت جدتي، حتى كان يوم ابتاع فيه بعض سكان "ميديّين" الأثرياء بيتًا له في شارع "بوليبيا"، حيث عاش مع أخيه وسكرتيره، العمّ "لويس". وهناك، أخذ ينسى كل شيء رويدًا رويدًا، حتى اسمه. صار ذهنه خاويًا، سكت عن الكلام، ثمّ توفي بعد زمن قصير، قبل مولدي بشهر واحد بالتحديد، بعد صمتٍ مطبق دام عدة أشهر.

يوم وفاته، أهدت جدتي ساعة الجيب الخاصة بالسيد رئيس الأساقفة إلى أبي، ساعة مشغولة بالذهب من طراز "فيروكاريل دي أنتيوكيا"، ولكنها صناعة سويسرية، أحتفظ بها إلى يومنا هذا، فقد أهدتني إياها أمّي يوم مقتل أبي، وستنتقل لابني يوم أموت، باعتبارها شاهدًا ورايةً (وإن كنت لا أعرف إلامَ ترمز).

-10-

يرجع الفضل لرئيس الأساقفة، أو بالأحرى لذكراه، في وجود راهبة تعتني بنا في البيت، وهي رفاهية لم يكن يقدر عليها سوى أثرى عائلات "ميديّين". كان العمّ "خواكين" قد قدّم دعمه لتأسيس رهبنة جديدة باسم «راهبات البشارة»، والتي تخصصت في العناية بالأطفال في بيوتهم، وعلى سبيل العرفان بالدعم الذي قدّمه لهن في البداية، كانت الأمّ "بيرينيسي"، مؤسِّسة الدير ورئيسته، تُرسل الراهبة "خوسيفا" إلى البيت، سُدىً، حتّى تساعد أمّي في العناية بالأطفال الصغار بينما تؤسس هي مكتبها.

جمعت بين أمّي والأمّ "بيرينيسي" صداقة حميمة. وقيل إن الأمّ "بيرينيسي" تصنع المعجزات. ولذا فعند ذهابنا إلى الدير، وبسبب شكوى أمّي من الصداع النصفي، كانت الأمّ "بيرينيسي" تضع يديها عليها، تتركهما فوق رأسها لوهلةٍ بينما تهمس بتعاويذ غير مفهومة؛ في حين أراقب وأختي الصغرى تلك الطقوس من مكاننا في أحد أركان مكتبها مشدوهيْن، وقد تملكنا الخوف خشية أن يتطاير الشرار من أصابعها بين لحظةٍ وأخرى. كانت أمّي تُشفى لأيام، أو على الأقل تدعي بأنها شُفيت من الصداع النصفي. بعد مرور سنوات، تنيحت الأمّ "بينيريسي" تُحيطها هالات القداسة، وخلال إجراءات تطويبها قديسة دُعيت أمي لتقديم شهادتها حول معجزات شفائها. قبل وفاتها بسنوات، قضيت مع "صول" بعض العطلات الأسبوعية في دير «راهبات البشارة»: أذكر الأروقة اللانهائية المصقولة البرّاقة، الأرض والمزرعة، شجر التين وشجيرات الورد، الصلوات الأزلية المُثيرة للنعاس في المُصَلّى، ورائحة البخور والنطف

اللاذعة التي تفوح من الشموع. أمّا أختي، التي كانت تبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات وتبدو كملائكة عصر النهضة بشعرها المُجَعَّد الأشقر القصير وعينيها الخضراوين المائلتين إلى الزرقة، فقد كانوا يلبسونها ثياب الراهبات ويطلبون منها أن تُرَنّم في المُصَلّى ترنيمةً تُدعى «وحدي ذات يوم»، تدور حول لحظة النداء السماوي إلى الرسالة الدينية. أربعون عامًا مضت وما زالت قادرة على ترديدها من الذاكرة:

وحدي ذات يومٍ

في تأملٍ مهيب

سمعت صوتًا قائلًا

ادخل، ادخل في الدين

وعلى الرغم هذه الرسالة التبشيرية المبكرة، فإن أختي "صول" لم تترهبن - مع أن ثمة شيء من ذلك في الخرافات الدينية التي تؤمن بها ونوبات الإيمان المتّقدة المفاجئة التي تنتابها - بل أصبحت طبيبة ومتخصصة في علم الوبائيات. أحيانًا أصغي إليها فأشعر وكأنني أنصت إلى أبي من جديد، فقد واصلت نفس الطنين الذي أثاره حول مياه الشرب، التطعيم، الوقاية والغذاء الأساسي. وكأن التاريخ حلقة تُعيد نفسها، وكأنه بلدٌ أصمّ، ما زال يموت فيه الأطفال بالإسهال ونقص الغذاء.

لدي ذكرى طبيّة أخرى مرتبطة بذلك الدير. فقد استطاع طبيب أمراض نساء، من معارف أبي بكلية الطب، أن يجني أموالًا طائلة من أديرة الراهبات في "ميديّين". وفقًا لنظرية ابتدعها لا تخلو من الغرابة، فإن الأرحام التي لا تحمل

تُصيبها الأورام: «المرأة التي لا تلد ابنًا، تلد ورمًا». ولذا فقد عمل على استئصال أرحام كل راهبات المدينة، سواء أكنّ مصابات بورمٍ أم لا. أمّا أبي، وبمكرٍ لم يرضَ عنه لا رئيس الأساقفة ولا أمّي ولا الأمّ "بيرينيسي"، كان يقول عن هذا الطبيب إنه لا يفعل ما يفعل بغرض الربح، إطلاقًا، بل لتفادي مشاكل بشارات الملائكة أو الروح القدس. ثمّ يطلق ضحكةً مجلجلة تفوح منها الهرطقة ويتغنّى بأغنية شعبية شهيرة لــ"نيتو ريستريبو":

راهبةٌ تَخِمَت يومًا

من شُرب الماء المقدس

والتُّخْمة في بطنها

كانت راهبةً صغيرة

في بعض الأحيان، ودون أن يُعرف كيف ومتى، كانت تحمل بعض الراهبات، بغير فعل الروح القدس، حتى إن بعضهن كنّ من راهبات "لاس كلاريساس"، وهن متوحدات منقطعات عن الدنيا. أمّا وقد خلت بطون الراهبات في المنطقة من الأرحام، فإن تلك المشكلة لم تعد للظهور قط، وأصبح عفاف الراهبات - على الأقل فيما يظهر - مضمونًا مدى الحياة. لا أعرف ما إذا كانت تلك الوسيلة في منع الحمل، الأفظع بكثير من كل الوسائل التي تحظرها الكنيسة، ما زالت تُتبع في بعض الأديرة.

-11-

عندما اقتنعت أمّي بأنه من المستحيل تدبير نفقات البيت بالراتب الذي يحصل عليه الأستاذ، الآخذ في التناقص بسبب سخائه غير المحدود والمُهدد من وقت لآخر بأن يداهمه مجلس إدارة الجامعة بالفصل، أو على الأقلّ المحافظة على نفس المستوى، حيث الذوق الرفيع والطعام الشهي الذي تعلمت أمّي صنعه «في قصر». ساندتها الأم "بيرينيسي" وقدمت لها مساعدة إضافية في البيت دون مقابل، حتى تتمكن أمّي من الذهاب إلى العمل في سلام: تلك المربية الراهبة "خوسيفا"، والتي تولت رعايتي أنا و"صول" كل أسبوع من الإثنين إلى الجمعة بينما تعمل أمي، حتّى التحقنا بالمدرسة، وقد كنّا الأصغر سنًا. أمّا أبي، فلم يُرِد أن تشرع أمّي في العمل، ولا أن تنال استقلالها المادي أو العقلي الذي يترتب على أن يجني المرء ماله الخاص، مدفوعًا برواسب تربيته الذكورية التي لا مفر منها، ولكنها نجحت في فرض إرادتها، بتلك الشخصية الصلبة المثابرة التي تمتلكها، وذلك الفرح الحاضر معها دائمًا دون أن يفارقها يومًا حتى وقتنا هذا، وهو ما يجعلها محصنة ضد الضغائن والأحزان طويلة الأمد. وقد كان الوقوف في وجه صرامتها المُغلّفة بالفرح في عداد المستحيل.

كانت أمي أيضًا تأخذني إلى المكتب في بعض الأحيان، ولعدم امتلاكها سيارة، كنا نستقل الحافلة، أو كان يوصلنا أبي حتى تقاطع "خونين" و"لابلايا"، في طريقه إلى الجامعة. اِتّخَذَت أمي من حجرة ضئيلة في حالة مزرية مكتبًا لها، في بناية جديدة تُدعى "لا سيبا"، البناء الأضخم بالمدينة في ذاك الوقت، والذي بدا لنا عملاقًا. كانت البناية، ولا تزال، تقوم في وسط المدينة، في

نهاية جادة "لا بلايا"، وبالقرب من بناية "كولتيخير". كنّا نصعد وصولًا إلى أحد الأدوار العلوية في مصاعد مستشفيات كبيرة من طراز "أوتيس"، تتولى قيادتها عاملات مصعد سوداوات بارعات الحُسن، دائمًا في ملابس بيضاء لا تشوبها شائبة، كما لو كنّ ممرضات كرسن أنفسهن إلى عمل ميكانيكي. أُعجبت بهن إلى حدٍ كان يجعلني أمكث ساعاتٍ في المصعد، ريثما تؤدّي أمّي عملها، صُعودًا وهبوطًا بجوار عاملات المصعد اللائي يفوح منهن عطرٌ رخيص ما زال حتى يومنا هذا، في المناسبات القليلة التي تنشقته فيها من جديد، يوقظ بداخلي رغبةً طفولية شجيّة.

كان مكتب أمّي يقع داخل مخزن معدات وأدوات النظافة الخاصة بالبناية، وعبق جوّه بالرائحة النفاذة المُنبعثة من الصابون ومُعطرات الجو، أقراص وردية اللون لامعة، رائحتها كرائحة النفثالين، توضع في قاع المبولة. كما كان ثمّة صناديق مكدّسة في أحد الأركان، تكتظّ بصابون الأرضيات والمبيضات وعصي المكانس والماسح وورق التواليت الرخيص. على أحد المكاتب المعدنية، كانت تتولى أمي إجراء حسابات البناية يدويًا، بقلم رصاص أصفر مُسنن، في دفتر حسابات هائل الحجم، ذي غلاف مُقوّى أخضر اللون. كما كان عليها أن تقوم بتدوين المحاضر الخاصة باجتماعات اتحاد ملّاك البناية، بأسلوب عتيق علمها إياه العمّ "لويس"، أخو رئيس الأساقفة، والذي شغل منصب أمين في أكاديمية التاريخ دهرًا من الزمان. «الكلمة الآن لتاجر الماشية ذي المكانة المرموقة دون "فلورو كاستانيو"، فيؤكد على ضرورة الترشيد في استخدام ورق التواليت، حتى لا ترتفع نفقات الملك المشترك بغير داعٍ. وبناءً عليه، قامت مسؤولة الشؤون الإدارية دونيا "سيسيليا فاسيولينسي دي آباد" بالتنويه بأنه على الرغم من صحّة ادعاء دون "فلورو"، فإنه لا مناص من وجود نفقات معينة، لأسباب مُتعلقة بوظائف الجسد. ومع ذلك فقد قام الأخير بإبلاغ السادة المُلّاك بأن أحد الجيران، الدكتور "جون كيبيدو"،

والذي انتقل للعيش في مكتبه، مُستخدمًا إياه كمسكن، مما يدخل في نطاق إساءة الاستخدام، ومن عادته استخدام الحمام الخاص بالنساء، القائم في الدور السادس، عند الفجر، حيث يقوم بالاستحمام وتنشيف جسده بكميات ضخمة من ورق التواليت، نظرًا لعدم حيازته منشفة، ثم يتركه ملقى على الأرض بعد الاستخدام، وبناءً عليه...»

كانت أمّي خبيرة في الكتابة على الآلة الكاتبة والاختصارات (تُدوّن ما يُملى عليها بسرعة مذهلة، بكتابة مُتعجلة بديعة يستعصي فكّ رموزها، وكأنها رموز صينية)، فقد تلقّت دورة سكرتارية في مدرسة "ريمينجتون" للبنات، وعملت قبل زواجها سكرتيرة لمدير خطوط الطيران الكولومبية في "ميديّين"، الدكتور "برناردو مايا". بل وأخبرتنا بأن مدير خطوط الطيران الكولومبية كان مُتيّمًا بها، فقررت الزواج بالدكتور "مايا" إن لم يفِ أبي، الذي كانت يحضّر الماجيستير بالولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت، بوعده لها بالزواج. كلما نشب خلاف بين أبي وأمّي وقضيا فترة المساء في خصام، رغم ندرة حدوث ذلك، فقد كنّ أخواتي يسألنّها مازحات:

- أمّي، هل كنتِ تفضلين الزواج من "برناردو مايا"؟

واحد من أكثر الهموم التي أرّقتني طفلًا، كان سؤالًا بلا جواب، أو في غير محله، ومفاده كما يلي: هل كنت لأولد أم لا، وكيف، لو كانت أمّي قد تزوجت من "برناردو مايا" بدلًا من أبي؟ ولأنني لم أرغب في التخلّي عن الحياة، فقد كنت أتصوّر أنني في تلك الحال، ما كنت لأشبه أبي، بل الدكتور "مايا". ولكنّي كنت أخرج باستنتاج مروّع، فباعتبار ما سبق، لو لم أكُن أشبه أبي، بل "برناردو مايا"، لما صرت أنا أنا، بل شخصًا آخر بعيدًا عنّي كُلّ البُعد، ولما عدت أنا ما كُنت عليه، وهو ما يعني ألّا أكون على الإطلاق.

كان الدكتور "مايا" يسكن قريبًا جدًا من البيت، عند منعطف على مسيرة ناصيتين، ولم يكن له أولاد، مما ضاعف من المخاوف الميتافيزيقية التي تملكتني، خشية ألّا أكون قد ولدت، بسبب احتمال كونه عاقرًا. كنت أتطلع إليه بخوف وريبة. أحيانًا كنّا نلتقي به في القداس الإلهي، غارقًا في الجدية، فيحيي أمّي بإيماءة من يده، مُتلهفة ومُتكتّمة، تبدو وكأنها آتية من بعيد جدًا. ولأنّ أبي لم يكن مواظبًا على حضور القدّاس الإلهي، كانت الكنيسة في نظري هي ذلك المكان حيث ترتكب أمّي والدكتور "مايا" معصيةً عظيمة كلما تبادلا التحيّة، وكأنما مع كلّ رجفة يدٍ تلوح إشارة سرّية، تَشي بما لم يكن وما كان يُحتمل أن يكون.

التحقت فيما بعد بالمكتب المُساعدة الأولى لأمي، واسمها هو الأكثر ملائمةً في ضوء الوضع القائم، "سوكورّو" (أي معونة). ومع "سوكورّو" جاءت أولى الآلات الحاسبة، ماكينة صغيرة مُزوّدة بذراع أصابتني بالذهول، بحركات قليلة من اليد تحلّ كافة العمليات الحسابية التي كنت أستغرق ساعات في حلّها أثناء عمل الواجبات المدرسية. مع مرور السنوات، وشيئًا فشيئًا، أخذت في الالتحاق بالعمل في ذلك المكتب موظفة تلو الأخرى، نساء دائمًا، نساء فقط، أمّا الرجال فأبدًا، بما في ذلك أخَواتي الثلاث الأكبر مني سنًا، حتّى بلغ عدد الموظفات في المكتب الخاص بأمّي ستين من الجنس الناعم، وأصبحت الشركة الأولى من حيث عدد البنايات التي تتولى إدارتها في "ميديّين". من مخزن أدوات النظافة القائم في "لا سيبا"، انتقلت أمّي إلى مكتب حقيقي في الطابق الثاني من نفس البناية، قامت بشرائه في نهاية المطاف، ثمّ أخذ عملها في النمو، ومقرّ العمل في الازدهار. اليوم يشغل مقرّ العمل منزلًا ضخمًا ذا طابقين، ما زالت أمّي، وعمرها ثمانون عامًا عاشتها طولًا وعرضًا، تذهب إليه يوميًا، حيث تعمل من الثامنة صباحًا وحتى السادسة مساءً، وتقود سيارتها الأوتوماتيكية بنفس الحنكة والقوة التي

تؤرجح بها عصاها، وكأنه صولجان الأسقف، تقريبًا بنفس الروح التي كانت تملأ بها كراسها بالكتابة المُختصرة منذ نصف قرن، بما يشبه الرموز الصينية الغامضة والمُتعجلة.

يُستثنى من القاعدة عددٌ قليلٌ من الموظفين الرجال الذين التحقوا بمكتب أمّي، وكما هو الحال في البيت، أعتقد أنني كنت أول من خرق تلك القاعدة، غير المنصوص عليها في أي مكان، والحكيمة رغم ذلك، والتي تقول بأنه خيرٌ لعالم الوظيفة أن يتولى أمره النساء فحسب. على كل حالٍ، خلال الإجازة المدرسية، ورغم كوني رجلًا، كانت أمّي تقوم بتعييني لتقديم المساعدة في كتابة الخطابات والتقارير والمحاضر في قسم وهمي يُدعى «قسم التقارير والمراسلات». هناك، وأنا أكتب المراسلات التجارية، والمذكرات الإرشادية والاحتجاجية، وأعمل جاهدًا على حلّ مسائل حرجة (فضلات كلاب، علاقات آثمة ينكشف أمرُها، موسيقى صاخبة، رجال يكشفون عن أعضائهم المُنتصبة في المصاعد والنوافذ، موسيقى الـ"ماريانتشي" في الرابعة صباحًا، رجال عصابات يفتّشون عن المتعة والمغازلة، لصوص من عائلات أرستقراطية، ومدمني مخدرات لأبوين شديدي التزمت)، وبينما أهذّب الوفيات والتعازي وعرائض الاستقالة، تلقيت أطول وأشقّ تدريب على العمل بمهنة التأليف. وقد مرّ عددٌ من أصدقائي وصديقاتي، ممن ألفوا كتبًا بدورهم فيما بعد ("إيستيبان كارلوس ميخيًا"، "ماري لوس بابيخو"، ديانا بيبيس"، كارلوس فرامب")، بتلك المرحلة التدريبية في «قسم التقارير والمراسلات» بالشركة الخاصة بأمّي، الشركة التي أرادت تسميتها «"فاسيولينسي" وبناتها»، مدفوعة بنزعتها النسوية، ولكنّ أبي طلب تسميتها «"آباد فاسيولينسي" المحدودة»، حتى لا يتم استبعادنا لا أنا ولا هو، الأمر الذي بدا وكأنه مخطط النساء في البيت.

-12-

بعد وفاة رئيس الأساقفة بسنوات قلائل، وفي نفس الفترة التي كنت أرافق خلالها أبي والدكتور "سوندرز" أثناء زياراتهما إلى الأحياء الأكثر فقرًا في "ميديّين" لتقديم الخدمات الاجتماعية، عرفت "الإرسالية العُظمى" طريقها إلى المدينة في مهابةٍ وصخب. كانت تُمثّل نمطًا آخر من الخدمات الاجتماعية يقوم على الأعمال الخيرية، وكأنه فتح كاثوليكي جديد لقارة أمريكا برعاية الزعيم الإسباني، القائد الأعلى للقوات المسلحة الإمبراطورية، حامل لواء المسيحيّة، صاحب الفخامة "فرانثيسكو فرانكو بآموند". كان على رأس الإرسالية أب يسوعي من شبه جزيرة "أيبيريا"، الأب "أويلين"، رجل عبوس، فظّ، مُتقشّف، شاحب الوجه، تحيط بعينيه هالات سوداء على غرار مؤسس نظام الرهبنة اليسوعية، متّقد الذكاء، مُتعصّب، حاد. وقد اتّسمت أفكاره بالصرامة والحدّة، كما لو كان أحد مندوبي محاكم التفتيش، واستُقبِل في "ميديّين" بحماس جماعي كأنه مبعوث الآخرة الذي جاء لتقويم ما اعوج في الدُنيا، عن طريق العبادة المريمية.

ومع مُبشّري الفتح الإسباني الجديد، جاء تمثالٌ صغير لـ«عذراء فاطيمة». فقد كان هناك اتجاه في تلك الأيام لفرض حظوتها بوصفها أهمّ رموز الإيمان الكاثوليكي. ولخلاص العالم من الشيوعية المُلحدة، دعا قداسة البابا إلى المواظبة على صلاة المِسبحة المُقدسة وإقامتها بحرارة أكثر من أيّ وقت مضى، في المستعمرات الإسبانية القديمة والعالم أجمع. كان ذلك هو زمن الثورة الكوبية وحركات التمرّد المسلحة الأسطورية في أمريكا اللاتينية، قبل أن تتحول إلى عصابات إجرامية متخصصة في الاختطاف وتهريب المخدرات، حينما كانت لا تزال

محاطة بهالة من الكفاح البطولي، لتبنّيها برامج إصلاح جذري ومطالب اجتماعية لا يصعب الاتفاق معها.

ولمواجهة قوى تلك التيارات الانفصالية، كانت «عذراء فاطيمة» هي المدد الخارق للطبيعة الذي سيرُدّ الجُموع إلى طريق العبادة والحقّ والتسليم المسيحي، أو «العقيدة الاجتماعية للكنيسة» الآخذة في الظهور على استحياء شديد. أصبح ظهور القديسة العذراء في البرتغال موضوع الساعة المُعتاد بين العائلات، لدى الخياطين ومصففي الشعر وفي المقاهي، متفوقًا بذلك على موضوعات الفقر والمياه والإصلاح الزراعي. وخلال مناقشات متعددة، كانت تُثار التكهنات والخلافات اللاهوتية حول «الأسرار» التي كشفتها القديسة العذراء لرعاة الغنم الثلاثة الصغار الذين تجلّت لهم في مغارة "إيريا". وقد كان أكثر تلك الأسرار إذكاءً للخيال، وإشعالًا للرغبة في اختلاق الأساطير هو الـ«سرّ الثالث»، ذلك السرّ المروّع الذي لم يعرف فحواه سوى آخر الرعاة الصغار على قيد الحياة وبابا الكنيسة الكاثوليكية. والتأويل الذي أجمع عليه أكبر عدد من المريدين، ولّمح إليه كل الكهنة خلسةً في وعظاتهم، كان مروعًا، وهو التأويل القائل بوشك اندلاع الحرب العالمية الثالثة بين الولايات المتحدة وروسيا، أي بين الخير والشر، وهي الحرب التي لن تدور معاركها بالبنادق والمدافع، بل بالقنابل الذرية، وستكون بمثابة المعركة الأخيرة بين الرب والشيطان. علينا أن نستعد جميعًا للتضحية العظمى، ونتلو صلاة المسبحة المُقدسّة كل يوم حتّى تحين تلك الساعة، ونبتهل من أجل نيات الأخيار، وحتى لا تنتصر روسيا، عدوّة الرب وحليفة الشيطان. وبخلاف هذا، فقد اشتمل ذلك الـ«سرّ الثالث»، الذي كان بمثابة إعلان الحرب العالمية الثالثة، على الكثير من الإشارات الصحيحة في التاريخ المعاصر والتي يمكن الارتكان إليها، فلم تكن أكذوبة أننا بلغنا حافّة الكارثة خلال عقود الحرب الباردة مراتٍ عديدة لأتفه دوافع القومية والكبرياء البشري، أو حتى بسبب حادث نووي بسيط.

أما عن هدف «الإرسالية العُظمى»، فقد كان ينصب على نشر مذهب «عذراء فاطيمة» في أرجاء أمريكا اللاتينية وتذكرة الجموع بفوائد التسليم المسيحي، ففي نهاية المطاف سيجازي الرب الفقراء الأبرار في الآخرة، ومن ثمّ لم يكُن السعي وراء الرخاء في الدنيا ضروريًا. ومع العذراء جاء مُخطّط دؤوب للدفاع عن الحقائق الأبدية في الإيمان الكاثوليكي، وإحياء القيم الأخلاقية للدين الحقّ الوحيد. فقد أراد القائد الأعلى أن يسترد النفوذ الضائع في المنطقة بمساعدة الكنيسة، بعد أن أصبح لإسبانيا ثقل سياسي محدود جدًا في بلادنا. وكأنه شكل من أشكال الاحتلال الجديد من خلال الإيمان، تدعمه العائلات القديمة البيضاء الأرستقراطية في كل مكان. وتمثلت الدَفْعَة الأولى في فترة بلغت عدة أسابيع من إقامة الشعائر وإلقاء الوعظات في الكنائس، والتعبُّد إلى التمثال الذي جُلِب من «العالم القديم» وباركه قداسة البابا، والاجتماعات والخلوات بصحبة أهم الرموز الكاثوليكية بكل مدينة، مع الشباب وأصحاب الكفاءات والصحفيين والرياضيين والزعماء السياسيين... تكرر هذا النشاط التبشيري في كافة دول أمريكا اللاتينية، وكأنه إحياءٌ لذكرى البشير الأول في أمريكا اللاتينية الذي مارسه الغُزاة.

وقد تمثّل أوج تلك الحملة في التشجيع على إقامة صلاة «مسبحة الفجر». ففي الرابعة فجرًا، وقبل بزوغ الشمس، كان يجتمع في صحن الكنيسة حشد كبير من رعاياها ثمّ يجوبون شوارع الحيّ مُنشدين التسابيح الدينية ومبتهلين بالصلوات للقديسة العذراء. وقد وقع اختيار الأب "أويلين" على حيّ "لاوريليس"، حيث كنّا نسكن، من بين أحياء "ميديّين" لإقامة صلاة «مسبحة الفجر»، فقد كان هو الحيّ الصاعد آنذاك، حيّ الطبقة البرجوازية الشابة وأصحاب الكفاءات الناجحين والقادرين على التأثير والتغلغل في المجتمع بكافة طبقاته فيما بعد. كان يخرج المؤمنون في الرابعة فجرًا، فيجذبون الانتباه بالأناشيد والطبول والشموع. يتقدمهم الأب "أويلين" والتمثال، بينما ترفرف أعلام ورايات الحروب الصليبية في الهواء،

والموكب من وراءهم يتلو صلاة المسبحة المقدسة بصوت مرتفع. ألف شخص أو ألفين، معظمهم من النساء والأطفال، يجوبون الحيّ لإيقاظ الإيمان بالقديسة العذراء مريم، وإيقاظ أصحاب النفوس الفاترة الذين بقوا في فراشهم، مُتشبثين بالملاءات. كانت أمّي والراهبة "خوسيفا" والخادمات وأخواتي الأكبر سنًا يشاركن في تلك المواكب؛ أما أنا وأبي فنبقى في البيت وننام كالأطفال.

وقد كان أول ضحايا «مسبحة الفجر» هو الدكتور "أنطونيو ميسا خاراميو"، عميد كلية الهندسة المعمارية في جامعة "بونتيفيسيا" ورفيق أبي والدكتور "سوندرز" في حملاتهما بالأحياء الشعبية. كان واحدًا من أساتذة الهندسة المعمارية في "ميديّين"؛ سبق له العيش بالسويد، ثمّ عاد إلى هنا حاملًا معه الشغف بالتصميم المُعاصر. وكتب مقالًا في الجريدة المسائية ذات التوجه الليبرالي "إل دياريو"، يستنكر فيه الضجيج البشع الذي يتسبب فيه الموكب، لانزعاجه من استعراض الإيمان الصاخب (كان رجلًا ذا إيمان رزين، يمارس شعائر دينه بعيدًا عن الأعين). «مسيحية الدفوف»، هكذا كان عنوان احتجاجه، وفيه وجّه نقدًا لاذعًا لكاثوليكية شبه الجزيرة. «أكان المسيح كثير الصخب؟»، هكذا تساءل. وقال: «كنا فيما قبل نستطيع الخلود إلى النوم، الغرق في اللاشيء، في الخواء الروحاني للسُبات. ولكن الكاثوليكية الإسبانية قد جاءت لتُفقدنا أعصابنا. وهكذا هي الفلانخي الفاشية: ضجيج، لا شيء، هرج ومرج. يخلطون بين دين المسيح ومصارعة الثيران. مهرجانات صباحية صاخبة؛ صيحات آتية من عصور الظلمات.» وقد أيّد أبي نفس الرأي بدوره، فقال ساخرًا إن الآب الأزلي ليس به صمم كي يضطروا إلى الصراخ لهذا الحدّ، وإنه لو كان أصمّ، كما يبدو في بعض الأحيان، لكان أصمّ الفؤاد وليس السمع.

وعلى الفور، قام المونسنيور "فيليكس إيانو بوتيرو"، رئيس جامعة "بونتيفيسيا"، بإقالة الدكتور "ميسا خاراميو" من منصبه كعميد كلية الهندسة

المعمارية لقيامه بكتابة ما سبق، وفصله من الكلية إلى أبد الآبدين، أمين. وقد أجرت صحيفة "إل كولومبيانو" استطلاع رأي حول ما حدث بمشاركة عدد من المثقفين في المدينة. فأعلنوا جميعًا تأييدهم للسيد رئيس الجامعة، وأدانوا بشدة مقال عميد الكلية. وحده أبي، والذي قدمته الصحيفة بوصفه «القيادي اليساري المعروف»، ساند الشجاعة التي أبداها الدكتور "ميسا خاراميو"، وقال إنه حتّى وإن لم يتفق معه تمامًا فإنه، وفي ظلّ هذا النظام الليبرالي، على استعداد أن يدافع عن حقّ كل فرد في التعبير حتى لو كان الثمن حياته.

كان من رأي أبي، الذي قضى حياته بعيدًا عن الكنيسة إلى حدٍ ما، أن هذا النوع من الكاثوليكية الإسبانية الرجعية يمثل تهديدًا خطيرًا للبلاد، وقد أقدم زعماؤه بالفعل على ملاحقة الكهنة والمؤمنين المختلفين عنهم، الباحثين عن كاثوليكية أكثر انفتاحًا وتوافقًا مع العصر الحديث. كان دائم التعرف بكهنة عقلانيين ورُحماء بمشاكل مجتمعهم، كهنة صالحين (أشرار في نظر الكنيسة)، وخاصةً في الأحياء الشعبية حيث كنّا نذهب خلال العطلات الأسبوعية، فكان أبي دائم الاستشهاد بالأب "جابرييل دياس"، قسّ طيب الروح بحقّ وذو قلب من ذهب، لذلك لم يتركه الأساقفة يعمل في سلام، وكانوا كلما زاد حبّ رعايا الكنيسة له عن الحدّ وأفرطوا في اتّباعه ينقلونه إلى مكان آخر. كان كلّ من يوقظ الفقراء ويدفعهم للمشاركة ناشطًا يُمثّل خطورة على النظام الجامد للكنيسة والمجتمع. بعد ذلك بسنوات قلائل، عندما تحولت أحياء "ميديّين" إلى ساحة للمذابح وبيئة ملائمة لقطّاع الطرق والقتلة المأجورين، كانت الكنيسة قد فقدت الاتصال بتلك الأمكنة مثلها مثل الدولة. فقد كان رأي كلّ من الكنيسة والدولة أن أفضل ما يمكن صنعه هو ترك تلك المناطق وشأنها. انصرفا عنها فتحولت إلى بقاع تنتشر فيها عصابات القتلة المتوحشة كالحشائش.

حروب دينية

وترياق العلم الغزير

-13-

قبل عدة عقود، أعلن فيلسوف ألماني بارز موت الرب، بيد أن الخبر لم يكن قد وصل جبال "أنتيوكيا" النائية بعد. وبعد تأخير دام نصف قرن من الزمان، كان الرب ما زال يحتضر هنا أيضًا، حيث تمرّد عليه بعض الشباب الذي سعى لكشف عدم اكتراث القدير بما يجري في هذا الوادي، وادي البكاء، عن طريق إثارة الفضائح (كالشعراء اللاوجوديين، الذين كانوا يعملون على تكوين مجموعات من القربان المقدس، ويقدمون على إلقاء عبوات الغاز ذات الرائحة الكريهة في اجتماعات الكتّاب الكاثوليك) فلا كانت صواعق غضبه تعصف بالأشرار، ولا كانت نِعَمه وأفضاله تنهال على الأخيار دائمًا.

كنت أشعر وكأن ثمة حرب مُماثلة تدور رحاها داخل عائلتي بين مفهومين مختلفين عن الحياة، بين ربٍ غضوب ما زال مُبجلًا برهبة رغم أنه في النزع الأخير، وبين ميلاد عقل توّاق للخير. أو بالأحرى، بين المُشكّكين المُتَوعِّدين بنيران جهنم، والمؤمنين الذين نصبوا أنفسهم حماةً للخير، في حين يعملون ويفكرون بغضب يشوبه الخبث في كثير من الأحيان. هذه الحرب المستترة بين القناعات القديمة والقناعات الجديدة، هذا الصراع بين الإنسانية والألوهية، يعودان لأبعد من ذلك في كلٍ من عائلتي أمّي وأبي.

كانت جدتي لأمّي من عائلة محافظة رجعية تُراعي العادات المسيحية المتزمتة. فقد كان أبوها "خوسيه خواكين جارسيا" الذي وُلد في أواسط القرن التاسع عشر وتوفي في بدايات القرن العشرين، مُدرّسًا يكتب مقالات تحت الاسم المستعار "أرتورو"، كما قام بوضع «تاريخ "بوكارامانجا"» البديع، إلى جانب شغله منصب رئيس مجلس الحزب المحافظ، وقنصل فخري لدى بلجيكا، ونائب قنصل لدى إسبانيا. كما التحق اثنان من إخوة جدتي بسلك الكهنوت، فأصبح أولهما أسقفًا وثانيهما مونسنيور. وكان لها أخ آخر، الخال "خيسوس"، شغل منصب وزير في عهد الحزب المحافظ، أمّا الأخ الأصغر فقد شغل منصب قنصل بصلاحيات مطلقة في هافانا طوال عقود، وقد أقسموا جميعًا بالولاء لحزب أسلافهم الشامخ، حزب العادات والتقاليد والعائلة والأملاك. وعلى الرغم من تلك الأصول التي انحدرت منها جدتي، أو ربما لهذا السبب تحديدًا، كان إفراط إخوتها في الجمود الأخلاقي يُزعجها بصفة دائمة، فقد كان يصدمهم أيّ تجديد يطرأ على عادات وتقاليد العالم.

تزوجت جدتي من "ألبرتو فاسيولينسي"، ليبرالي حلو المعشر، له عقلية مُتفتّحة، عاشت معه في سعادة زمنًا قصيرًا، فبعد زواج دام أربع سنوات، وبينما كانت أمّي بالكاد تنطق أولى كلماتها، استدعي الليبرالي لملاقاة وجه ربّه (الذي لم يكن قد فارق الحياة بعد) بميتة مُباغتة في حادث على طريق يقع بالقرب من "دويتاما"، بينما كان يعمل على إنشائه في منطقة "بويوكا" بصفته مهندسًا مدنيًا.

وتأثّرًا بذلك السلف الذي يعود إلى أصول سامِيّة، ولا يظهر في المعتقدات الدينية رغم تجلّيه في العادات والتقاليد، تزوّج "وينسيسلاو فاسيولينسي"، أحد إخوة "ألبرتو"، من أرملة أخيه المهندس بعد زمن قصير. كان هذا المدعو "وينسيسلاو" محاميًا حادّ المزاج، وقاضيًا في "خيراردوتا"، وأوّل ما يتفوّه به عند الاستيقاظ كل يومٍ بلا انقطاع، هي تلك العبارة: «إنها صحوة حُكم بالإعدام.»

لم تسعد جدتي معه يومًا، فلم يكن في نظرها يشبه أخاه الذي عشقته، لا في السرير ولا حول المائدة، أهمّ موضعين في البيت، أمّا أمّي (التي لم تكن تطيق المحامين منذ ذلك الوقت، وأورثتني هذا الحكم المُسبق) فقد قتلته عن عمد ودون قصد، عندما حقنته عن طريق الخطأ بحقنة ممنوعة عن ضعاف القلب.

وقد كررت أمّي قصة أمّها، أقصد جدتي، بعد مرور عشرين عامًا، رغم تنشئتها على يد السيد رئيس الأساقفة وفقًا للقواعد المبنية على تعاليم الكنيسة الأكثر صرامة، وكأنها تحلّ وثاق المرساة مرة أخرى، مُشتاقة للتحرر من النير القديم، فتزوجت في اندفاعة حرية من رجل آخر راديكالي في سعادته، ألا وهو أبي. بيد أن قسمًا كبيرًا من عائلتي، وبوجه خاص الخال "خيسوس" الوزير، رأى أن تلك الزيجة غير لائقة، فزواج فتاة من أصل مُحافظ بمثل هذا الليبرالي يُشبه عقد تحالف بين عائلتي "روميو" و"جولييت".

أظن أنني لمحت في ذهن كلٍ من جدّتي "بيكتوريا" وأمّي ضميرًا معذبًا بالتناقض القائم في حياتيهما. كانت جدّتي وأمّي بطبعهما تميلان ميلًا جارفًا إلى الليبرالية والتسامح دائمًا، سبقتا عصرهما دون أدنى أثر للرياء. كانت كل منهما مرحة ومفعمة بالحيوية، لعوبًا، تُحبّ المرح، من أنصار الاستمتاع بالحياة قبل أن يأكلنا الدود، إلّا أنه كان عليهما إخفاء تلك الروح داخل قوالب شكلية بعينها، قوالب العبادة الكاثوليكية والاحتشام البادي للعيان. كانت جدتي - في تعارض جليّ مع إخوتها الكهنة والسياسيين أعضاء الحزب المُحافظ - من المُطالبات بحقّ المرأة في التصويت، بل وقالت إن واحدًا من أسعد أيام حياتها كان يوم أقرّ رجلٌ عسكري، يُفترض أن تكون ميوله ديكتاتورية، بحقّ المرأة في التصويت في منتصف القرن (والتناقض هنا لا يقتصر على العائلات فقط، بل يعمّ البلد كلّه). ولكنها في الوقت نفسه، لم تكن قادرة على التحرر من تنشئتها على النهج القديم. وهكذا، سعت لتعويض طباعها الليبرالية بالإسراف

في إبداء مظاهر الإيمان المُتّقد والمواظبة على الكنيسة، وكأنها بصلاة المسبحة الحارة الروتينية، وبالثياب التي تحيكها للكهنة الشباب في الكنائس الفقيرة تستطيع المحافظة على الشكليات وتخليص روحها بالمرة.

حدث شيء مُشابه جدًا لأمي، والتي كانت «مُناصرة لحقوق المرأة» حتى قبل صياغة المُصطلح، وناشطة مفعمة بالحيوية في التطبيق اليومي لـ«حقوق المرأة» وليس في نظريتها، كما أثبتت حين فرضت رأيها على أبي (ليبرالي الأيديولوجية، ولكنه مُحافظ حين يتعلق الأمر بالمفهوم الأبوي العتيق للزواج) واستطاعت مباشرة نشاطها التجاري الخاص، فعيّنت خادمتين للقيام بالأعمال المنزلية، وعملت في مكتب بعيد عن الوصاية الاقتصادية وعين الزوج اليقظة.

أضف إلى ذلك أنه في الأعوام الأخيرة، حتى الصخرة الدينية العتيدة التي أجمعت عليها عائلتها - والتي لم تتزعزع منذ زمن الغزو فيما يبدو - قد تحطّمت. وكما نجد الميول العسكرية أو الصحفية أو السياسية، وأحيانًا الأدبية، سائدة في عائلات بعينها، هكذا أيضًا جرت رسالة الكهنوت في عروق عائلة أمّي.

كان اثنان من أبناء أخوالها، وهما "رينيه جارسيا" و"لويس أليخاندرو كورّيا"، قد تربيا على أشدّ مبادئ الكاثوليكية التقليدية تزمتًا، ورغم رسامتهما كاهنين وفقًا لتقاليد أسلافهما، فقد أقدما على التمرّد بعد زمن قصير ليتخذا مكانهما في الجناح الأكثر ميلًا إلى اليسار بالكنيسة، في جماعة «لاهوت التحرير». وبالقطع أتى نفس ذلك الجيل بثمار في الاتجاه المُعاكس تمامًا، فقد تمت رسامة ابن عم آخر قسيسًا، "خواكين جارسيا أوردونيس"، ليصبح القسيس الأكثر رجعية في كافة أرجاء كولومبيا، وهذا ليس بقليل. وكمكافأة على حماسته الرجعية، ومعارضته المحتدّة لأي لون من ألوان التغيير، ورث منصب الأسقف عن المونسنيور "بوييّس" (الذي كان في رأيه أن «قتل الليبراليين إثمٌ

مغفور»)، وتولّى شؤون أبرشية جرى التقليد على أن تكون هي الأكثر مُحافظةً، أبرشية "سانتا روسا دي أوسوس".

أمّا الكاهنان المتمردان، فقد كان أحدهما عاملًا بأحد المصانع، لإيقاظ وعي البروليتاريا النائم، بينما أخذ الآخر ينظم عمليات الاستيلاء على أراض واقعة بأحياء "بوجوتا" الفقيرة، مخالفًا التدرّج الكَنَسي على الملأ. أذكر ليلةً قصدنا فيها السجن حاملين بعض الأغطية لـ"رينيه" و"لويس أليخاندرو"، الذين اعتقلا في "لا لاديرا"، حيث كادت أوصالهما تتجمد من برودة الجو في زنزانة حقيرة، بتهمة التمرّد بمعاونة كهنة آخرين من جماعة "جولكوندا"، حركة قريبة من فِكر الكاهن "كاميلو تورّيس"، العضو في حركة التمرّد المسلحة والذي أخذ توصية «مجمع الفاتيكان» بأن تكون الأولوية للفقراء على محمل الجدّ. فأدركت من ذلك الوقت أن ثمة حربًا مستترة تدور رحاها داخل الكنيسة أيضًا، وأنه إذا كان هناك صراع دائر بين عدة أطراف داخل بيتي وداخل رأسي، فالوضع بالخارج لم يكن يختلف كثيرًا. وإلى جانب معارضة بعض أولئك الكهنة المتمردين من مؤيدي «لاهوت التحرير» للرأسمالية الوحشية، فقد وقفوا ضد تبتُّل الكهنة ومع الحق في الإجهاض واستخدام الواقي الذكري، ثم أقروا في وقتٍ لاحق بحق النساء في الالتحاق بسلك الكهنوت وبحقّ المثليين في الزواج.

أما من جانب عائلة أبي، فلم يكن الوضع أكثر صفاء. فقد تجرّأ جدّي "أنطونيو" على أن يكون أول ليبرالي في العائلة على مدى أكثر من قرن من الذكريات، رغم أنه قد وُلد في قلب عائلة محافظة بدورها، ومُتمسكة بالتقاليد، عائلة دون "آباد"، واحد من الثلاثة الذين يفترض بهم أنهم من ذوي البشرة البيضاء في "خيريكو" (وحدهم امتلكوا الحقّ في حمل لقب "دون"). وخلال «حرب الألف يوم» اضطر "أنطونيو" إلى مواجهة صهره "برناردو جوميس"، ضابط الجيش المُحافظ الذي أصبح في وقت لاحق عضو البرلمان عن الحزب

سالف الذكر، بل وأصبح واحدًا من أشدّ أعضاء البرلمان تعنتًا. وقد حارب في مواجهة الجنرال "تولوسا" وهو لا يزال برتبة كولونيل، الليبرالي الذي قالت عنه جدتي لأبي إنه «بلغ من الشرّ حدًا جعله يقتل المحافظين في بطون أمهاتهم».

ولكي يهرب جدّي من الفلك المحافظ الذي تدور فيه العائلة والكنيسة، فقد تحوّل إلى الماسونية كوسيلة للانضمام إلى منظومة قائمة على تبادل المساعدة كبديل عن الكنيسة، إلّا أنها تمارس بدورها نفس المحسوبية مع أعضائها. وقد تسبب النزاع الذي دار بينه وبين بعض بنات عمومته على بعض الأراضي، إلى جانب نيته بأن ينأى بنفسه عن القيل والقال وانتقادات العائلة ونميمتها، في أن يقطع على نفسه عهدًا بتبديل دمائه، وتغيير اسم "آباد" إلى "تانجاريفي"، والذي رأى أنه يميل إلى الأسماء العربية أكثر من ميله إلى الأسماء اليهودية (تهديد ساخر لم يقدم على تنفيذه قط).

بعد مرور سنوات، وخلال أحداث العنف التي وقعت في منتصف القرن، تعرّض جدّي لتهديدات المحافظين الـ"شولابيت"، الذين كانوا يقتلون الليبراليين من أمثاله في شمال "بايّي". كان دون "أنطونيو" قد انتقل إلى مدينة "إشبيلية" برفقة جميع أفراد العائلة خلال الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات. وذاقوا الأمرين طوال أيام الرحلة التي قطعها جدّي على ظهر الحصان وهو يعاني من قرحة هضمية، برفقة جدتي الحبلى آنذاك، وانطبعت الرحلة في ذاكرة أبي وكأنها سفر الخروج كما جاء في الكتاب المقدّس، ثمّ انتهت نهايةً سعيدة ببلوغ أرض الميعاد، وادي "كاوكا" «حيث لا يسكن الشيطان». وهناك استطاع جدّي أن يصبح كاتب عدل بعد تضحيات كثيرة وبعرق جبينه، كما تمكّن من جمع ثروة لا بأس بها مرّة أخرى، تمثلت في مزارع قهوة وماشية.

أتمّ أبي كل أعوامه الدراسية تقريبًا في "إشبيلية". كان قد غادر "خيريكو" وهو في الصف الثالث الابتدائي، ولكن عند وصول الأسرة إلى "إشبيلية" قال له جدي إنه قد تباحث الأمر طويلًا في الطريق، وإن ابنه يبلغ من الذكاء حدًا يمكنه معه الالتحاق بالصف الخامس، وقد كان. في "إشبيلية" أتمّ المرحلتين الابتدائية والإعدادية. ثمّ جمعته صداقة وثيقة بناظر مدرسة "ليسيو خينيرال سانتاندير" خلال المرحلة الثانوية، وهو رجل على قدر من الشهرة، مغترب قادم من الإكوادور، سبق له وأن تولّى رئاسة دولته أكثر من مرّة، الدكتور "خوسيه ماريا بيلاسكو إيبارّا". وطالما أفصح أبي بأن الأخير من أهمّ المؤثرين في حياته وتوجهاته السياسية. كما كان أصدقاء طفولته المبكرة كذلك من وادي "كاوكا"، في "إشبيلية"، ولكنهم اغتيلوا جميعًا، واحدًا تلو الآخر، في السنوات التي تخللتها أحداث العنف، والتي وقعت في منتصف القرن، بسبب انتمائهم إلى التيار الليبرالي.

كانت عائلة أبي بالكامل لا تزال تقطن في "إشبيلية" عند عودته إلى كولومبيا وتوليه إدارة قسم الأمراض المُعدية بوزارة الصحّة، بعد أن أتمّ دراسة الطبّ في "ميديّين" وأنهى الدراسات التخصصية بالولايات المُتّحدة. وفي عهد الرئيس الكولومبي المحافظ "أوسبينا بيريس"، خطرت لأبي فكرة تطبيق «سنة امتياز» إجبارية تسري على كافة الأطباء حديثي التخرّج، وعمل على كتابة مشروع قانون جعل من ذلك الإصلاح حقيقة. في حين أخذ أعزّ أصدقاء شبابه وزملاؤه في مدرسة "ليسيو خينيرال سانتاندير" يتساقطون ضحايا عمليات الاغتيال، في نفس الوقت تقريبًا، وفي نفس المكان، "إشبيلية"، مع بداية اندلاع أحداث العنف.

وعلى أثر تلك الجرائم، ولا سيما في أعقاب الموت المأساوي الذي سقط ضحيته أحد أصهاره، "أوليدو مورا" زوج العمّة "إينيس"، إذ لقي مصرعه أثناء محاولة الفرار من القتلة المأجورين التابعين للحزب المُحافظ، قرر أبي وجدّي ضرورة الرحيل عن "إشبيلية" واللجوء إلى "ميديّين"، حيث موجة

العنف أقلّ حدّة. مما اضطر دون "أنطونيو" لبيع ما جمعه على مدى أكثر من عشرين عامًا من العمل بثمن بخس، والعودة إلى "أنتيوكيا" للبدء من جديد وقد تجاوز عمره الخمسين عاما.

عقب تخلّيه عن منصبه بوزارة الصحّة، بخطاب يفيض غضبًا (بلهجته المؤثّرة الرومانسية المعهودة) قال فيه أبي إنه لن يكون شريكًا في مذابح النظام المُحافظ، شاء حظّه أن يقع عليه الاختيار لشغل منصب طبيب استشاري لدى منظمة الصحة العالمية، في واشنطن بالولايات المتحدة. فكانت تلك الغُربة الموفّقة بمثابة الخلاص من الموجة الرجعية الشرسة التي أودت بحياة خمسة من أعزّ أصدقائه في مرحلة البكالوريوس، وحياة أربعمائة ألف كولومبي. ومن حينها، اعتبر أبي نفسه «أحد الناجين من أحداث العنف»، إذ شاء له الحظّ أن يتواجد في بلدٍ آخر خلال أقسى سنوات المُلاحقة السياسية والمجازر التي وقعت بين التيارين الليبرالي والمُحافظ. امتد التوتر والفوضى الأيديولوجيان إلى جيل أبناء جدّي أنطونيو (وجيل أحفاده فيما بعد)، بمن فيهم أبي الذي طغت عليه نزعة ليبرالية ذات صبغة اشتراكية تحررية، أشدّ تطرّفًا بكثير من تلك التي تملكت من الجدّ، وكذلك ابن آخر من أبناء جدّي، وهو العمّ "خابيير" الذي انتهى به المطاف كاهنًا في روما لطائفة الـ"أوبوس داي"، الطائفة الدينية الأكثر يمينية آنذاك، والتي بدا وكأنها فضّلت أن تكون الأولوية للأغنياء، في تناقض مع «مجمع الفاتيكان».

وقد استمر ذلك الصراع مُحتدمًا تحت سقف بيتي، الصراع الدائر بين التقليد الكاثوليكي الأكثر رجعية من جانب، والتنوير اليعقوبي الممزوج بالإيمان بالتقدّم الذي يسترشد بالعلم من جانب آخر. فعلى سبيل المثال، ورُبما بسبب التأثير الذي أحدثته «الإرسالية العُظمى»، فطوال شهر مايو، الشهر المريمي، كُنّا أنا وأخواتي والخادمات والراهبة نقيم المواكب في كافة أرجاء

المنزل، واضعين تمثالًا صغيرًا لعذراء «المعونة الأبدية»، الذي جلبه العمّ "خواكين" من أوروبا، على مفرشٍ من الكروشية فوق صينية مصنوعة من الفضّة، ونحيطها بشموع وزهور اقتطفناها من الفناء، بينما تترنم الراهبة بالتراتيل («في الثالث عشر من مايو / نزلت العذراء مريم من السماء إلى "كوبا دي إريا". / السلام، السلام، السلام لكِ يا مريم / السلام، السلام، السلام لكِ يا مريم»)، ثمّ نجوب الأروقة وكافة غرف البيت حاملين القديسة العذراء مريم فوق أكتافنا. فأينما نزلت العذراء مريم لا يتسلل الشيطان أبدًا، ولذا فقد كُنا نُقيم الموكب كلّ أسبوع بدءًا بأقصى ركن بالبيت خلف حجرة غسيل ونشر الملابس، حيث الغُرف الخاصة بالخادمات "إيما" و"تيريسا" و"تاتا"، مرورًا بحجرة كيّ الملابس، فالمطبخ، فحجرة المؤن، فحجرة الحياكة، فالرُكن الصيني، فالصالون، فقاعة الطعام، وأخيرًا غرف النوم بالطابق الثاني، الواحدة تلو الأخرى. آخر الغُرف التي كنّا نعيد زيارتها في الدور السُفلي، بعد المرآب والمكتبة، كانت هي «غرفة الدكتور "سوندرز"»، البروتستانتي، ومع ذلك لم يره أحد مُنزعجًا، على الرغم من الأحلام التي ساورت الراهبة "خوسيفا" بهدايته إلى الإيمان الحقّ الذي ليس سواه، الديانة الكاثوليكية الرسولية الرومانية.

كُنت أُشارك في تلك المواكب حتى يحلّ المساء، فيزيل أبي آثار ذلك الترويض الذي كنت أخضع له صباحًا بالكلمات والقراءات ودائرة المعارف. وكنت أنتقل من كهوف اللاهوت المعتمة صباحًا إلى أضواء التنوير الساطعة مساءً، وكأنه صراع مستتر للفوز بنفسي. في ذلك العمر الذي تتشكل خلاله المعتقدات الأكثر رسوخًا، والتي ربما تُرافقنا حتى القبر، كُنت أعيش في مهب إعصار من التناقضات يجتاحني، رغم أن بطلي الحقيقي، البطل السري المُنتصر، كان هو ذلك الفارس الليلي الوحيد الذي يكشف كلّ شيء بسراج ذكائه، بأناة الأستاذ ومحبّة الأب، تحت جنح الليل.

أمّا عالم الأشباح الظلامي الذي ينشط صباحًا، تسكنه كائنات أخروية تشفع لنا أمام الرب، وتمتد فيه أراض دار الآخرة الخلّابة أو المُروّعة أو المُحايدة، فقد كان يتحول ليلًا، من أجل راحة نفسي، إلى عالم مادي يمكن فهمه إلى حدّ ما من خلال العقل والعلوم. مُخيف، أجل، ولن يكفّ عن كونه كذلك، ولكنه مخيف لما فيه من كوارث طبيعية وطباع خبيثة لبعض الناس فحسب. وليس بسبب الأرواح غير الملموسة التي تسكن الكون الميتافيزيقي للدين، ولا الشياطين والملائكة والقديسين والنفوس والأرواح العلوية، بل بسبب ظواهر العالم المادي والأجساد الملموسة الكائنة به. فوجدت راحةً في التوقف عن الاعتقاد بالأرواح والنفوس المعذبة والأشباح، وفي التوقف عن الخوف من الشيطان والشعور بالرهبة نحو الرب، كما وجدت راحةً في الانشغال من باب أولى بالوقاية من البكتيريا واللصوص، فعلى الأقل يملك المرء مواجهتهم بالعصا أو الحقن، وليس ببخار الصلوات.

«اذهب إلى القداس بهدوء حتى لا تتألم أمّك، رغم ذلك فكلّها أكاذيب - كان يوضّح لي أبي -، لو كان ثمّة ربٌ حقًا، لما اهتمّ بأن يتعبّد له الناس أو لا. وكأنّه ملكٌ ذو خيلاء في حاجة إلى أن يجثو الرعيّة بين يديه. علاوة على ذلك، فلو كان بارًا وقديرًا بحقّ، لما أذن بوقوع كل تلك الفظائع في الدنيا. ليس في مقدورنا التأكّد تمامًا من وجود الرب أو عدمه، وفي حالة وجوده لا يمكننا التأكّد من كونه بارًا، بالأرض والإنسان على الأقل. ربما نكون عنده في نفس أهمّية الطفيليات بالنسبة للأطباء أو الضفادع بالنسبة لأمّك.»

كنت أعرف تمام المعرفة أن شطرًا كبيرًا من حياة أبي مكرّس للقضاء على الطفيليات وإبادتها، وأن أمّي تُعاني من رهاب الضفادع سرًا وعلى نحوٍ هستيري، إلى حدٍ جعل التفوه بالاسم المخصص لذلك الكائن البرمائي محظورًا.

في حين كانت الراهبة "خوسيفا" تقرأ لي قصة "خينوبيبا دي باربانتي" بالغة التعاسة، والتي كانت تجعلني أبكي بحرقة، وحكايات دينية مُختارة من كتاب سير القديسين تدور حول قديسات استشهدن على نحوٍ بشع، كان أبي يقرأ لي أشعار "ماتشادو و"بايّيخو" و"نيرودا" عن الحرب الأهلية الإسبانية، ويحكي لي عن جرائم «محاكم التفتيش المُقدّسة» المُرتكبة في حقّ الساحرات المسكينات، اللائي يستحيل أن يكنّ قد اشتغلن بالسحر، فليس ثمّة ساحرات ولا تعاويذ لها مفعول يذكر، كما كان يحكي لي عن محرقة الراهب المأسوف له "جوردانو برونو" لمجرد أنه قال بعدم وجود الشرّ، فباعتبار أن كلّ شيء هو الرب بالتالي يطغى الخير الإلهي على كلّ شيء، وعن اضطهاد الكنيسة لـ"جاليليو" و"داروين"، لأنهما استبعدا الأرض من مركز الكون الأرض، والإنسان من مركز الكائنات، فلم يعُد الإنسان مخلوقًا على صورة الرب كشبهه، بل على صورة الحيوانات كشبهها.

كان أبي يبتسم عندما أخبره بما قرأته لي الراهبة عن الشقاء والعذابات التي تعرّضت لها القديسات، من محارق مروعة واغتصاب وبتر أثداء، ثمّ يقول إنه إذا صحّ ما لاقاه شهداء المسيحية في سنواتها الأولى من شهادة بطولية عندما تقبلوا الموت على أيدي الرومان دفاعًا عن الصليب وعن فكرة الإله الواحد في مواجهة الآلهة الوثنية المُتعددة، ورغم أن تقبلهم الاستشهاد بألسنة النيران أو أنياب الأسود أو حدّ السيف بنفس غير مبالية ربما يكون أمرًا مثيرًا للإعجاب، فإن بطولتهم، في أيّ حال من الأحوال، لم تكن أعظم أو أشدّ ألمًا من بطولة السكّان الأصليين الذين استشهدوا على أيدي ممثلي الإيمان المسيحي. فلم تكن قسوة المسيحيين ووحشيتهم في القارة الأمريكية بأقلّ مما ارتكب الرومان في حقّ المسيحيين في أوروبا القديمة. لجأ المسيحيون إلى نفس الوحشية الرومانية في المذابح التي ارتكبوها ضد السكان الأصليين أو في حروبهم على المهرطقين

والوثنيين. باسم نفس الصليب الذي تكبدوا الشهادة من أجله، أقدم الغُزاة المسيحيون على قتل بشر آخرين، سووا الأرض بمعابد وأهرامات وديانات، قتلوا آلهة مُقدّسة، محوا لغات وبلدان بأكملها سعيًا لإبادة ذلك الشرّ المُتمثل في مجتمعات تؤمن بلون آخر من ألوان العقائد الأخروية، والمُشرِكة بأكثر من إله بوجه عام. وكلّ هذا كي يفرضوا عن طريق الكراهية ما يُفترض به أن يكون دين حبّ الآخر والربّ الرحوم والتآخي بين الناس جميعًا. وفي تلك الرقصة، رقصة الموت، حيث ضحايا الصباح هم جلادو المساء، تبطل الفظائع المرتكبة على أيدي الأطراف المتقابلة مفعول بعضها البعض. ورغم ذلك فإنني، مستعينًا بالتفاؤل الذي بثّه في نفسي أبي، أملت أن يكون عصرنا أقلّ بربرية، أن يكون عهدًا جديدًا (بعد مرور ما يقرب من قرنين على الثورة الفرنسية)، عهد الحرية الحقيقية، والمساواة والتآخي، والتعايش مع كافة العقائد الإنسانية والدينية في تسامح، بنفس مُسالمة، دون أن تدفعنا تلك الفوارق إلى التقاتل.

وعلى الرغم من القصص المشينة التي كان يرويها لي عن الحروب المسيحية تعليقًا على العذابات التي ذاقها شهداؤها، فلم يكفّ أبي عن الشعور باحترام عميق لشخص يسوع المسيح، إذ لم يجد في تعاليمه ما يعيبها أخلاقيًا، رغم أن الالتزام بها يكاد يكون مستحيلًا، خاصةً بالنسبة للكاثوليك المُتعنتين - أهل الرياء المفرط - ممن يعيشون مُستغرقين في التناقضات الحياتية. كما كان يعجبه الكتاب المُقدّس ويقرأ أحيانًا شذرات من سفر الأمثال أو سفر الجامعة، ورغم ما ذهب إليه من أن العهد الجديد دون مستوى العهد القديم من حيث القيمة الأدبية، فقد أقرّ بأن الأناجيل الأربعة قد جاءت بقفزة إلى الأمام من حيث الأخلاق، وبمُثُل إنسانية أكثر تقدّمًا بكثير من تلك التي تضمّها أسفار موسى الخمسة، الأكثر جمالًا وإن كانت أقل أخلاقيةً كثيرًا، والتي أباحت جلد العبيد حتى الموت في حال أساءوا السلوك.

كانت ثمّة مواد للقراءة أخرى كثيرة في البيت، دينية وعلمانية على السواء. ورغم أن أبي كان يشتري مجلة "سيليكسيونيس" من حين لآخر (ويقرأ لي الباب المسمى «الضحك، علاج لا يخيب»)، فقد كان يتجاوز الأجزاء التي تسيء بشدة إلى الشيوعية، وتسوق أمثلة خسيسة عن الـ"جولاج"، فلم يكن يريد تصديقها واعتبرها محض حملة إعلامية، بل وكان يعوضني عن ذلك بإهدائي كتبًا تحررت في الاتحاد السوفييتي. أذكر منها ثلاثة على الأقل: «الكون محيطٌ شاسع»، لـ"فالنتينا تيريشكوفا"، أوّل رائدة فضاء امرأة؛ وكتاب آخر لـ"يوري جاجارين"، حيث قال أوّل رائد فضاء إنه تطلع إلى الخواء الفلكي فلم يرَ الرب (وهو ما اعتبره أبي دليلًا ساذجًا وسطحيًا، فربما كان باستطاعة الرب أن يكون خافيًا)، وقد كان أهمّ تلك الكتب هو «أصل الحياة» لـ"ألكساندر أوبارين"، الذي قرأه لي أبي شارحًا كلّ فقرة من فقراته، وانتهج كاتبه منهجًا آخر لرواية سفر التكوين بدون تدخل إلهي، وبطريقة استطعت معها الإجابة على الأسئلة الأولى حول الكون والكائنات الحية مُستعينًا بتفسيرات علمية، حيث احتلّ «حساء بدائي» كيميائي، تعرض لوابل من إشعاعات النجوم لملايين السنوات حتى تكونت في النهاية الأحماض الأمينية والبكتيريا الأولى عن طريق الصدفة أو الحاجة، ذلك الموضع الذي احتله من قبل الكتاب الشعري بأيامه السبعة وصواعقه الإعجازية، والاستراحات المُفاجئة التي يأخذها كائن قدير ينال منه التعب على نحو غامض كما لو كان فلّاحًا. ما زلت أحتفظ بتلك الكُتب التي وقّعتها عام 1967، بذلك الخطّ المُتردد الجديد بطفل بالكاد يتعلم الكتابة، وبالتوقيع الذي استمر معي طوال فترة طفولتي: "إكتور آباد الثالث". وكنت قد ابتكرته لتذييل الخطابات التي أرسلها لأبي خلال أسفاره إلى آسيا، شارحًا له الأمر كالآتي: «"إكتور آباد الثالث"، لأنك تساوي اثنين.»

وبسبب تلك الأحاديث التي كانت تدور بيني وبين أبي (إذ كان أثرها أشدّ من القراءات التي لم أكن قادرًا على فهمها بعد)، كنت في المدرسة أنحاز للروس، في السر حينًا وعلى الملأ حينًا، في حرب افتراضية ضد الأمريكان. وبطبيعة الحال استمر معي هذا الإيمان الذي شاطرت فيه أبي زمنًا قصيرًا، فعندما دُعي أبي للقيام برحلة إلى الاتحاد السوفييتي، في أوائل الستينيات، وثبت له أن الحملة الإعلامية بمجلة "سيليكسيونيس" كانت محقة إلى حدٍ كبير، عاد شاعرًا بخيبة أمل مُطلقة حيال إنجازات «الاشتراكية الحقيقية»، مصدومًا من المستوى غير المحتمل الذي بلغته الدولة البوليسية، واعتداءاتها التي لا تغتفر على حرية الفرد وحقوق الإنسان.

- علينا أن نبتكر اشتراكية على طريقة أمريكا اللاتينية، لأن ما يجري هناك شيء مروّع - كان يقول أبي، وإن حزّ في نفسه بعض الشيء أن يضطر للاعتراف بذلك.

آمن مُخلصًا بأننا إذا أردنا القضاء على الفقر والظلم المتفاقمين، فلا بد أن يكون مستقبل العالم اشتراكيًا، وظنّ لبعض الوقت - حتى كانت رحلته إلى روسيا - أن النموذج السوفييتي قد يكون مناسبًا. وانعكس هذا الاعتقاد الخاص به، المتناقض مع اعتقاد أمّي، حتى على أكثر الأشياء بساطةً ويومية (أثناء وجود أمّي في هافانا تراقب «الثورة الكوبية»، قالت بأنها تؤثر «الثورة المكسيكية»). كُنت وأنا بعمر عام واحد طفلًا بلا شعر، أبيض البشرة، قصيرًا وممتلئًا، حينئذ دار نقاش بين أبي وأمي حول أيهما أشبه أكثر: فبينما أصرّت هي أنني أكاد أكون صورة طبق الأصل من "خوان الثالث والعشرين"، بابا الكنيسة الكاثوليكية آنذاك، قال هو إنني أكثر شبهًا بـ"نيكيتا خروتشوف"، الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي. ولعلّ الغلبة في ذلك النقاش كانت لأمّي، فلم يُطلق على المزرعة حيث كنا نقضي الإجازة اسم الـ"كرملين" بل "كاستيل جاندولفو"، تيمنًا باسم البلدة التي تضمّ المقرّ الصيفي للبابا.

لمواجهة كلّ أشكال القلق التي تعترم بداخلي، كان أبي يقرأ لي مقاطع من دائرة معارف "كوليرز"، والتي كنّا نحتفظ بنسختها الإنجليزية، أو يقرأ لي مقتطفات من أعمال كبار الكُتّاب التي لا غنى عنها لــ«liberal education» كما جاء في مُقدمة مجموعة «كلاسيكيات دائرة المعارف البريطانية»، التي تقع في خمسين مجلدًا من الجلد الصناعي، وتضمّ أهمّ أعمال الثقافة الغربية. وقد وردت في مُقدمة كلٍ من أجزاء "كوليرز" بضعة جداول توضّح التاريخ الزمني للتطورات العُظمى التي مرّت بها الحضارة، منذ اكتشاف النار واختراع العجلة وصولًا إلى الرحلات الفضائية والكمبيوتر، مما يدلّ منذ الوهلة الأولى على إيمان عظيم بالتقدّم العلمي الذي سيخطو بنا نحو الأفضل دائمًا. عند سؤالي لأبي حول المسافات بين النجوم أو كيفية مجيء الأطفال إلى الدنيا أو الزلازل أو الديناصورات أو البراكين، كان يلجأ دائمًا إلى صفحات وصور «دائرة معارف "كوليرز"».

وكذلك كان يُطلعني على كتاب عن الفنّ لم أعرف بأهميته إلا بعد مرور سنوات، «قصّة الفن» لكاتبه "إرنست جومبريتش". فكنت أفتحه مرات كثيرة أثناء وجود أبي بالجامعة، ولكن على نفس الصفحة دائمًا. كان كتاب "قصة الفن" بمثابة أول مجلة إباحية في حياتي (هذا إلى جانب مُجلّد "ريال أكاديميا" العملاق، حيث كنت أفتش عن الكلمات النابية)، ونظرًا لأن لغته إنجليزية كُنت أكتفي بمشاهدة الصور، فكانت أكثر اللوح التي استوقفتني، وأنا في حيرة ذهنية وفسيولوجية عظيمة، هي تلك اللوحة التي تبيّن امرأة عارية، عانتها بالكاد شبه مغطاة ببضعة أفرع، ترضع طفلًا في حين يراقبها شاب له نتوّ بارز بين فخذيه. في الخلفية نرى وميض البرق، ولكن

الرعد الذي دوّى في تلك اللوحة كان بمثابة تفجّر حياتي الجنسية. لم أعِر اسم اللوحة أو الرسّام اهتمامًا في ذلك الوقت، ولكني اليوم أعرف أنها لوحة «العاصفة» لـ"جيورجيوني"(ما زالت أحتفظ بنفس الكتاب)، والتي رسمها في بدايات القرن السادس عشر. بدا لي القوام البضّ الريّان لتلك المرأة أشهى ما رأيت حتى تلك اللحظة وأكثره إرباكًا، ربما باستثناء الوجه الفاتن لحبّيبتي الأولى في المدرسة الابتدائية، طفلة في فصلي تحليت بالشجاعة الكافية كي أوجه لها الحديث، "نيلي مارتينيس"، فتاة ذات ملامح ملائكية، وما لم أكن مخطئًا، كانت "نيلي" ابنة طيّار، وهو ما جعلها أكثر هوائية وغموضًا وإثارةً للاهتمام في عينيّ.

تركت المدرسة المُختلطة حيث درست خلال المرحلة الابتدائية، والتحقت - لمزيد من ارتباك الأفكار وعوامل التأثير - بمدرسة "خيمناسيو" حيث عمل عمي "خابيير" التابع لطائفة الـ"أوبوس داي" قسيسًا. ومن المؤسف أن كلّ الأجساد القادرة على إثارة شيء من الرغبة في النفوس كانت أجساد زملاء يدرسون معي في "خيمناسيو"، إذ لم يكُن هناك سواها. وفي حال كان أحد الطلاب ذا ملامح أنثوية أو أرداف بارزة أو مشية فتاة، فقد كانت تتحرك الرغبة في نفوس أولئك الأشدّ شبقًا، في حيرة لا مفر منها، تقع فيها المشاعر وخفقات القلوب.

وفي هذا أيضًا كنت أنتقل من حال إلى نقيضه تمامًا: فقد كانت المدرسة بمثابة مملكة تحكمها ديانة قمعية تعود إلى القرون الوسطى، بيضاء البشرة وطبقية، حيث أغلب زملائي من أثرى عائلات "ميديّين". ولقد كان عالمًا فظًّا ذكوريًا، يضجّ بالتنافس واللكمات والخشونة، حيث كل شيء مغلف بالخوف المروّع من الوقوع في الإثم وهاجس الوصية السادسة من شريعة موسى، وحيث تستخدم الفوبيا الجنسية المَرَضية في محاولة كبت رغبة خارجة عن السيطرة بأي ثمن، رغبة تنساب عبر المسام وتُشعلها هرمونات الشباب المتدفقة.

كانت تلك الحملة الصليبية العنيفة التي شنّها المعلمون على الجنس هي ما يُطلق عليه مهمة مستحيلة، فقد عُرِضت علينا في المكتبة عدة أفلام دعائية يتحدث فيها مُؤسس طائفة الـ"أوبوس داي" بنفسه عن «العفاف البطولي». إن أنسَ لا أنسَ أنه في واحد من تلك الأفلام قام المونسنيور "إسكريبا دي بالاجير"، الذي أصبح اليوم قديسًا بموجب القرار صادر عن الكنيسة الأمّ المقدسة، بالحديث حول انتصارات "فرانكو" على «الحُمر» في إسبانيا، وأوصانا بتعنت وانفعال بالتمسك بفضيلة العفاف ناصعة النقاء، ثمّ ظل يحدق في الكاميرا بعينين ثاقبتين وابتسامة خبيثة، قائلًا بتمهل: «ألا تؤمنون بجهنم؟ سترونه عمّا قريب، سترونه عمّا قريب.»

أمّا الأب "ماريو" الذي حلّ محل عمي القسيس، والذي لم يكن يُسمح لنا بأن نخاطبه بلقب «أب» (لم يكُن هناك سوى أبٌ واحد فحسب، المونسنيور "إسكريبا")، فقد كان يبدأ لقاءات الإرشاد الروحي الفردية، والتي كنّا نحضرها أسبوعيًا بالتناوب، بنفس السؤال دائمًا:

- يا بُنيّ، كيف حال طهارة نفسك؟

وأعتقد أنه كان يقضي نهاره ومساءه في لذّةٍ لا يجرؤ على الإفصاح بها، يُدركها بالنيابة عنّا، عبر الإصغاء إلينا واحدًا تلو الآخر بينما نسرد عليه اعترافاتنا المُفصّلة حول عطشنا إلى الجنس الذي لا يرتوي، وكأنها جلسة مُطوّلة من الإباحة الشفهية. كان الأب "ماريو" دائم السؤال عن التفاصيل، المزيد من التفاصيل، مع من؟ وكم مرّة؟ وبأيّ يد؟ وفي أيّ ساعة؟ وأين؟ إلى الحدّ الذي نلاحظ معه أن اعترافاتنا، ورغم إدانته لها بالكلمات، تجذبه على نحوٍ مَرَضي ومُثابر، وأن الشيء الوحيد الذي كان يكشفه إصراره في التحقيق هو شوقه لتقصّي تلك الاعترافات.

بحلول المساء، وبعد انتهاء أيام الدراسة اللانهائية الباعثة على الضجر مع مُعلّمين ذوي قدرات محدودة (ما عدا بضعة استثناءات)، كنت أعود بعد طريق طويل وممتد تقطعه الحافلة، من "سابانيتا" وحتى "لاوريليس"، من أقصى وادي "أبورّا" إلى أقصاه، إلى العالم الأنثوي في بيتي المزدحم بالنساء. هناك أيضًا كان يتم إخفاء الجنس أو إنكار وجوده، إلى حدٍ كنّا معه في صغرنا نستحم كلنا سويًا في المغطس الخاص بغرفة الدكتور "سوندرز" لتوفير المياه الساخنة، وعملًا بالفكرة التي خطرت للراهبة "خوسيفا"، كان يُسمح لأخواتي أن يتعرين مُبديات ذلك الشقّ المُثير للفضول بين الساقين، على شكل ثُقب الحصّالة، أمّا أنا فلم يكُن يُصرّح لي بخلع الملابس الداخلية، بسبب ذلك الثالوث العجيب الذي أخذ ينبت في منتصف جسدي، وهو الوحيد من نوعه في العائلة. وحدُه أبي كان يقبل الاستحمام معي عاريًا، ويشرح لأخواتي برسومات صريحة وعملاقة كيف يأتي الأبناء. وكان يردّ إليّ توازني ويجلو كلّ شكوكي بسخاء وتفاني عند عودته من الجامعة ليلًا، فيُكذّب الأساتذة وينتقد الراهبة على روح القرون الوسطى المُتزمّت الذي تعيش به، وينتزع الجحيم من جُغرافيا العالم الآخر المُختَزَل في أرضٍ مجهولة، ويرُدّ النظام إلى أفكاري المشوشة. وبين اثنين كلاهما بلا معنى، هوس ديني ذكوري في المدرسة، وآخر ديني أنثوي في البيت، كان ملاذي الليلي غزير العلم هو أبي.

-15-

لماذا تنازل أبي الذي درس في مدارس حكومية علمانية وسمح بأن أتلقى تعليمي في مدرسة خاصة دينية؟ أفترض أنه اضطر أن يذعن لذلك أمام التدهور المحقق الذي عانى منه التعليم الحكومي في كولومبيا خلال الستينيات والسبعينيات على وجه التقريب، بسبب ضعف رواتب المُعلمين وسوء اختيارهم، وانضمامهم لنقابات شَرِهة تسمح بتدنٍّي المستوى وتُغذّي التبلُّد الفكري، نظرًا لغياب دعم الدولة التي لم يعُد التعليم الحكومي على رأس أولوياتها (فقد كانت النُخَب الحاكمة تؤثر تعليم أبنائها في مدارس خاصة، وليتدبّر الشعب أموره كيفما استطاع)، وكذلك بسبب ضياع هيبة مهنة المُعلّم ومكانتها، والإفقار والنمو السُكّاني المُفرط بين الشرائح الأكثر فقرًا، فلهذه الأسباب مُجتمعة وأسباب أخرى كثيرة دخلت المدرسة الحكومية العلمانية مرحلة من التدهور ما زالت لم تتعاف منه بعد. ولهذا سمح أبي، مُنزعجًا ولكن مذعنًا وغير قادر على إنكار الحقيقة، بأن تتولى أمي التي تفوقت عليه في الناحية العمليّة اختيار مدرسة بنات لأخواتي، ومدرسة بنين لي، لا بد أن تكون خاصة، وهو ما يعني مدرسة دينية في "ميديين".

ألحَقَت أمّي أخواتي بمدرسة راهبات "لا إنسينيانسا" و"ماري بوسبين"، حيث سبق لها وأن أنهت دراستها الثانوية، أما بالنسبة لي، فبعد أن أتممت سنتي روضة الأطفال في نفس المدرسة، وبعد السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية بمدرسة الحيّ (حيث لم يكن ثمّة قسم ثانوي)، رأت أمّي أن الأنسب

هو التحاقي بمدرسة "سان إجناسيو" اليسوعية، نظرًا لأن اليسوعيين لهم قرون من الخبرة في تدريس الأولاد، ولا بد أنهم على معرفة بهذا الأمر على الأقل.

ذات مساء، ذهبنا سويًا إلى هناك لتقديم طلب الالتحاق بعد تحديد موعد مع الناظر. أذكر أن الناظر، الأب "خورخي أويوس"، وبعد أن أرغمنا على الانتظار لوقت أطول من اللازم بكثير، كما هو دأب مديري كافة الشركات، إذ كان من الواضح أنه بمفرده، استقبلنا ببرود وفتور فرضا علينا احترام مهيب. استقبلنا واقفًا بالفعل (كما كان يفعل ذلك الشخص في "جاتوباردو"، حتى لا يبدو لأمّي أنه ينهض لتحيتها)، بدأ في استجوابها مع حفظ الألقاب بدون مقدمات، دون حتى أن يردّ التحية:

- "خورخي"، مضى زمن طويل! كيف حالك؟

- ما سبب حضورك إلى هنا يا سيدتي؟

في الحال لاحظتُ أن هناك شيء على غير ما يُرام، فبعد أن قالت أمّي قبل خروجنا من البيت إن كلّ شيء سيكون في غاية السهولة، لأن "خورخي" (مجردًا من الألقاب) كان من أصدقاء عمرها، ولا سيما في فترة الشباب، قبل رسامته كاهنًا مع الآباء اليسوعيين. ولكن قوله «يا سيدتي» قد أوحى بأن أمّي لن تستطيع مناداته بـ"خورخي" من جديد، بل الأب "أويوس"، أو حتّى السيد الناظر. ولأن سبب الزيارة كان جليًا، والأماكن في مدرسته محدودة ومرغوبة بشدّة، فقد تولّى عن عمد دور صاحب الامتيازات، الشخص الذي بيده أن يقبل إسداء المعروف أو يرفضه.

- لقد أتيت، يا أبي، كي أطلب من قداستك مكانًا في المدرسة لابني الذي أوشك على الانتهاء من الدراسة الابتدائية. وهنا ربتت على رأسي حتى أقول

اسمي كاملًا وسنّي وأقدّم نفسي كطفل مجتهد. أجاب الأب "أويوس" بدون مقدمات ودون أن يسمح لنا بالجلوس:

- سيدتي، ليس الأمر بتلك السهولة كما تظنين، مهما كان من اجتهاد الطفل. انظري، لدي هنا ثلاثة أدراج - توجّه المدير نحو خزانة حفظ الملفّات وأخذ يفتح أدراجها بتمهّلٍ شديد، واحدًا تلو الآخر، حتى نرى أكوام طلبات الالتحاق بداخلها.

- الدرج الأوّل، أدعوه «الفردوس»، وهو مُخصصٌ للطلاب الذين يتم قبولهم مُباشرة.

قالت أمّي التي كانت تعرف أفضل منّي إلى أين يتجه الحديث:

- وأنا متأكدة من أننا لسنا هناك...

- بالضبط. ثم بعد ذلك يأتي «المطهر»، هذا الدرج، حيث سنحتفظ بطلب ابنك، ما اسمه؟ (كررت أمّي الاسم على مسامعه، ثم أعاد هو نطقه بتمهّلٍ شديد، مقطعًا مقطعًا، بسخرية بالغة) "إك-تور خو-ا-كين". بالنسبة لأولئك، لا بد من إجراء تحليل شديد الدقّة للعائلة التي نشأوا فيها حتّى نعرف إمكانية قبولهم من عدمها، ولمعرفة إذا كان في بيتهم ثمّة تأثير سلبي (وهنا اتسعت عيناه بشدّة، وكأنه يُشدّد على تلمحيه الخبيث) أو تأثير ضار من المنظور الأخلاقي أو العقائدي.

هنا توقّف لوهلة، وقد اِتّسعت عيناه عن آخرهما، مُتفحصًا أمّي وكأنه يريد لها أن تُبصر بعين الخيال ذلك الطبيب الأصلع ذي النظارة الذي يوقظ كلّ هذا القدر من الغضب في كافة أرجاء المدينة.

- وأخيرًا يأتي درج «الجحيم»، وهو لأولئك الذين ليس لديهم أدنى أمل في أن يتمّ قبولهم بالمدرسة، أحيانًا يدخلون إلى هذا الدرج مُباشرةً، وأحيانًا أخرى يسقطون بتأثير الجاذبية من «المطهر» بالأعلى.

وهنا لم تعُد أمّي تتحمل المزيد، فبتلك الابتسامة الفاترة التي ربما تكون قد تعلمتها من خلال تعاملها مع عمّها رئيس الأساقفة، وبذلك اللطف الفاتر الذي كانت تلجأ إليه دائمًا حتى تُنبّه الآخرين بأن يلزموا حدودهم، لم تتردّد لحظة واحدة في الردّ، فغيرت لهجتها بحدّة وتوقفت عن حفظ الألقاب:

- يا "خورخي"، بإمكانك أن تُرسلنا إلى الجحيم على الفور، فسوف أطلب إلحاقه بمدرسة أخرى. آسفة على الإزعاج، وإلى اللقاء.

قالت قولها هذا وجذبتني من يدي، ثمّ استدرنا خارجين من مكتب ناظر "سان إجناسيو" في عجالة، دون أن نتصافح أو ننظر إلى الخلف لتأمّل وجه الأب الناظر، والذي لم نعُد لرؤيته قطّ مدى الحياة.

-16-

وهكذا درست في نهاية المطاف بمدرسة "لوس ألكاساريس"، وهي «مؤسسة تتلقى دعمًا روحيًا من طائفة "أوبوس داي"» حسب قولهم. حيث قبلوني في الحال بفضل حظوة عمّي "خابيير"، الكاهن التابع للطائفة، مُتغاضيين تلك المرّة عن «الأيديولوجية الضارة» التي ينتهجها أبي. كانت لتلك المدرسة ميزة إضافية في نظري، وهي أن اثنين من أبناء أعمامي كانا يدرسان هناك، "خايمي أندريس" و"برناردو"، وكلاهما في نفس عمري، مما بثّ الثقة في نفسي بأن تجربة الطالب «المُستجدّ» ستكون أسهل، وهي التجربة التي دائمًا ما تكون ضريبتها التعرّض للمُضايقات والسُخرية في أية مدرسة. ربما أكون قد أصررت على الالتحاق بهذه المدرسة دون التفكير في المسألة الدينية مطلقًا، ولعلّ أبي لم يُبدِ مُعارضةً لهذا السبب. فقد كان من الغريب أن ينزل على رغبتي أو يستجيب لضغط أمّي العاقل، الرقيق رغم ما به من إصرار، في حين تثور بينه وبين العمّ "خابيير" خلال اللقاءات العائلية خلافات حادة لأسباب دينية بصفة دائمة، فيحتدّ ويتصايح كلٌ منهما إذا تطرق الخلاف لمسألة الشرّ. ربما تراءى له أن كل هذا يُمثّل جزءًا من مصير محتوم، حريّ به ألّا يُقاومه، فكما كانت الأديرة في العصور الوسطى تُعدّ بمثابة الملاذ الوحيد لأي طالب علم، بالمثل كان عدم وجود مدارس على مستوى أكاديمي مقبول - حيث يليق بابنه أن يدرس - بخلاف المدارس الدينية، يعدّ سمة من سمات الزمان والمكان. وعلاوة على ذلك، لعله رأى أن «العيش مع النقيض» ربما يساهم في إثبات وترسيخ بعض المعتقدات المختلفة التي ينتوي أن يُرشدني إليها.

ورغم ذلك فإنني، بعد تفكير في الأمر، أعتقد أنّه كان لا يزال يعيش صراعًا داخليًا في تلك السنوات. فقد سعى إلى تنشئتي بعيدًا عن الإيمان، وهو ما أراد أن يصل إليه بنفسه من خلال المنهج العقلاني، حتّى يخلصني من كل أشباح الشعور بالذنب والكبت الديني التي عذبته طوال حياته. في الوقت نفسه، وحتى لا يناقض مُعتقدات أمّي من ناحية، ولثقته بأن التعليم على يد الكهنة أفضل، أو على الأقل ليس سيئًا إلى هذا الحدّ، وأشدّ جديّة وصرامةً وانضباطًا من ناحية أخرى، فقد ترك تفكيره في منتصف الطريق، وسمح بأن تتخذ الأمور المسلك الذي اتخذته دون إبداء مُعارضة، بتلك الروح المُتسامحة التي تقبل استعراض جميع الأفكار من كافة جوانبها قبل أن ينحاز إلى ما يعتقد أنه أقلّ ضررًا أو أكثر نفعًا.

لم يكن من المعقول أن يتحسَّر على شيء لا يتوقف على رغبته الخاصة بقدر ما يتوقف على ظروف مولده في تلك اللحظة من التاريخ، وفي ذلك الركن من أركان الأرض، وفي ذلك المحيط العائلي دون غيره. ولأنه حريٌّ بالمرء أن يرى الجانب الإيجابي في كلّ شيء، دعونا نقول إنني لحسن حظي تلقيت تعليمي في "لوس ألكاساريس"، وهو تقليد مدرسي على الأقل يحترم صرامة منطق أرسطو، ويؤمن بأن حقائق الإيمان يمكن بلوغها عن طريق العقل، وباقتفاء أثر البصيرة الذهنية الثاقبة التي كان يمتلكها طبيب الكنيسة، القديس "توما الأكويني". وقد كان ليصبح أقرب إلى الحذق والصواب أن نوضع على طريق القديس "أوغسطينوس" الأقلّ حظًا من العقلانية، والأشدّ استعصاءً على التفنيد، إذ أنه لم يكُن يحتكم إلى العقل، بل إلى شغاف القلب. كما كُنّا نُرغم على قراءة أعمال كتّاب أقلّ أهمية في المدرسة "التوماوية" الأشدّ تعنتًا، مثل «المعيار» لـ"باليس"، وأفكار المونسنيور "إسكريبا دي بالاجير" الملتوية، والهجمات اللاذعة التي شنّها معلمون ينتمون إلى حركة الفلانخي الفاشية الإسبانية على المذهب المادي الملحد والعلمانية الحديثة، وأشياء من هذا القبيل.

وفي الوقت نفسه، كان أبي يقدم لي في البيت ترياقًا منزلي الصنع للشفاء من التعليم المدرسي، ويقاوم القراءات المدرسية المزدحمة بعلم الآباء والفلسفة الكاثوليكية بكتب وأفكار أخرى كنت أجدها أكثر إقناعًا بكثير. ففي حين كانت تُغفل نظرية التطور في حصص الدين أو العلوم (أو يُقال إنه لم تثبت صحتها بما لا يدع مجالًا للشك)، وفي حين كنّا نفرغ في حصّة الفلسفة من "فولتير" ودالمبير" و"ديدرو" في كلمتين لا أكثر، فقد كان يُسمح لي في مكتبة أبي بتعاطي أمصال تحوي جرعات ضئيلة منهم، من أولئك الذين منحوني مناعةً ضد الهدم، أو من "نيتشه" و"شوبنهاور"، "داروين" أو "هكسلي"، كما كان يمكن علاج البراهين التي ساقها "لايبنتز" والقديس "توما" على وجود الرب بمضادات حيوية من صنع "كانت" أو "هيوم" (الذي انتقد المعجزات بشدّة)، أو بمذهب الشكّ اللعوب وسهل الفهم عند "بورخيس"، ولا سيما بالصفاء المنعش الذي اتسم به "برتراند راسل" العظيم، الرجل الذي حرَّر عقلي، وقدوة أبي في الفلسفة.

وخلاصة القول إنه عندما يتعلق الأمر بالأديان فالاعتقاد من عدمه ليس مجرد قرار عقلاني. والإيمان من عدمه لا يتوقّف على إرادتنا، ولا على نعمة خفيّة تأتينا من الأعالي، بل يتوقف على التعليم المُبكّر، في اتجاه أو آخر، الذي يكاد التحرر منه يكون مُستحيلًا. إذا غُرست فينا منذ الطفولة والشباب المُبكّر مُعتقدات ميتافيزيقية، أو على العكس من ذلك، فإذا تلقينا تعليمنا من منظور اللاأدرية أو الإلحاد، فببلوغنا سن الرشد سيكون من المُستحيل تقريبًا أن نُبدّل موقفنا. يولد الأطفال ببرنامج فطري يحملنا على الإيمان بما يؤكد عليه الكبار عن قناعة دون نقد يُذكر. ومن المناسب أن يكون الأمر على هذا النحو، فماذا لو كُنّا نولد متشككين ونحاول عبور الطريق دون التطلع إلى الطريق أولًا، أو نحاول اختبار حدّ السكين على الوجه كي نتأكد إذا كان قاطعًا بحقّ، أو التوغل في الغابة بلا رفيق. الإيمان الأعمى بما يقول به الوالدان هو مسألة بقاء على قيد

الحياة بالنسبة لأي طفل، وهو ما ينطبق على شؤون الحياة العملية والمعتقدات الدينية. لا يؤمن بالأشباح والممسوسين أولئك الذين أبصروهم، بل أولئك الذين حُملوا على الإحساس بهم وإبصارهم (وإن لم يبصروهم) منذ الطفولة.

أحيانًا تُعيد قلّة من ذوي الشخصية العقلانية النظر في الكبر، ولسنوات يتبنون وجهة نظر مُتشككة رغم تنشئتهم الدينية، بيد أن أي ضعف يواجهونه في حياتهم، كالشيخوخة أو المرض، يجعلهم عرضة إلى حدٍ هائل للتفتيش عن المعونة التي يقدمها لهم الإيمان، والمُتجسدة في بعض القوى الروحية. وحدهم من غُرست فيهم بذرة الشكّ، منذ مرحلة مبكرة للغاية في حياتهم قادرون على الشكّ في معتقد أو آخر من تلك التي يؤمنون بها. وثمّة صعوبة إضافية تواجه ذلك المنظور الذي ينكر الحياة الروحية (والمقصود به الكائنات والأمكنة الباقية على قيد الحياة بعد الموت أو الموجودة قبل مجيئنا إلى الحياة)، ومكمن تلك الصعوبة هو أن العزاء الذي نجده في فكرة الحياة الأخرى والروح الخالدة القادرة على التناسخ وبلوغ الفردوس ربما يكون دائمًا أكثر جاذبية، بسبب الشقاء الوجودي الذي يعاني منه الإنسان، ووعينا المخيف والمضني بالموت. كما يخلق ذلك العزاء اتساقًا اجتماعيًا وشعورًا بالتآخي ويوثّق الصلة بين الأشخاص المتباعدين، على خلاف تلك الرؤية الفاترة المخيبة للآمال حيث لا وجود للحياة الخارقة للمألوف.

نُحسّ، نحن البشر، بشغف جارف قد جُبِلنا عليه يجذبنا نحو الغموض، وإنه لعناء يتكبده المرء يوميًا كي يتحاشى الوقوع في ذلك الفخّ وتلك الغواية المستمرة بالإيمان ببُعد ميتافيزيقي لا سبيل لإثباته، حيث كائنات لا بداية لها ولا نهاية هي أصل الأشياء جميعًا، حيث أشباح غير محسوسة أو أرواح تهزم الموت الجسدي. فباعتبار أن الروح هي العقل أو الذكاء يصبح من السهل إثبات أن الروح، وكما قال الفيلسوف، ليست فقط فانية بل أكثر وأشدّ فناءً من الجسد (يكفي أن يصاب المخّ بحادث، أو يقع في هاوية الزهايمر الحالكة).

-17-

كثيرًا ما دبّ الخلاف بين أبي وبين مجلس إدارة الجامعة لأسباب أيديولوجية في طفولتي وشبابي الأول، خلال فترة الستينيات والسبعينيات. وبطبيعة الحال لم أكن أفهم أو أدرك الأمر على نحو مباشر، ولكن الأحاديث بين أبي وأمّي في غرفتي الطعام والنوم كانت متوترة وبلا نهاية. كانت أمّي تسانده بحزم في كل شيء، وتساعده على تحمل الاضطهاد الجائر الذي يتعرض له وتقترح عليه استراتيجيات دبلوماسية لتجاوز المرحلة. ولكن كانت هناك أوقات يُمنى فيها كل شيء بالإخفاق، فكان يضطر أبي للقيام برحلات طويلة، رحلات استعصت على إدراكي ولها عواقب مؤلمة للغاية لم أتفهمها ولم أستطع تبينها إلّا بعد مرور سنوات طويلة.

اضطر طوال تلك العقود لتحمل اضطهاد المحافظين له مرة تلو الأخرى، إذ اعتبروه يساريًا يفسد الطلاب وخطرًا يحيق بالمجتمع ومفكرًا متحررًا أكثر مما ينبغي فيما يتعلق بالدين. ثمّ بعد ذلك، ومنذ أواخر الستينيات، اضطر لتحمل المكارثية والسخرية القاسية والانتقادات المتواصلة على يد اليساريين الذين حلّوا محلّ المحافظين في مناصب بعينها بمجلس الجامعة، واعتبروه برجوازيًا فاتر الحماس ولا سبيل إلى تقويمه لأنه لم يقبل بالكفاح المسلح. أذكر أن أبي، خلال الفترة الانتقالية، عندما اتخذ اليسار مكان اليمين في الجامعة، وفي وقت نادى فيه بالتسامح مع كافة الأفكار أكثر من أي وقت مضى، ودعا إلى فلسفة

«السبلائية» (كلمة ابتكرها دفاعًا عن السُبل النزيهة ومكافحة الدوجمائية والمحادثات)، كان كثيرًا ما يردد العبارة التالية، والتي ربما اقتبسها عن شخص لا أذكره: «أولئك الذين يرميهم أهل اليمين بانتمائهم إلى اليسار، ويرميهم أهل اليسار بانتمائهم إلى اليمين، هم المحقّون.»

بدا له أمرًا منفرًا عندما أراد الماركسيون تحويل كنيسة المدينة الجامعية العتيقة، بل ونجحوا في تحويلها بالفعل، إلى معمل ثم بعد ذلك إلى مسرح، فرغم أنه ينبغي للجامعة أن تكون علمانية، إلا أنها قد ولدت دينية، بل ولدت داخل دير، ولذا فإن احترام مكان عبادة (بالأخذ في الاعتبار أن غالبية الأساتذة والطلاب كانوا من المؤمنين) لم يكن بمثابة تنازل عن ذلك المبدأ العلماني، بل تأكيدًا على عقيدة ليبرالية ومتسامحة تقبل كل المظاهر الفكرية التي يعبر عنها الإنسان، دون إقصاء للديني منها، وما كان يضير الجامعة في شيء أن تضم كذلك دور عبادة بوذية ويهودية وماسونية وإسلامية. كان يرى أن أي شكل من أشكال الأصولية ضار، ليست فقط أصولية المؤمنين، بل وكذلك أصولية غير المؤمنين.

ولكن في أوائل الستينيات، وعمري بالكاد ثلاث أو أربع سنوات، كانت المعركة في مواجهة ممثلي اليمين المتطرف، وهو ما تكرر مرة أخرى في الثمانينيات. خاض أبي أول صراع خطير له في مواجهتهم عام 1961 تقريبًا، في وقت احتلوا فيه قمة الهرم الوظيفي بجامعة "أنتيوكيا" والتي تُدعى "لا ألما ماتير"، حيث تلقى دراسته وعمل أستاذًا حتى آخر يوم من أيام حياته، رغم كل شيء. شرع في ملاحقته رئيس الجامعة "خايمي سانين إتشيبيري" ذو النزعة المحافظة (وإن هذبت السنوات حدّته حتى بلغ شيخوخة أقلّ تعصبًا)، وعميد كلية الطب "أوريول أرانجو" بصفة خاصة، لغرض غير خاف، وهو أن يتخلّى عن منصبه كأستاذ. حدث في وقت من الأوقات وأن أضرب معلمو المدارس الحكومية، فساند أبي الإضراب ميدانيًا، وكذلك من خلال مقالات ومداخلات في

الإذاعة. وبسبب مساندته للإضراب تلقى خطابًا من العميد الدكتور "أرانجو"، وبّخه فيه كالآتي:

«يوم أخذت على عاتقي مهام عميد الكلية، اتفقت وسيادتكم حول الحاجة إلى تخليص منصب أستاذ الطب الوقائي مما قمتم بدعوته «bad will» وسميّته أنا بالوصمة الشيوعية، حرصًا على مصلحة الكلية. ولقد عبرت عن شكري لوعدكم لنا بألا تدخروا جهدًا في سبيل تلك الحملة الضرورية. بيد أنني تلقيت الآن كمًا ضخمًا من المعلومات حول أدائكم في المحافل العامة وعبر الإذاعة، في إطار حركة بدأت مؤخرًا ثمّ انحرفت إلى إضراب غير شرعي. وفي مثل تلك الحالات، تثور الشكوك حول منصب الأستاذ الجامعي، وهل يُستغل بهدف خدمة الأعمال الجامعية الخالصة، أم بغرض تحريض الجموع. إن أسلوبكم لا يليق بأستاذ جامعي، وأرى أنه قد حان الوقت لحسم أمركم والاختيار بين التفرّغ إمّا للتعليم أو لأنشطة لا تمت لها بصلة.»

وبعد أن قام أبي بإخطار عميد الكلية ببعض الأعمال التي يجريها في إحدى القرى القريبة من "ميديّين" بمعاونة فاعل خير من الولايات المتحدة (في إشارة بدون ذكر أسماء إلى الدكتور "سوندرز")، جاء ردّه وقد اشتمل على الأفكار التالية:

«من واجبي أن أعرب لسيادتكم، وبكل احترام، أنه لم يصل إلى فهمي يومًا أن منصبي كأستاذ يعني التخلي عن حقوقي كمواطن وحريتي في التعبير عن أفكاري وآرائي بالشكل الذي يبدو لي مناسبًا. فحتى هذه اللحظة، وعلى مدار خمس سنوات قضيتها في منصبي كأستاذ بهذه الكلية، تعدّ تلك هي المرة الأولى التي تجري فيها محاولة سلبي هذا الحقّ. فقد كتبت في الصحافة وعبرت عن آرائي عبر الإذاعة في عهد عمداء سابقين، وربما يكون هذا هو ما تسبب في الـ«bad will» (بين قطاعات بعينها) فيما يتعلق بمنصبي كأستاذ، بيد أنني لا

أشعر بأدنى ندم عمّا فعلت، إذ أعتقد أنني وضعت الصالح العام نصب عيني دائمًا، ونظرًا لأن المنصب الذي أشغله يعني في الأساس بالصالح العام والاتصال بالواقع الكولومبي، فليس بمقدوري أن أنعزل وأعزل طلابي في البرج العاجي الأكاديمي، في حين أن واجبي، على العكس من ذلك، يقتضي بأن أكون على اتصال وثيق بالمشاكل الحقيقية في كولومبيا، لا أقصد المشاكل المستقبلية والماضية فحسب، بل وكذلك الحاضرة، حتى لا تظلّ الجامعة كيانًا أثيريًا، وتظلّ معزولة عن هموم الناس، تولي ظهرها للوسط المحيط بها وتكرّس الأساليب القديمة والامتيازات المستمرة منذ العصور الوسطى الحافلة بالظلم الاجتماعي الذي عاني منه الشعب الكولومبي.»

«بالأمس فقط، قمت بإجراء زيارة على ظهر الحصان، برفقة رئيس إحدى جمعيات الخدمات الاجتماعية الأمريكية، لـ«عبيدنا» الفلاحين ممن لا يملكون لا أرض ولا مياه ولا أمل. خطر لي أن أحكي عن ذلك لطلابي وللناس بوجه عام، أن أدعوهم للذهاب والتعرف عليهم حتى نتمكن من ابتكار أساليب أفضل لتحسين ظروفهم الباعثة على الأسى. لو أن تلك الأفكار لا تليق بأستاذ جامعي، فلكم أن تتخذوا القرار الذي ترونه مناسبًا سيدي العميد، أمّا أنا فلا أفكر في التخلّي عنها تحت أي ضغط اقتصادي أو سياسي يقع عليّ، ولا أفكر في هجرها آسفًا بعد أن حاربت طوال حياتي من أجلها ومن أجل حقي في التعبير عنها.»

لم يكن عميد الكليّة هو من قام بالرد هذه المرة، بل مجلس إدارة الجامعة. فقد أجمع على تأييد موقف الدكتور "أرانجو" رئيس الجامعة، وعمداء الكليات بلا استثناء، وممثلو كل من رئاسة الجمهورية ووزارة التعليم والأساتذة ورؤساء الجامعة السابقين والطلاب. عاد أبي للرد عليهم بضراوة شديدة، ولكنه أدرك أن مساحته بالجامعة آخذةً في الضيق، وأن كافة الأنظار متعلقة به في انتظار إقالته في أي لحظة بأتفه الذرائع التي يمكن العثور عليها. حينئذ،

وبين عامي 63 و64، بدأ أبي في طلب الـ«إعارات» المتكررة حتى لا يتعرض للإقالة المفاجئة.

ولكي يتجنب تلك العاصفة، شأنه في ذلك شأن الطيارين الذين يقومون بتفادي السحب الركامية بمناورة على شكل سندان ثم يعودون بعد قليل إلى المسار المقرر، متفادين بذلك العاصفة، استطاع أبي العمل كطبيب استشاري خارج البلاد، (وقد سبق له العمل كاستشاري بمنظمة الصحة العالمية في واشنطن و"ليما" والمكسيك خلال السنوات الأولى من مشواره في مجال الطب) في إندونيسيا أولًا ثمّ سنغافورة ثمّ ماليزيا والفلبين، وليتمكن من ذلك تقدم بطلب الإعارة عدة مرات. أمّا مجلس إدارة الجامعة، فقد قابل طلبه بالموافقة على الفور، سعيدًا بالتخلص من الصداع المتجسد في شخص ذلك الدكتور المشاغب، ولو بصفة مؤقتة.

لم تكن تلك الفترات الفاصلة التي غاب خلالها كافية حتى تهدأ النفوس، فكان يستقبله طلابه القدامى عند عودته بالحجارة (بعد أن خصّهم بحمايته وزكّاهم وعينهم أساتذة بنفسه)، ولا سيما واحد من أولئك الطلاب القدامي، "جيّرمو ريستريبو تشابارّياجا"، الذي تفانى في إهانة أبي واتهامه بأنه «ديماجوجي مع الطلاب وديكتاتور مع أعضاء هيئة التدريس»، ويدعو إلى «فلسفة خطيرة تتعارض مع التقدم الذي تحرزه كلية الطب». كان أبي يقرأ تلك الخطابات فلا يصدق ما ورد بها، ويعتريه الذهول عند معرفته بتلك الاتهامات. كانت ثمة مساعي لطرده شر طرده بأخسّ الاتهامات من نفس كلية الصحّة العامة التي أسسها وأدارها. حينئذ كان يضطر لطلب العمل كاستشاري خارج البلاد من جديد حتى يتمكن من الاستمرار في إعالة الأسرة دون الاضطرار للتنازل عن كرامته في الكلية.

وخلال الأيام الأولى من أحد الأسفار التي قام بها، ربما رحلته الأولى التي دامت ستة أشهر وكانت عندي بالموت أشبه، أذكر أنني كنت أتوسل إلى أمي كي تتركني أنام في سريره، وأطلب من الخادمات ألا يبدلن الملاءات أو أكياس الوسائد حتى أستطيع النوم مستنشقًا رائحة أبي. وبالفعل استجبن لطلبي، على الأقل في البداية، حتى استطاع كلٌ من الوقت وجسدي تبديل تلك الرائحة الزكية التي كان يتلقاها أنفي كإشارة الحماية والطمأنينة.

كان إجراء مكالمة هاتفية من أقاصي الكرة الأرضية في تلك الأيام يكلّف مبلغًا وقدره، ولذا فلم يكن باستطاعة أبي تحمل تكاليف أكثر من مكالمة واحدة قصيرة جدًا كل شهر، يستحيل خلالها التحدث إلى أبنائه الستة وأمي، فكان يكتفي بالحديث إليها لخمس دقائق، تضطر خلالها أن ترفع صوتها كي تحكي له في عجالة عن أحوالنا جميعًا، واحدًا واحدًا، وعن آخر أخبار العائلة والبلد، على أصوات صفير وشوشرة تبدو وكأنها من الفضاء الخارجي. بالطبع كنا نتبادل الخطابات، فيتلقى كل من أبنائه رسائل عديدة كل أسبوع، على حدة أو مجتمعين، كما نكتب إليه بدورنا. و ما زالت بعض رسائله في أرشيف البيت، مليئة بالخواطر والنصائح الموجهة لكل منا، تفيض حبًا وعذوبةً دائمًا، وتفيض بآلام البُعد التي تلطفها ذكريات ومشاعر طيبة لا تتبدل. كنت أعود إلى كآبة سريري وغرفتي، أحفظ بطاقاته البريدية ورسائله أسفل الفراش، أمّا تلك الأسطر حيث تراصت حروف تحمل إليّ صوت أبي من آسيا، فقد كانت رفيق الليالي ومُعيني السرّي الذي بفضله أستطيع أن أخلد إلى النوم.

يرجع الفضل لبعض رسائل أبي التي ما زلت أحتفظ بها، وذكرى المئات والمئات من المحادثات التي دارت بيني وبينه، في أن أدرك الآتي: ليس الأمر أن المرء يولد صالحًا، ولكن إذا قوبل الشرّ الغريزي الكامن بداخله بالتسامح والإرشاد، فربما أصبحت هدايته ممكنة من خلال سُبُل غير مؤذية، بل وربما

أمكن تبديل وجهته. ليس الأمر أن المرء يتعلم الانتقام (إذ نولد ومعنا مشاعر انتقامية)، بل يتعلم ألّا يقدم على الانتقام. ليس الأمر أن المرء يتعلم أن يكون صالحًا، بل يتعلم ألّا يكون شريرًا. لم أشعر يومًا بأنني صالحٌ، ولكنني أدركت أنني استطعت في الكثير من المرات أن أكون شريرًا لا يمارس الشرّ، جبانًا يتغلب على جبنه بمشقّة، أو بخيلًا يسيطر على بخله، والفضل يرجع للتأثير الحميد الذي تركه أبي في نفسي. وأهم ما في ذلك أنني، إذا حظيت في حياتي بشيء من السعادة، إذا كنت على قدرٍ من الرشد، إذا سلكت في الغالب سلوكًا يُعدّ لائقًا، إذا لم أنفر من الاختلاط، إذا تحملت هجمات وصعاب ولم أزل مُسالمًا، ففي ظني أن السر ببساطة هو الحب الذي أبداه لي أبي كما أنا، وقد كنتُ طردًا بلا ملامح، له من المشاعر الصالحة والشريرة، وأرشدني إلى الطريق لأستخلص خير ما في الطبيعة البشرية الشريرة، التي ربما نشترك فيها جميعًا. ورغم أنني لا أنجح في ذلك مرات كثيرة، فمن أجل ذكراه أحاول أغلب الأوقات أن أكون أقل شرًا مما توحي به إليّ ميولي الطبيعية .

-18-

المشكلة أنني طوال أشهر غيابه كنت أسقط بلا سند في غياهب الكاثوليكية الحالكة التي تدين بها عائلة أمي. فكثيرًا ما اضطررت للذهاب إلى بيت جدتي "بيكتوريا" مساءً، وقد سُميت بهذا الاسم، الذي يعني «انتصارًا»، لأنها جاءت إلى الدنيا في "بوكارامانجا" بعد طابور مكوّن من ستة إخوة ذكور، ويوم اتضح أن سابع الأبناء وآخرهم أنثى صاح جدي الأكبر "خوسيه خواكين" أستاذ اللغة الإسبانية ومؤلف كتب التاريخ الشيقة: «أخيرًا! "بيكتوريا"!»، وأصبحت الطفلة "بيكتوريا". سبق جدتي إلى الدنيا عدد كبير من الإخوة الرجال المتدينين، ثمّ أصبحت بعد ذلك أخت رئيس الأساقفة "خواكين"، وأخت المونسنيور "لويس جارسيا"، وأخت "خيسوس جارسيا" (والذي كان في الواقع يحمل في طيات نفسه من صفات الكهنة أكثر من أخويه على الرغم من زواجه، فكان يحضر ثلاثة قداسات إلهية يوميًا، وكأنها حفلات سينمائية، حفلة صباحية وأخرى مسائية وأخرى ليلية، ثمّ كرس حياته بعد أن ترمّل إلى العبادة وتذكير الجميع - فلم يكُن أحد يذكر - بأنه قد سبق له وأن شغل منصب وزير البريد والتلغراف في عهد حكومة "أباديا منديس" حتّى صعود الليبراليين والماسونيين والراديكاليين الكارثي إلى الحكم)، وأخت "ألبرتو" الذي شغل منصب القنصل في هافانا (والأخير هو أكثر إخوته حبًا للحياة، وربما أقلّ أفراد العائلة تظاهرًا بالتقوي)، وكذلك عمّة "خواكين جارسيا أوردونيس"، أسقف "سانتا روسا دي أوسوس"، وعمّة الكاهنيْن المتمردين الذين سبق وأن أشرت إليهما، "رينيه جارسيا" و"لويس أليخاندرو كورّيا". ولكي تكتمل الدائرة

الكاثوليكية حتّى النخاع المحيطة بها، فإلى جانب تلك الزمرة المتدينة الذكورية كان آباء اعترافها وأعزّ أصدقائها هم المونسنيور "أوريبي" الذي أصبح فيما بعد أسقفًا على "ريونيجرو" وأشهر طاردي الأرواح الشريرة في كولومبيا، والأب "ليساندرو فرانكي" قسيس "أراكاتاكا"، والأب "تيسنيس" المؤرخ في الأكاديمية، والفضل يرجع إلى كل تلك العلاقات اللاويّة في أن تقوم باستضافة «جماعة الخياطة الرسولية»، وهي مجموعة من النساء خصصت مساء يوم الأربعاء، من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة، لخياطة ثياب كهنة المدينة بلا هوادة، مجانًا للفقراء وبأسعار باهظة للأثرياء. كنّ يخيطن ويغزلن ويطرزن التونيات والقياطين والمناطق والجبب، وأوشحة الظهر والمناديل المخصصة لتغطية كؤوس القربان داخل الهيكل ومناديل أخرى لتنظيفها، فضلًا عن الزيّ الخاص بطلاب المعهد اللاهوتي والشمامسة الصغار.

كانت تفوح من بيت جدتي القائم في تقاطع طريق "بيّا" وشارع "بومبونا" رائحة البخور وكأنه كاتدرائية. فازدحمت كافة أرجائه بتماثيل القديسين وأيقوناتهم، كمعبد وثني لمختلف العبادات والمذاهب (قلب يسوع المقدس بأحشائه البادية للعيان، القديسة حنة تُعلِّم القديسة العذراء القراءة، القديس "أنطونيو دي بادوا" يعظ الطيور بلسانه الطاهر، القديس "مارتين دي بورّيس" يدافع عن الزنوج، القديس "كورا دي آرس" على فراش الموت)، إلى جانب عدد من الصور الضخمة للفقيد السيد رئيس الأساقفة مرتديًا نظارة العميان التي تحول دون رؤية عينيه، متناثرة فوق جدران غرفة الطعام والأروقة المعتمة الطويلة. كما كان ثمّة مُصَلّى حيث صُرّح للعمّ "لويس" بإقامة القداس الإلهي، وعدد من الخطابات الموضوعة في أطر ذهبية لأنها تحمل توقيع الكاردينال "باسيلّي"، الذي أصبح فيما بعد صاحب القداسة "بيوس الثاني عشر"، وهو الاسم الذي أطلق على نفس الكاردينال، صديق العمّ "خواكين"،

حين اختاره الروح القدس لكرسي البابوية قبل الحرب العالمية الثانية بقليل، ليكون كارثةً على اليهود ووصمة عار على المسيحية، وبين كل تلك الأغراض والعبادات والصور المقدسة، كانت تفوح في المكان رائحة مخزن الكنيسة، الشموع الموقدة، الرهبة من الخطيئة، ونميمة الأديرة.

بحلول المساء، كنا نجلس جميعًا في المُصَلّى حول جدتي، أنا وأخواتي أولًا، ثم تبدأ النساء في الظهور من كافة أركان البيت. قريبات وخادمات وجارات، دائمًا نساء في ملابس سوداء أو بلون القهوة الداكن كالصراصير، رؤوسهن يغطيها الحجاب وبأيديهن المسابح. كان يرأس طقوس المسبحة العمّ "لويس" بردائه القديم اللامع وقد لطخه الرماد وأبلته المكواة، ويديه اللتين تغطيهما القروح الناجمة عن الجذام، وقمّة رأسه البيضاء الحليقة، وقامته العملاقة، كعادته محتدّ ومرح في نفس الوقت، مصدوم وآسف على الآثام الروتينية والخطايا العُظمى التي يضطر لأن يحلّ المعترفين منها على كرسي الاعتراف بشقته. كان ينتظر بصبر، يدخن السجائر التي تلفح أصابعه، سيجارة تلو الأخرى، مرددًا أسطوانة اليأس المشروخة العتيقة، مرارًا وتكرارًا («آهٍ، متى، متى نبلغ الفردوس!»)، بينما تتوافد النساء من «الداخل» والخارج.

كانت تصل "مارتا كاسترو"، والتي سبق وأن أصيبت بالسلّ وتبقّى لها من آثاره سعال مكتوم، جاف، متواصل، وأنفاس قصيرة متلهفة، علاوة على ذلك فقد كانت إحدى عينيها غائمة، رمادية تميل إلى الزرقة، إذ انغرزت الإبرة في عينها ذات مرّة وهي تطرز رداء للكهنة، ففقدت عينها، كل هذا لكي تُحسِن إلى الكهنة الفقراء، هكذا جازاها ربّي، كما جازى العمّ "لويس" الذي خدم بصفته قسيسًا في "أجوا دي ديوس"، مستشفى الأمراض المعدية الكولومبي القائم ببلدة في "كونديناماركا"، حيث أصابته عدوى أودت بحياته، بعد أن تمزّق ظهره إربًا وتساقطت أصابعه قطعًا. ذات مرة، وبينما كانت جدتي تبسط

الملاءة فوق فراشه في أواخر أيامه، لمحت فجأة إصبع قدمه الكبير منفصلًا فوق الملاءة، فهرعت تتصل بالطبيب، إلّا أنه لم يكن هناك ما يمكن فعله، فقد أصيب بداء السكر إلى جانب الجذام، واستلزم الأمر بتر ساقيه، الواحدة تلو الأخرى (وهو نفس ما حدث فيما بعد لـ"ليساندرو" أب اعتراف جدتي، حتّى وإن لم تصدقوا، فقد أدّى داء السكر إلى إصابته بغرغرينا بسبب قصور تدفق الدم، ومن ثمّ اقتضى الأمر بتر طرفيه، وكأن صاعقة نارية سقطت من الأعالي فوق كليهما عقابًا لهما على الإيمان والحماس المسيحي المتّقد والعفاف الرسولي) بعد أن تكفل الجذام بتمزيق أصابع يدي العمّ "لويس"، وترك له بقاياها البشعة يمرر بها حبات المسبحة. كما كانت تحضر بطبيعة الحال "تاتا"، مربية أمي وجدتي التي كانت تقضي ستة أشهر في بيتي وستة أشهر في بيت جدتي، وكما سبق وأن قلت، كانت صماء تمامًا، تصلي صلاة المسبحة على إيقاعها الخاص، فبينما نقول نحن «يا قديسة مريم، يا والدة الله، صلي من أجلنا، نحن الخطاة، الآن وفي ساعة موتنا، آمين»، كانت هي ترتّل في الوقت نفسه، بلا إيقاع أو تناغم «يا ممتلئة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنك...». "تاتا" أيضًا ألمّ بها حادث مفجع، فقد أجرى لها طبيب العيون الدكتور "ألبرتو يانو"، أفضل جراح في "ميديّين"، جراحة لإزالة المياه البيضاء من العين، وشملتها أمي برعايتها، إذ لم تكن قادرة على النهوض من الفراش ولا حتى رفع رأسها، فكانت أمي تنظف جسدها بمنشفة صغيرة حتى لا تضطر للحركة. قضت شهرين في سكون التام، لأن العملية كانت تُجرى في ذلك الوقت باستخدام المبضع وليس الليزر، وجرحها كان غائرًا. وذات صباح، بينما كانت تعاونها أمي على تغيير المنامة، رفعت "تاتا" رأسها لتجد أمي عينها تتصفى، ومادة جيلاتينية تسيل من محجر العين وكأنها بيضة نيئة مكسورة، مادة جيلاتينية لها رائحة نتنة، هكذا وجدت أمي عين "تاتا" في يدها، على غرار

جدتي التي سبق لها وأن وجدت إصبع قدم العمّ "لويس" المصاب بالغرغرينا، وفقدت "تاتا" الإبصار إلى الأبد، على الأقل بتلك العين، أمّا العين الأخرى فلم تكن تتبين شيئًا، مجرد أنوار وخيالات، أو أجسام وأشياء بالغة الضخامة، بيد أنها لم تكُن لتجرؤ على إجراء عملية إزالة المياه البيضاء في العين الأخرى. للتواصل معها اشترت أمي طبشورًا وسبورة كالمستخدمة في المدارس، وكلما أرادت أن تخبرها بشيء كانت تضطر لكتابته على السبورة بخط هائل الحجم، إذ لم تكن قادرة على السمع، بل ترى الأجسام الضخمة في حجم البيوت. كانت تصلي وتصلي بلا توقف، فهي أشياء يبتلينا ربّي بها ليجربنا أو ليجعلنا نسدد ديننا مقدمًا على وجه الأرض، بعض من عذابات المطهر الضرورية إلى أقصى حد لتطهير الروح قبل استحقاق الفردوس.

كما كان يحضر في بعض الأحيان "مونو جاك"، والذي تسبب له الإفراط في التدخين والصلاة بسرطان في الحلق مما أدّى إلى استئصال حنجرته، فلم يكن له صوت، أو بالأحرى كان يتحدث على نحوٍ غريب، وكأن حديثه غرغرة صادرة عن معدته. قيل لي أنا وأخواتي إن لديه ثقبًا يتصل بالرئتين مباشرة مما يتيح له أن يتنفس من ظهره كالحيتان، فلم نكن نسمع صوتًا لـ"مونو جاك" الذي يصلي معنا صلاة المسبحة بدوره، بل كنا نسمع قرقرة مزكومة يغصّ بها حلقه الذي لم يعُد موجودًا، مما جعله يغطي عنقه بوشاح أحمر من الحرير مطوي بأناقة شديدة، في حين نتطلع إليه أنا وأخواتي برعب، وتركيزنا موجه إلى الجزء الخلفي من القميص للتأكد من أنه ينتفخ عند منتصف ظهره مع كل زفرة يطلقها، وينكمش مع كل نفس يأخذه، وكأنه دولفين أنفه في منتصف ظهره. كان "مونو جاك" يمتلك صوبة تنمو فيها أفضل ثمرات الجوافة بالمدينة، ثمرات ضخمة، وأحيانًا كان يدعوني لأتسلق الأشجار وأقطف ثمرات الجوافة لكي نعدّ في بيتنا أو بيت الخالة "مونا" شطائر الجوافة وحلوى الجوافة وكعك

الجوافة والجوافة المطبوخة ومربى الجوافة وعصير الجوافة. وأكثر ما أدهشني في بيت "مونو جاك" هي الصفارة التي كان يعلقها حول رقبته بسلسلة صغيرة على غرار حكّام كرة القدم، وكلما أراد أن ينادي زوجته يلتقط الصفارة ويصفر بقوة شديدة، فتجيبه الزوجة من الداخل: «سأحضر حالًا يا "مونو"، سأحضر حالًا»، الأمر الذي استعصى على فهمي هو لماذا لا يضع الصفارة في ظهره حيث الثقب الذي يتنفس من خلاله، ثمّ يُخرج فيضًا من الهواء كحوت أحدب ينفث فيضًا من المياه عبر ظهره.

كانت صلوات المسبحة مروعة كموكب يضم رعايا مصابين، كـ«بلاط المعجزات»، وكأنه مشهد من فيلم «أسبوع الآلام»، حيث يقترب المرضى والمقعدون والعميان والبرص من المسيح لكي يشفيهم، ثمّ كانت تأتي الزانية، الآثمة، امرأة تربطنا بها صلة قرابة غير وثيقة، امرأة بائسة بلا اسم، ضلّت طريقها إلى الأبد، فقد هجرت زوجها وأبناءها وهربت برفقة آخر إلى مزرعة مواشي في "مونتيريا"، حتى تنكر لها ذلك الآخر، العشيق، حينئذ أصبحت خالية الوفاض، بلا خبز أو جبن حسب قول النساء، ثم عادت أدراجها، ولكن أحدًا لم يفتح لها بابه، فلم يعُد بوسعها سوى أن تصلي وتصلي صلاة المسبحة طوال حياتها، عسى يتغمدها الرب برحمته يومًا، ويغفر لها فعلتها الشنعاء التي جرؤت على ارتكابها، ولكنها كانت تلقى معاملة سيئة، فتضطر إلى الجلوس في الخلف، في أقصى المكان، حيث يخلط الناس بينها وبين الخادمات. رأسها محني باتضاع، في حين لا تكاد بقية النساء يتطلعن إليها، يحيينها من بعيد بإيماءة من الحاجب، دون أن يدعونها إلى «جماعة الخياطة الرسولية» مطلقًا، وكأنهن يخشين الإثم الذي ارتكبته، الزنا، فربما كان معديًا، أشدّ عدوى من الجذام ونزلات الإنفلونزا وداء السلّ.

كما كان ينضم إلينا "روساريو" صانع الكعك، و"مارتينا" الكواءة التي كانت تفوح منها رائحة النشاء، و"ماريلينا" ابنة "مارتينا" الكواءة المصابة بالتخلف العقلي والشفة الأرنبية، والتي أنجبت ثلاثة أبناء في الشارع من ثلاثة رجال مختلفين، فالذكر الشبق لا يأبه بأن ينام مع نابغة أو بلهاء، مبتغاه قضاء وطره دائمًا، يكفيه شقٌ دافئ ذو رائحة نفّاذه. قامت "مارتينا" الكواءة، التي فاض بها الكيل من اختفاءات "ماريلينا" مع أولئك الذكور الذين اشتدت عليهم شهواتهم، بإعطاء الأطفال لأسرة كندية رحبت بتبنيهم، ظنًا منها أن "ماريلينا" ستحبل من جديد، وما نفع كل هذا العدد من الأحفاد؟ إلّا أن الأمور لم تسر على هذا النحو، ولم تعودا لرؤية الأحفاد والأبناء سوى في البطاقات البريدية بحلول شهر ديسمبر، عندما كانت تُرسل إليهما صور الأطفال بمناسبة عيد الميلاد المجيد، أطفال كنديون يحيط بهم الثلج والرخاء، أطفال بعيدون صبغهم البرد باللون الأبيض، يرسل والداهم بطاقات بريدية بدون عنوان المرسل:«Merry Christmas»، ومجرّد ختم "فانكوفار" وطوابع كندا التي تحمل صورة ملكة إنجلترا مما يشير إلى البلد والمكان، دون إشارة إلى البيت حيث كان يعيش الأطفال حينئذ كالأثرياء، في حين تعيش "مارتينا" الكواءة وابنتها حياة بلادة وخمول هنا، وحيدتين وفقيرتين، يتقدم بهما العمر وتشتد بهما الوحدة. في أعقاب آخر اختفاءات "ماريلينا" برفقة رجل، عادت وقد أجريت لها جراحة لسد قناتي الفالوب، لتصبح عاقرًا إلى الأبد. ظلّتا وحدهما، وحدهما ترتقان وتكويان، وحدهما تنشّيان المفارش والمناديل الكتانية بقدر المستطاع، وحدهما ومن أجل لا أحد.

وكذلك كانت تحضر الصبايا، حسب قول جدتي، صبايا «جماعة الخياطة الرسولية»، رغم أن جميعهن عجائز، حتى الشابات منهن، جميعهن طاعنات في السنّ، ومن بينهن "خيرتروديس أويوس" و"ليبيا إيساسا دي إرنانديس"

مُختَرِعة "لا بومادا بينيا"، التي كوَّنت ثروة بفضل ذلك الكريم الذي يمحو بقع الوجه واليدين كأنما بفعل السحر، الثرية الوحيدة في «جماعة الخياطة الرسولية» وأكثرهن تبرعًا من أجل أعمال الخير، وكذلك "أليسيا" و"ماروخا بيّجاس"، سيدتان هزيلتا الجسد كثيرتا الكلام، وكذلك الأختان "روسيو" و"لوس خاراميّو"، وعمتي "إينيس" أخت أبي، وجدتي الأخرى دونيا "إيبا"، والتي عاشت حياتها تضحك ملء شدقيها دون أن نعرف لضحكها سببًا، و"ساليا دي إيرنانديس" الخياطة، و"مارجاريتا فيرنانديس دي ميرا" والدة الطبيب النفسي، و"إيوخينيا فيرنانديس" و"مارتينا مارولاندا" أخت الأب "مارولاندا" التي كانت تعيش في مكان ما غير بعيد، وغيرهن وغيرهن من النساء اللائي كن يقصدن بيت جدتي للخياطة والنميمة وإقامة صلاة المسبحة مع العمّ "لويس"، المونسنيور "جارسيا"، عمّي المسكين مريض الجذام الذي انفضّ من حوله الجميع، رغم أن أحدًا لم يتفوّه باسم هذا المرض يومًا ولا أشار إليه، لا أمي ولا جدتي ولا الخادمات ولا الصبايا العجائز بـ«جماعة الخياطة الرسولية»، ولا أحد، لم يكُن يقال سوى «التجربة» أو «الكفارة»، التجربة والكفارة اللتان ابتلا الرب العائلة بهما جزاء كل صلوات المسبحة التي أقامتها، والتناول من الأسرار المقدسة كل تلك المرات، والمواظبة على الاعتراف أسبوعيًا وإقامة القداسات وراء القداسات ثمّ المزيد من القداسات، توسلًا لمعجزاته التي لم تأت قط، ورحمته التي جاءت في ثياب الآلام والمآسي والبلايا.

لم تكن أمي تشارك في مجالس الخياطة قط، وقلما حضرت صلاة المسبحة، فإلى جانب عملها كانت امرأة تتمتع بحسّ عملي، قليلة الصديقات، تكره النميمة الأزلية الدائرة في مجالس الخياطة، والرائحة التي تفوح من الكهنة ومخازن الكنائس دائمًا، رائحة طفولتها، غير أنها كانت ترسلنا إلى هناك، أنا وأخواتي، حتى يعتنوا بنا، ووفقًا لقولها كانت ترسلنا في الحقيقة لكي نشاهد ما يجري

ونكون صالحين، ولكني أظن أنها كانت ترسلنا بالأحرى لكي نمرّ بتجربة صغيرة من التجارب التي مرّت بها في طفولتها، دون أن تخبرنا بنيتها، ولكي نقيم صلاة المسبحة كما ينبغي مع حشد من العجائز، لكي نلمس كيف كانت طفولتها التي قضتها يتيمة في بيت مزدحم بالكاثوليكية والصلوات والنساء التقيات والقديسات والآثمات، والتشوهات الإنسانية والمآسي الظاهرة والخافية، والأمراض المخزية، لكي نلمس كيف كانت طفولتها في بيت العبادات الذي اختاره الرب ليصبّ فوقه، مثله مثل أيّ بيت آخر، صواعق غضبه في صورة جرعة لا بأس بها من التعاسة، والموت السخيف، والآلام والأمراض العضال.

-19-

وبالفعل سافر أبي بصفة مؤقتة، طريد المناخ السياسي المُعادي بالجامعة، في إعارة لعدة أشهر بـ"جاكرتا" و"مانيلا" وكوالالمبور، ثمّ بعد سنوات في لوس أنجلوس، حيث دعاه الأستاذ "ميلتون رومر" لتدريس الصحة العامة بجامعة كاليفورنيا (ثمّ كان يعود إلى المنزل برفقة طلاب درسوا على يده هناك، "آلان" و"تيري" و"كيث"، وآخرين لم أعُد أذكرهم، فكان عليّ أن أنام في نفس الغرفة مع أولئك الخواجات الشُقر ضخام البنية، طلاب الطب الذين أتوا للتعرف على بؤس البلاد الاستوائية، دون أن أتحدث كلمة واحدة بالإنجليزية، أو بعبارتي الوحيدة المقتضبة وكأنها بيت شعر:

«it stinks, it stinks, it stinks»

وهي العبارة التي كانت تنطوي على جانب كبير من الصواب في بعض الأحيان، فذات مرة أفرغوا ما في جوفهم بدورة المياه الملحقة بغرفتي، إذ أصيبوا بالغثيان حين تصادف وأن خطرت لأمي الفكرة النيرة بتقديم طبق لسان العجل الشهي على الغداء، مطبوخًا بأكمله، هائل الحجم، أحمر اللون، لزج الملمس، مُعدّ حسب وصفة دونيا "خيسوسيتا"، وقد استقر اللسان بأكمله فوق صينية من الفضة وكأنه رأس القديس يوحنا المعمدان، أو رأس "هولوفرنيس"). وخلال أسفار أبي التي كانت تدوم لأشهر إلى كل تلك الأمكنة، كنت أبقى تحت رحمة زمرة من النساء مصابين بداء الكاثوليكية في البيت، وبالتالي تحت رحمة جدتي "بيكتوريا" العذبة المرحة، ولا سيما مع أخواتي

(فقد كان حديثها معهن يدور حول الحبّ والعشاق)، لا أحد ينكر ذلك، على الأقل في غير أوقات صلاتها، إلا أنني كنت أصل بعد انتهاء اليوم الدراسي، في المساء، موعد التعبّد والمسبحة المقدسة مع العمّ "لويس"، وهو في رأيي الجحيم على الأرض، بصرف النظر عما كان يقال لنا مرارًا وتكرارًا قبل الشروع في الصلاة: «اليوم سنتأمل أسرار المسرّات». ومن بين تلك المسرّات كانت زيارة السيدة العذراء لنسيبتها القديسة "أليصابات"، وكذلك العثور على الطفل يسوع بعد فقدان أثره في الهيكل، نفس الشعور الذي كان يساورني، وأنا طفل ضلّ طريقه في الهيكل القائم ببيت جدتي، بدون أب يأتي ليخلصه. ويبدو أننا تأملنا الأسرار المجيدة لأيام أخرى، ومن بين تلك الأسرار انتقال العذراء من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الأبدية وقيامة السيد يسوع المسيح. بيد أن أكثر الأسرار التي تأملناها حضورًا في ذاكرتي، وأشبهها بالمشاعر التي كانت تنتابني، هي تلك الأسرار الأليمة: ما يزيد عن الخمس آلاف جلدة، الصليب الثقيل فوق كتفي المسيح الواهنتين، تاج الشوك، الصلاة في البستان، الموت والفداء على الصليب. لم نكد نفرغ من تأمل تلك العذابات الرومانية وإذا بهم يشرعون في تلاوة ابتهالات راهبات "لوريتو" اللانهائية في تمجيد القديسة العذراء مريم والتي كانت تُتلى في الختام باللاتينية، ولعلها أول لغة غريبة أسمعها، لغة الإمبراطورية والشعائر، حتّى أوقف «مجمع الفاتيكان» استخدامها. كانت الابتهالات بمثابة أسطوانة لاتينية مشروخة بلا نهاية، إيقاعية ومهدئة للأعصاب، تقول كالآتي:

«يا قديسة مريم صلي لأجلنا، يا أمًّا طاهرة صلي لأجلنا، يا أمًّا عفيفة صلي لأجلنا، يا أمًّا غير مدّنسة صلي لأجلنا، يا أمًّا بغير عيب صلي لأجلنا، يا أمًّا حبيبة صلي لأجلنا، يا أمًّا عجيبة صلي لأجلنا، يا بتولا حكيمة صلي لأجلنا، يا بتولا مكرمة صلي لأجلنا، يا بتولا ممدوحة صلي لأجلنا، يا بتولا قادرة صلي لأجلنا، يا

مرآة العدل صلي لأجلنا، يا برج داود صلي لأجلنا، يا برج العاج صلي لأجلنا، يا سبب سرورنا صلي لأجلنا»، وصفات أخرى عديدة، وألقاب وطلبات أكثر بكثير، تُتلَى على إيقاع رتيب يبدو وكأنه يُدخِل شيئًا من الطمأنينة إلى كل النساء الحاضرات، ولا سيما الخادمات اللائي كانت تتسنى لهن الاستراحة من العمل أخيرًا والمكوث بهدوء لوهلة، غارقات في خيالاتهن بينما يرددن باللاتينية تلك العبارة الخالية من كل معنى بالنسبة لهن: «صلي لأجلنا، صلي لأجلنا، صلي لأجلنا...»، نفس اللازمة المتواصلة التي كانت تتسبب لي في ردّ فعل يتراوح ما بين الضحك والضيق والنعاس والكسل المطلق، حسب اليوم، لم تشعرني يومًا بسمو روحي، بل بضجر مطبق بلا علاج في أغلب الأحيان.

عند عودة أبي من رحلته إلى إندونيسيا أو الفلبين، والتي بدت لي وكأنها دامت لسنوات (عرفت في وقت لاحق أن الفترة التي قضيتها يتيمًا قد استمرت من خمسة عشر إلى عشرين شهرًا في المجمل، مقسمة على عدة مراحل)، أذكر الشعور الجارف الذي كان يغمرني في المطار قبل لقائه مرة أخرى، كان شعورًا بالخوف الممزوج بالفرحة العارمة. كالاضطراب الذي ينتاب المرء قبل أن يقع بصره على البحر، إذ يشتمّ رائحته في الهواء قريبًا، بل ويسمع هدير أمواجه عن بُعد، غير أنه لا يتبيّنه بعد، فقط يحدثه به قلبه، يستشعره، يتصوره. أرى نفسي في شرفة مطار "أولايا إيرّيرا"، في شرفة عظيمة تطل على مدرج الطائرات، بينما تتدلى ساقاي خارج قضبان السور، وأكاد ألمس بيديّ أجنحة الطائرات، ونداء يتردد عبر مكبرات الصوت «تعلن شركة الخطوط الجوية عن وصول الرحلة "HK-2142" القادمة من باناما»، وهدير المحركات البعيد، ومشهد الجسم الألومنيوم المضيء يدنو بينما تتوهج أشعة الشمس على صفحته، كثيفًا ثقيلًا يمرّ بفخامة على مقربة من تلّ "نوتيبارا"، فيكاد يمسّ قمته، على شفا حفرة من المأساة والدوار. ثم في النهاية تهبط الطائرة من طراز

"سوبر كونستيليشن" حاملة أبي، كالحوت المهول تقطع مدرج الطائرات بأكمله حتى تكبح عجلاتها في الأمتار الأخيرة من المدرج، تستدير ببطء ثم تدنو من السلم وكأنها إحدى عابرات المحيط الأطلسي على وشك أن ترسو، ببطء، أبطأ مما تطيق لهفتي (كان لا بد وأن أقفز في مكاني كي أسيطر على مشاعري)، ثم تبطل محركاتها المروحية الأربعة التي تكاد لا تتوقف عن الدوران، الأشرعة الخفيّة التي تصنع سحابة من الهواء المتوهج، ولا يُفتح الباب حتى تتوقف، في حين يقوم العمال بدفع وضبط السلم الأبيض ذي الأحرف زرقاء اللون. كانت تتلاحق الأنفاس، أخواتي جميعًا بملابس المناسبات، أي التنانير المزركشة. ثمّ تبدأ في التطلع إلينا أجساد تسير في طابور الخروج الممتد من باطن الطائرة عبر الباب الأمامي. ليس هذا، ليس هذا، ليس هذا، ولا هذا، حتى يظهر أخيرًا على قمة السلم، لا تخطئه عين، ببدلته الداكنة وربطة العنق ورأسه الأصلع اللامع ونظارته الغليظة ذات الإطار المربع، تطلّ من وجهه نظراته السعيدة، يحيينا بيده عن بعد، يبتسم من مكانه بالأعلى، بطلنا، الأب العائد من مهمة في أقصى أقاصي آسيا محملًا بالهدايا (لآلئ وحرائر من الصين، تماثيل صغيرة من العاج والأبنوس، صناديق من خشب الساج ممتلئة بالمفارش والأغطية، تماثيل صغيرة تجسد راقصات من "بالي"، مراوح يد مصنوعة من ريش الطاووس، أقمشة هندية مُحلّاة بالمرايا الدقيقة والقواقع البحرية، أقراص البخور الفواحة) والضحكات المجلجلة والحكايات والبهجة، جاء ليخلصني من العالم البائس حيث المسبحة والأمراض والآثام والتنانير وثياب الكهنة والابتهالات والأرواح والأشباح والخرافات. وأظنها قليلة هي المرات التي شعرت فيها بمثل تلك الراحة والسعادة، ولن أعود للشعور بها ثانيةً، فها قد أتى مخلصي، مخلصي الحقيقي.

سنوات سعيدة

-20-

كان أبي وأمّي على طرفي نقيض فيما يتعلق بالمعتقدات والسلوك، ولكن يكملان بعضهما البعض وتجمع بينهما معاملة ملؤها محبّة في الحياة اليومية. وقد بلغ التباين بينهما في التصرفات والشخصية والتربية حدًا من الوضوح أصبح معه ذلك الاختلاف الجذري، القائم بين القدوتين اللتين أحذو حذوهما في الحياة، بمثابة الأحجية الأشد استعصاء على الطفل الذي كنته. كان هو لاأدريًا في حين كانت هي روحانية، كان يمقت النقود أما هي فكانت تمقت الفقر، كان ماديًا فيما يتعلق بالأمور الأخروية وروحانيًا فيما يتعلق بشؤون الدنيا، أمّا هي فقد كانت تخصّ الآخرة بالروحانية وتسعى وراء المتع المادية في الدنيا. وعلى الرغم من ذلك فلم يبدُ أن التناقض قد باعد بينهما، بل جذب كلًا منهما إلى الآخر، وربما كان السبب هو بذرة الأخلاق الإنسانية، ذلك القاسم المشترك الذي اتفقا معه وجمع بينهما رغم كلّ شيء.

كان أبي يرجع إليها في كل شيء، فتنفذ أمّي إلى دخيلة نفسه من خلال عينيه، كما يُقال، وتُبدي له حبًا عميقًا غير مشروط، يتحدّى ليس فقط العقبات، بل وأي خلاف جذري أو نبأ ناقم أو مُغرض يجيئها به «فاعل خير» حول أبي.

- أحبه كما هو، بكلّ ما فيه، بكل مميزاته وعيوبه، أحبّ حتّى الأشياء التي نختلف حولها - كثيرًا ما كانت تقول لنا أمّي.

كانا يشرعان في تبادل الحديث حول كلّ شيء من وقت لقائهما ظهرًا أو مساءً، أو من لحظة استيقاظهما من النوم صباحًا (بما في ذلك أحلام اليقظة وكوابيس الليل) بحماس صديقين مقربين لم يلتقيا منذ أسابيع. كانا يتبادلان الحديث حول السار والمؤسف من الأشياء التي مرّا بها طوال اليوم دون أن يتوقفا عن الحديث حول كافة الأمور، حياة الأولاد، مشاكل المكتب، الانتصارات الصغيرة والهزائم المستمرة في الحياة اليومية. كان كلٌّ منهما يثني على الآخر وهو بمفرده، ويعلمنا حبّ الخصال المختلفة في الشريك. أحيانًا، ولا سيما في مزرعة "ريونيجرو"، كنت أجدهما في الصباح متعانقين، يتجاذبان أطراف الحديث في الفراش. كان أبي يكتب لها أشعارًا وأغاني حبّ (يجب على الأبناء تلاوتها وإنشادها بمناسبة عيد زواجهما)، فتتكرر نفس الألحان الشعبية المضحكة كلّ عيد ميلاد، ونفس الأغنية الشاعرية كل عيد زواج، تعزفها أختي "مارتا" على الجيتار («لولاكِ لكنتُ ظلّا، لولا حبُّكِ لما كنتُ شيئًا...»). وفي أواخر أيامه بدأ أبي يزرع الورد في المزرعة لسبب بسيط جدًا ذكره في واحد من اللقاءات: «لماذا الورد؟ ببساطة لأن زوجتي "سيسيليا" تحبّ الورد كثيرًا.» وكذلك أمّي كانت تعمل بكلّ تلك الجديّة بدافع الإيثار، حتى لا يضطر أبي للقلق بشأن جني النقود، بل ولكي يستطيع الجود بها كيفما يحلو له دون أن يخطر له أنه بذلك يهمل الأسرة، ولا سيما كي يستطيع المحافظة على استقلاله الفكري في الجامعة، حتى لا يتمكن أحدٌ من إخراسه عن طريق تهديده والضغط عليه بورقة الجوع كما هو شائع هنا إلى حدٍ كبير.

قلت فيما سبق إن أبي كان يميل إلى التنوير الفلسفي، ولكنه كان لاأدريًا فيما يتعلق بالشؤون اللاهوتية. أمّا أمي فقد كانت ولا تزال روحانية، حتى وإن رددت على الدوام أنها في حاجة إلى «إيمان أعظم بكثير» وتتمنى أن تتحلى به. كانت مؤمنة، بل وقوية الإيمان، تواظب على القداس الإلهي يوميًا، كان ذكر

الرب والقديسة العذراء مريم على لسانها دائمًا، كما يُقال. بيد أن تديّنها كان يضمّ عنصرًا حياتيًا على قدرٍ كبير من القوة، يكاد يكون وثنيًا، فلم يكُن أعظم القديسين منزلةً عندها هم قديسو الكنيسة، بل أرواح الموتى من بين أفراد عائلتها، الذين كانت تتطوبهم قديسين تلقائيًا منذ لحظة موتهم دون أن تنتظر إقرارًا أو تصريحًا من الكنيسة. فكلما فقدت نقودًا أو تعذّر عليها إيجاد مفاتيحها أو أصيب أحدنا بمرض، كانت تعهد بالأمر إلى روح العم "خواكين" رئيس الأساقفة، أو روح "تاتا" بعد وفاتها، أو روح أختي "مارتا سيسيليا"، أو روح أمّها بعد وفاة جدتي "بيكتوريا"، وأخيرًا روح أبي منذ اغتياله. ورغم الاهتمام الكبير الذي أولته لتلك الكائنات العلوية غير الملموسة بصفة دائمة، ففي الوقت نفسه لم تعِش أمّي يومًا في تلك الحالة المسماة «نسيان الدنيا والسمو الروحي». على العكس تمامًا، كانت ولا تزال أكثر من عرفت واقعية ورسوخًا على أرض الواقع. تولّت اقتصاد العائلة بيدٍ حازمة (متمسكة دائمًا بالمبدأ الذي لا يمت للمسيحية بصلة، والقائل بأن «ما يحتاجه البيت يحرم على الكنيسة»، وكانت فضلًا عن ذلك أقدر من أبي بكثير على حلّ المشاكل العملية في محيطنا المباشر ومحيط الآخرين إذا أتيح لها الوقت اللازم. في حين كان أبي يرى أن الوفاء بـ«ما يحتاجه البيت» شيء بلا معنى، فهو ليس من الكرم في شيء، بل هو مجرد استجابة لأكثر الدوافع طبيعية وبدائية (وأن الافتقار لها في رأيه يساوي ذلك الانحطاط الفكري المريض المُسمّى بالبخل)، وأن الحديث عن الإحسان لا يجوز مطلقًا ما لم يكُن مُقدّمًا إلى أشخاص من خارج المحيط الأقرب إلينا، وربما لهذا دائمًا ما كان يقرض النقود أو يجود بها، أو يكرّس وقته للمشاريع الأكثر مثالية حتى وإن انطوت على جانب عملي، مثل تعليم الفقراء كيفية غليان المياه أو صناعة المراحيض أو تشييد القنوات وشبكات الصرف الصحي.

ورغم أن الإحسان عند أبي كان غير منقوص في النواحي الجماعية والاجتماعية، ففي الشؤون اليومية والفردية كان نظريًا أكثر منه عمليًا، وبالتحديد في الشؤون الطبية. فكلما قصده فلاح مريض من الأنحاء المجاورة للمزرعة كي يستشيره بشأن مرضه، كانت أمّي هي التي تخرج لمقابلته وتسمع أعراضه وتتظاهر بعرضها على أبي، في حين يبقى هو مكبًا على كتبه في الغرفة، أو جاثيًا أمام شجيرات الورد، بينما تقوم أمّي بتقليد حركات الأطباء متظاهرة بالكشف على المريض، لتكتب له العلاج بنفسها فيما بعد. وإذا سأل أحدهم لماذا لا يمكنه مقابلة «الطبيب» مباشرةً، كانت أمّي تخبره بأنه لا فرق، فلديها خبرة واسعة وتتبع تعليمات زوجها «بالحرف الواحد» (كانت تتظاهر بأنها ممرضة رغم أن معرفتها بالطبّ لم تكُن تتعدى وضع الميكروكروم وتغيير الضمادات وتطهير الترمومتر وإعطاء الحقن).

لم يحبّ أبي ممارسة الطب بشكل مباشر قط، وهو الأمر الذي نتج عن صدمة مبكرة تسبب له فيها أستاذ الجراحة بالجامعة حسبما توصلتُ إليه بعد بزمن طويل. فذات مرّة أرغمه على استئصال مرارة أحد المرضى دون أن يكون قد حصل على قدر كاف من الخبرة بعد، وأثناء العملية الحساسة قام بسدّ قناة الصفراء، فقضى المريض نحبه بعد التدخل الجراحي في غرفة العمليات بأيام قلائل، رجل يبلغ من العمر حوالي أربعين عامًا، بل الأفدح من ذلك أنهم حين رتقوا الجرح كانوا متأكدين من موته بعد وقت قصير. كان أبي طوال عمره أخرق اليدين بكل ما تحمله الكلمة من معاني. كانت قدراته الفكرية فائقة، بلّ أكبر من أن تؤهله ليكون طبيبًا، إلّا أنه كان يفتقر تمامًا لمهارة الجزارين التي يجب على الجرّاح أن يمتكلها بأيّ حال من الأحوال. حتى تغيير المصباح كان يستعصى عليه، فما بالك بتبديل إطار السيارة (كان يقول ساخرًا من نفسه إنه عند حدوث ثقب بالإطارات يضطر للوقوف على جانب الطريق كأي سيدة في

انتظار وصول رجل لتقديم المساعدة)، وما بالك بفحص الكاربوريتور (كاربوريتور... ماذا؟) أو استئصال المرارة بدقّة دون المساس بالصمامات الحساسة التي تمر من هناك. استعصت الميكانيكا على فهمه، وبالكاد كان يستطيع قيادة السيارات الأوتوماتيكية، لأنه تعلم القيادة متأخرًا. وعلى مدار حياته، كلما اضطر لمواجهة العمل البطولي الذي يستلزم الانعطاف إلى طريق ملتوية وسط زحام شديد، كان يفعلها مغمض العينين، وكلما جلس خلف المقود، كان يشعر «بحنين جارف نحو الحافلة» حسب قوله. لم يكن خفيف الحركة أو بارعًا في أي رياضة، وفي المطبخ كذلك كان عديم الفائدة تمامًا، غير قادر على إعداد فنجان من القهوة لنفسه، أو على سلق بيضة في القدر. كان يمقت أن نعرض أنفسنا للمخاطر، فكنت أنا الطفل الوحيد في الحي الذي يركب الدراجة مرتديًا الخوذة (بأمر منه) والوحيد الممنوع من تسلق الأشجار، فلم يكُن أبي يسمح لي سوى بتسلق شجيرة قزمة في الفناء الأمامي للبيت، وأعظم عمل بطولي كان يسمح لي بالقيام به في هذا الصدد هو القفز في الهواء من فوق أكثر الأفرع انخفاضًا، أي من على ارتفاع ثلاثين سنتيمترًا على الأكثر.

تخلّى أبي نهائيًا عن ممارسة عمله على نحو مباشر منذ واقعة موت ذلك الرجل بعد التدخل الجراحي الذي قام به في غرفة العمليات، ما لم أكُن مخطئًا، فلم يشعر بأنه يمتلك الثقة أو المهارة اللازمتين، وآثر الأفرع الأعمّ من علوم الطبّ والتي تسمّى بالنظافة، الصحة العامة، علم الوبائيات والطب الوقائي أو الاجتماعي. كان يمارس الطب من منظور علمي صرف، دون أي اتصال مباشر بالمرضى أو الأمراض (كان يُفضّل الوقاية منها، من خلال أيام بلا نهاية قضاها في التطعيم أو تعليم المعايير الأساسية للنظافة)، بل وربما كان السبب حساسية مُفرطة حملته على النفور من الدماء، الجروح، الصديد، البثور، الآلام، الأحشاء، السوائل، الإفرازات، وكل ما ارتبط بالممارسة اليومية لمهنة الطب عند اتصالها المباشر بالمرضى.

على الرغم من اعتراف أبي مع مرور الأيام بكونه لاأدريًا، أو مؤمنًا بتعاليم يسوع الإنسانية، أو ملحدًا على الأرض (يهتدي على متن الطائرة بصفة مؤقتة ويرسم علامة الصليب عند إقلاع الرحلة)، أو ملحدًا عن اقتناع من أولئك الذين يسخرون من الكهنة ويجرون أبحاثًا علمية مرفقة برسوم تنويرية حول أشدّ الخرافات الدينية سخفًا، فقد كان في الوقت ذاته يعيش مُعذبًا بالحياة الاجتماعية والروحية. كانت تنتابه نوبات مثالية جارفة وتستمر معه طوال سنوات يكرسُها لقضايا ميؤوس منها، كالإصلاح الزراعي أو الضرائب على الأطيان الزراعية أو توفير مياه الشرب أو التطعيم للجميع أو حقوق الإنسان، وهي آخر نوبات الشغف الفكري التي انتابته وقادته إلى التضحية الأخيرة. كان غارقًا في هاوية من الغضب والسخط سببها الظلم الاجتماعي، ويعيش بوجه عام منشغلًا بشؤون مهمة، تلك الشؤون البعيدة كلّ البُعد عن الحياة اليومية ويغلب عليها همّ تغيير المجتمع وتحوّله التقدمّي.

كان يتأثر إلى حدّ البكاء بسهولة، ويطرب للشعر والموسيقى، حتّى الموسيقى الدينية، وكأنه سمو جمالي مقصور على النشوة الروحانية. وقد كانت الموسيقى تحديدًا هي أفضل علاج له في أوقات الأسى والإحباط، يستمع إليها بأعلى صوت، وحيدًا في المكتبة. كان في الوقت ذاته مناديًا بالمذهب الحسّي، عاشقًا للجمال (في الرجال والنساء وفي الطبيعة والأعمال التي أبدعتها الإنسانية)، غير مكترث بالمتاع المادية لهذا العالم. كان يشبه بعض التبشيريين المسيحيين في كرمه الذي بدا وكأنه بلا حدود، أو بمعنى أصحّ يقف عند حدود الإحساس بآلام الآخرين بيديه. كان يتلو أبيات "جارثيا لوركا" قائلًا «لا أود أن أراها، لا أود أن أراها»، بينما يكاد يبدو له العالم المادي بلا وجود، لولا الحدّ الأدنى من القوت الذي استحوذ على فكره، مثل ضرورات الحياة التي يجب توفيرها لأي إنسان حتى يتسنى للجميع التفرغ للأمور المهمة بحقّ، وهي الإبداعات العلمية والفنية

والروحية للمعرفة السامية. كان يرى أن أعجب الأشياء وأجملها هي الاكتشافات والتقدمات العلمية، وكذلك الإبداعات الفنية البارزة في الموسيقى والأدب. لم تكُن ثقافته البصرية أو المصورة واسعه إلى هذا الحدّ، بيد أنني أذكر جيدًا مدى الشغف الذي كان يُبديه وهو يقرأ لي كتاب «قصة الفن» لـ"جومبريتش"، ويترجمه في نفس الوقت، وهو الكتاب الذي ولعنا به لدوافع مختلفة، ففي حين كانت دوافعي جنسية، شُغف هو بالكتاب لأن مؤلفه يتّسم بمزايا اكتشفتها في وقت لاحق، فهو ذو عقليّة هندسية صافية، مُنظّم، دقيق، يعرف كيف ينقل جماليات الفن البديعة ببساطة وشغف في آن واحد. يمكنني القول أن قراءاته كانت متعددة، غير منتظمة، وفي كافة المجالات. وبوجه عام، ازدحمت الآلاف من كتبه التي ما زلت أحتفظ بها بالعلامات والملاحظات، دون أن يذهب في أغلب الأحيان لأبعد من أول مائة أو مائة وخمسين صفحة، وكأنه يصاب بشيء من خيبة أمل أو يفتر حماسه فجأةً، أو على الأرجح، كأن اهتمامًا مفاجئًا آخر قد حلّ محلّ سابقه. كان يقرأ القليل من الروايات والكثير من كتب الشعر، بالإنجليزية والفرنسية والإسبانية. كان يؤمن بإخلاص بأن أفضل الشعراء الكولومبيين هو "كارلوس كاسترو سابيدرا" ويردّد ذلك كل أسبوع تقريبًا. غير أنه قلّما صرّح بأن الأخير كان أعزّ أصدقائه أيضًا، وأنه كثيرًا ما قضى ليالي السبت برفقته في المزرعة الخاصة به بـ"ريونيجرو"، على مقربة من مزرعتنا، بينما يتجاذبان أطراف الحديث ويحتسيان الشراب بمختلف النكهات. «أحتسي القليل لأنه يعجبني كثيرًا»، كان يعلق قائلًا عند عودته من سهراته مع "كارلوس"، والتي لم تتجاوز الحادية عشرة مساء قط.

كان مهتمًا بالفلسفة السياسية وعلم الاجتماع ("ميكيافيلّي"، "ماركس"، "هوبز"، "روسو"، "فيبلين")، والعلوم الدقيقة ("راسل"، "مونو"، "هكسلي"، "داروين")، والفلسفة (كان عاشقًا لروايات "فولتير" العقلانية

ولمحاورات "أفلاطون" ويحبّ قراءتها بصوت مسموع)، إلّا أنه كان يقفز من هذا إلى ذاك كيفما اِتّفق، كالهواة، وربما كان هذا تحديدًا هو سرّ سعادته الغامرة. فكان يقع في غرام "شكسبير" على مدى شهر، ثمّ "أنطونيو ماتشادو" أو "جارثيا لوركا" في الشهر التالي، ثمّ لا يترك "ويتمان" أو "تولستوي" طوال أسابيع. كان رجلًا تجتاحه نوبات حماس متّقدة وشغف خلّاب، إلّا أنها لا تدوم طويلًا، ربما بسبب الحرارة التي يبديها في البداية، والتي يستحيل أن تدوم أكثر من شهرين أو ثلاثة.

ورغم كلّ الصراعات الفكرية التي خاضها وتفتيشه المتأنّي عن ليبرالية متنورة ومتسامحة، كان أبي يعرف أنه ضحية، وأنه يمثل رغمًا عنه مساوئ التعليم البالي الراكد التعيس الذي تلقاه في القرى النائية حيث تربّى. «وُلدت في القرن الثامن عشر، وقريبًا أتمّ عامي المائتين»، كان يقول كلما تذكر طفولته. كان يرفض العنصرية رفضًا عقلانيًا ويدفع في سبيل ذلك بحجج ملتهبة (بذلك الحماس البالغ وكأنه يخشى شبح عكس ما يقول، مبينًا بذلك الإفراط في الحماس أنه لا يناقش محدثه فحسب، بل يناقش نفسه كذلك، ليقتنع في دخيلة نفسه، ويقاوم شبحًا داخليًا يعذبه)، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يشقّ عليه في الواقع أن يقبل بنفس هادئة ارتباط إحدى أخواتي بشخص ذي بشرة أدكن من بشرتنا بعض الشيء، وأحيانًا كان يسهو ويتحدث بزهو عظيم عن عيني جدي، أي أبيه، الزرقاوين أو الشعر الأشقر لبعض أبنائه وأبناء إخوته وأحفاده. على العكس كانت أمّي في تعاملها المباشر معهم أكثر هدوءًا ومودةً وإنصافًا من أبي، رغم اعترافها علانية بعدم إعجابها بذوي البشرة الداكنة أو من تغلب عليهم ملامح السكان الأصليين، وإن كانت تجهل السبب («بسبب قبحهم» كانت تقول في نوبات صراحة مفاجئة). كانت "تاتا"، والتي سبق لها وأن عملت كمربية لأمّي وجدتي، مزيجًا من الزنوج والسكان الأصليين، وربما يرجع الفضل لبشرة

"تاتا" في شعور أمي بحنان صادق نحو الزنوج والسكان الأصليين، وألفة لا يشوبها أي ضيق أو نفور في الاتصال المباشر بهم.

ولهذا كلّه، بدا الأمر وكأن ما يقول به كلٌ منهما لا يتفق وتصرفاته في الواقع أحيانًا، فيسلك اللاأدري مسلكًا روحانيًا وتتصرف الروحانية كالماديين في بعض مناحي الحياة، وأحيانًا العكس تمامًا، فيتصرف المثالي بلا مبالاة وعنصرية وأنانية، وتتصرف المادية العنصرية وكأنها مسيحية بحقّ، الناس عندها جميعًا سواء. وأفترض أن هذا هو سبب الشعور بالحبّ والإعجاب الشديد المتبادل بينهما، فقد كانت أمّي ترى في أفكار أبي المتّقدة السخيّة سبب وجودها، بينما يرى أبي في أفعالها تجسيدًا عمليًا لأفكاره. وأحيانًا العكس، فتراه أمّي يتصرّف كالمسيحي الذي تود هي أن تكون في الحياة العملية، أمّا هو فيراها تحلّ المشاكل اليومية كالشخص النافع العقلاني الذي كان يودّ هو أن يكون.

أنا على قناعة بأن أبي، إلى حدٍ ما، استطاع أن يتفرغ لنوبات المثالية، والرغبات المفاجئة في تقديم المساعدة والعمل السياسي والاجتماعي، بعد أن تمّ حلّ المشاكل اليومية في البيت، والفضل يرجع للحسّ العملي الذي تتمتع به أمّي. وقد أخذت تتأكد صحّة هذا الأمر أكثر فأكثر بمرور الوقت، فبالتقشّف والاجتهاد المتواصلين جعلت من مكتبها ببناية "لا سيبا" شركة إدارة عقارية متوسطة الحجم تدير المئات من البنايات، ويعمل فيها الآلاف من الموظفين، عينتهم وتدفع رواتبهم هي وأخواتي اللائي انتهى بأغلبهن المطاف بالعمل هناك، إلى جوارها، وكأنهن كواكب تدور في فلك نجم له قوّة جذب هائلة.

أهمّ من القدرة على شراء أشياء، كان الهدف من عمل أمّي هو أن يستطيع أبي ممارسة حياته دون أن يضطر للانشغال بالتكفل باحتياجات البيت. ولقد كان شيئًا عظيمًا في نظر أمّي أنه بفضل الرخاء الاقتصادي الذي ساهمت به، تسنّى

لأبي الكلام والتصرف دون أدنى حساب للراحة في العمل أو الظروف المادية، ودون أن يضطر للبحث عن عمل بديل في بلد آخر، كما حدث في بداية زواجه.

كانت تشعر نحوه بشيء من الذنب لأنها اضطرته للعوده إلى البلاد في أواخر الخمسينيات، في وقت كان يشغل فيه منصبًا مضمونًا براتب مجزي في منظمة الصحة العالمية، فأصرّت هي على العودة لرغبتها في قضاء «السنوات الأخيرة» من حياة جدتي بالقرب منها (ظلّت على قيد الحياة لثلاثة عقود أخرى، حتى سن الثانية والتسعين).

كانت أمّي ترى أنه ليس هناك سوى مكان واحد للعيش، كولومبيا، وليس هناك سوى طبيب نساء ماهر واحد، الدكتور "خورخي إيناو بوسادا"، فالمرة الوحيدة التي استشارت فيها طبيب نساء آخر بواشنطن، عند ولادة أختي الكبرى، أصيبت بحمّى النفاس وشارفت على الموت. كان الدكتور "إيناو بوسادا" يتمتع بالقدرة السحرية على حدس جنس المولود قبل الولادة حتّى قبل اختراع التصوير بالموجات فوق الصوتية بزمن طويل، كان يقول للنساء الحوامل بجدية شديدة عند وضعه السماعة فوق بطونهن: «سيكون ولدًا»، أو العكس، «ستكون بنتًا»، ثمّ ينبههن بأنه سيدوّن ذلك في مفكرته. وعند ميلاد الطفل بعد ذلك، في حال صدق حدسه كان يحتفل مع الأمّ بملكة علم الغيب التي يتمتع بها، أما إذا حدث العكس، كان يقول للأمّ إنها مجنونة، وإنه لم يقل هذا وسوف يثبت لها، فقد دوّن توقعاته في المفكرة، وحينئذ يُبرز المفكرة ويعرضها على الأمّ. ولكن أمّي التي أنجبت أربع بنات على التوالي كشفت حيلته، فقد كان يدوّن في المفكرة عكس ما يقول. وقد خلق بينهما انكشاف تلك الحيلة نوعًا من أنواع التواطؤ، فكانت أمّي كلما حبلت خارج البلاد تترك أبي في الشهر السادس أو السابع وتعود إلى "ميديّين" حتّى تحظى برعاية الدكتور "إيناو بوسادا" وتنجب ابنة كولومبية أخرى. وعندما عادا أخيرًا للإقامة في كولومبيا

بصفة نهائية، بعد أن تغلّب إصرار أمّي على إرادة أبي في نهاية المطاف، استطاع أبي أن يتقاضى بالجامعة نفس المبلغ الذي كان يتقاضاه بمنظمة الصحة العالمية، الفارق الوحيد أن راتبه هناك كان بالدولار أمّا هنا فبـ"البيزو"، ثلاثة آلاف في كلٍ من الجانبين، وربما لهذا تحديدًا شعرت أمّي بمسؤولية كبيرة تدفعها للعمل وكسب المال الإضافي حتى يتساوى المبلغ الذي يجنياه فيما بينهما بكولومبيا مع ما كان يتقاضاه وحده بالخارج فيما مضى.

فكان من شأن الأمان الاقتصادي الذي وفرته أمّي للأسرة أن يسمح لأبي بالتمسك باستقلاله الأيديولوجي والفكري قلبًا وقالبًا. وفي هذا الصدد أيضًا تلاقت المثالية بالعملية طوال الوقت، في تكامل وتناغم كان في نظرنا بمثابة صورة الزوجين السعيدين التي قلّما نجدها في هذه الحياة. وبسبب هذا المثال الذي قدماه لنا، أصبحنا نعلم أنا وأخواتي حاليًا أن ثمة دافع واحد جدير بأن نسعى من أجله إلى كسب شيء من النقود: كي نتمكن من المحافظة على استقلالنا الفكري والدفاع عنه، بأي ثمن، دون أن يستطيع كائن من كان إخضاعنا للابتزاز الوظيفي الذي قد يحول دون أن نكون أنفسنا.

-21-

عند عودة أبي من عمله بالجامعة، كان يصل البيت بواحد من الاثنين، مزاج رائق أو متعكر. فإذا عاد بمزاج رائق، كما كان يحدث غالبًا لكونه شخصًا سعيدًا معظم الأوقات، كانت تتردد ضحكاته المجلجلة الصاخبة الرائعة منذ لحظة دخوله، وكأنها دقات أجراس الضحك والبهجة. يدعونا أنا وأخواتي صائحًا، فنخرج جميعًا لتلقّي قبلاته المفرطة، كلماته المبالغ فيها، مجاملاته المسهبة، وأحضانه المطولة. أمّا إذا عاد بمزاج متعكر، فقد كان يدخل صامتًا ويغلق على نفسه باب المكتبة خلسة، ثمّ يشغل الموسيقى الكلاسيكية بأعلى صوت ويقرأ جالسًا في مقعده القابل للطيّ، وبابه مغلق بالمفتاح. بعد ساعة أو ساعتين من الكيمياء الغامضة (كانت المكتبة هي غرفة التحولات الكيميائية)، كان يخرج من مكتبه مشرقًا، سعيدًا، على الرغم من أن ذلك الأب قد عاد إلى بيته عابسًا، رماديًا، قاتمًا. كانت القراءة والموسيقى الكلاسيكية تردّ له البهجة والضحكات المجلجلة والرغبة في معانقتنا والتحدُّث إلينا.

دون أن يقول كلمة واحدة، دون أن يرغمني على القراءة ودون أن يعظني حول مدى أهمية الموسيقى الكلاسيكية كغذاء للروح، فهمت بمجرد مراقبته ورؤية التأثير الطيب الذي كانت تتركه الموسيقى والقراءة في نفسه، فهمت أن ثمّة هدية عظيمة قد نتلقاها في حياتنا، ليست باهظة الثمن، وتُعدّ في متناول اليد: الكتب وأسطوانات الموسيقى. فكان ذلك الرجل الكئيب متعكر المزاج، الذي وصل من الشارع ورأسه ممتلئ بالآثار الرديئة والمآسي وظُلم الواقع، يستعيد بهجته وأفضل حالاته على أيدي كبار الشعراء والمفكرين والموسيقيين.

-22-

بعد ذلك، أو قبل ذلك، لم أعُد أعرف قبل أم بعد... عندما تركوه وشأنه طوال سنوات سعيدة، استطاع أبي التفرُّغ التام لعمله. حينئذ أسسّ الكلية الأهلية للصحة العامة وكان أول من شغل منصب المدير بها، بدعم من الحكومة الوطنية إلى جانب بعض المساعدات المادية من مؤسسة "روكفيلر" (في حين أبدى اليسار الأحمق الأصولي اعتراضه على ذلك الاختراق الإمبريالي، الذي لم يتعد في الواقع كونه عملًا خيريًا من النوع الصالح، بدون أي مقابل، باستثناء لفتة امتنان بسيطة ولوحة وخطاب). ومن موقعه كأستاذ ومسؤول ببعض المناصب الحكومية (لم تكن مناصب رفيعة المستوى قط، ولا على قدرٍ كبير من الأهمية ولا براتب مجزي، ولكن هذا آخر ما شغله) استطاع نشر معرفته العملية في كافة أرجاء البلد، ولاقى نجاحًا كبيرًا خلال تلك السنوات في الكثير من الأعمال التي باشرها. فشهد مؤشر الصحة ومعدل وفيات الأطفال تحسنًا، أخذ يسير بخطى ثابته، وإن كانت بطيئه، نحو المعدل الأمثل بالنسبة للدول الأكثر نموًا، كما شهد توزيع مياه الشرب تحسنًا، وأتت الحملات القومية المكثّفة للتطعيم ثمارها. كما قام معهد الإصلاح الزراعي المُسمّى "إنكورا"، حيث عمل أبي في عهد حكومة "ييراس ريستريبو"، بتوزيع بعض الأراضي الفاخرة على الفلاحين، وساعد على تأسيس المعهد الكولومبي لرعاية الأسرة، وعمل على شقّ القنوات وإنشاء شبكات الصرف في القرى والأقاليم والمدن.

عقد أبي نوعًا من أنواع التحالف ذي الطابع البراجماتي مع أحد القادة السياسيين المحافظين، والذي كان طبيبًا بدوره، "إجناسيو بيليس إسكوبار"،

وقد استطاع هذا الثنائي تحقيق إنجازات كبيرة، إلى جانب أنه لطّف من الريبة التي يشعر بها أبي نحو اليمين (مع "إجناسيو" لن يكون الأمر بهذا القدر من الخطورة أو الشيوعية)، وكذلك خفّف من الريبة التي يكنّها "بيليس" لليسار (مع "إكتور"، لن يكون الأمر رجعيًا إلى هذا الحدّ). تفرّغ لشغفه، لإنقاذ الأرواح، وتحسين الاحتياجات الأساسية للصحة والنظافة: مياه شرب، حصّة من البروتين، إدارة النفايات وسقفٌ يقي من المطر والشمس.

سارت الحياة على وتيرة سعيدة، دون مخاوف ذات أهمية، بينما شركة أمّي في أوج نموّها. تمرّ الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، كلها متشابهة، الأبناء متفوقون في دراستهم ويجتازون كلّ الامتحانات في المدرسة بنجاح ودون مشاكل، يستيقظ أبي وأمّي من نومهما مبكرًا للذهاب إلى العمل بغير شكوى، دون أن أرى أو أسمع بادرة شكّ أو كسل ولا مرّة واحدة، فقد كانا يشعران بأنهما نافعان وناجحان في عملهما، بل وأحسّ كلٌّ منهما بأنه قد حقّق ذاته، كما كان يقال حينئذ. كنّا نذهب إلى "ريونيجرو" خلال العطلات الأسبوعية، ما لم تكن هناك حملات في الأحياء الفقيرة، وهناك كنت أتمشى طويلًا برفقة أبي، الذي يتلو عليّ أثناء سيرنا قصائد من الذاكرة، ثم يقرأ لي تحت ظلّ إحدى الأشجار، "مارتين فيرّو" أو «الحرب والسلام» أو قصائد "باربا خاكوب"، بينما تلعب أمّي وأخواتي الورق أو يتجاذبن أطراف الحديث بهدوء حول العُشّاق والغراميات والخُطّاب، بشيء من التناغم الصافي الذي بدا وكأنه قد يدوم أبدًا.

عاد مكتب أمّي علينا برخاء لم نعرفه من قبل، فأصبحنا نذهب جميعًا في سبتمبر إلى "كارتاخينا" قاصدين بيت زوج خالتي "رافا" وخالتي "مونا"، أخت أمّي التي تزوجت من مهندس معماري من الساحل، ناجح وسخيّ جدًا وعلى جانب عظيم من الاجتهاد. كان زميل عمتي في الجامعة، من أسرة تُعدّ هي

الأمثل بالنسبة لأسرتنا، فقد كان نسل كل من الأسرتين عكس الآخر على نحو متناسق، إذ كان لهم ستة أبناء مثلنا، ولكنهم خمسة أولاد وبنت واحدة.

كان أبي سائقًا مريعًا، غير قادر على ملء الرادياتير، ناهيك عن تغيير إطار السيارة، ولذا فقد كانت أمّي تسافر مع أخواتي في شاحنة عبر الطريق البرّي، فيتعرضن للمعاناة بسبب غبار الطريق طوال 28 ساعة هي مدة الرحلة، تقسَّم على يومين كلاهما شاق، في حين نسافر أنا وأبي بالطائرة، وكأنها أكثر الأمورَ طبيعية في هذا العالم، فيترك الذكور أصحاب الامتيازات النساء يخضن مخاطر السفر ومغامراته على الطريق البرّي، في حين نسافر في رحلة وثيرة بالطائرة تستغرق ساعة واحدة للوصول إلى وجهتها، وكأننا نصبنا ملكين على الكون. ظلم وفظاعة لم أدركهما سوى الآن، وإن بدا لي في حينها أكثر الأمور طبيعية في هذا العالم، فقد كان من المعروف في بيتي أن النساء هن الشجاعات، هن صاحبات الحسّ العملي، القادرات على كل شيء، ومن يواجهن الطريق بعزم وسعادة بينما يتدلل الرجال غير قادرين على خوض الحياة الواقعية ومصاعب الحياة اليومية، بلا فائدة بمعنى أصحّ، لا يصلحون سوى للخطابة حول الحقيقة والعدالة. كنا سخيفين فيما يتعلق بهذا الشأن، وبأشياء أخرى كثيرة لم تختفِ تمامًا بعد، بيد أننا لم ننتبه إليها في كل الأوقات.

كانت سنوات سعيدة بحقّ، إلّا أن السعادة مصنوعة من مادة خفيفة إلى الحدّ الذي تذوب معه في الذكرى بسهولة، وتعود، إذا عادت إلى الذاكرة، مشوبة بشعور لاذع الحلاوة، نفرت منه دائمًا لأنه عديم النفع، ويضرّ بالعيش في الحاضر، ألا وهو الحنين. ورغم ذلك تجدر الإشارة إلى أن المآسي اللاحقة لا يمكنها أن تلطخ تلك الذكرى السعيدة، ولا أن تصبغها بالتعاسة، كما يحدث أحيانًا لبعض الأشخاص الذين يصابون بمرض النقمة على الدنيا، ويمحون من ماضيهم حتى الأوقات التي لا يساورهم شكٌ في كونها أوقات البهجة وريعان

الشباب، بسبب حوادث لاحقة شديدة الحزن أو تنطوي على ظلم. أعتقد أنه لا يمكن لما حدث لاحقًا أن يشوب تلك السنوات السعيدة بالمرارة.

وحتى لا أسقط في الحنين ذي الحلاوة اللاذعة ولا النقمة التي تصبغ كل شيء بالكآبة، يكفي القول بأننا كنّا نمضي شهرًا كاملًا من السعادة في "كارتاخينا"، بل وأحيانًا كنت أقضي فترةً تصل إلى شهر ونصف أو أكثر، تتخللها النزهات على متن الزورق الخاص بزوج خالتي "رافا"، والمسمّى "لا فيوريلّا"، حيث كان يأخذنا إلى "بوكاتشيكا" لالتقاط المحار وأكل السمك المقلي والـ"باتاكون" والـ"يوكا"، أو إلى جزر "روساريو" حيث عرفت طعم الاستاكوزا، أو يأخذنا إلى شاطئ "بوكاجراندي" وحمام السباحة الخاص بفندق "كاريبي" سيرًا على الأقدام حتى تعلو بشرتنا سُمرةٌ نحسُّ معها ألمًا عذبًا تتسبب فيه الحروق الخفيفة بالأكتاف، ثمّ تتقشّر البشرة بعد أيام ليظهر فوقها النمش الذي يبقى إلى الأبد، أو يصحبنا للعب كرة القدم مع أبناء خالتي في المنتزه الواقع أمام كنيسة "بوكاجراندي" أو لعب التنس في نادي "كارتاخينا" أو تنس الطاولة في بيتهم أو التسابق بالدراجة أو الاستحمام تحت وابل لا يوصف من الأمطار الغزيرة التي تتساقط في "لا كوستا"، أو كنت أستغل هطول الأمطار والقيلولة لقراءة أعمال "أجاثا كريستي" الكاملة، أو روايات "آين راند" العظيمة الأخّاذة (أذكر أنني كنت أخلط بين بطولات المهندس المعماري بطل رواية «المنبع»، وبطولات زوج خالتي "رافاييل سيبيدا") أو قراءة ملاحم "بيرل س. بوك" اللانهائية، مستلقيًا على سرير معلق لطيف في مكان ظليل بشرفة البيت المطلّة على البحر بينما أحتسي "كولا رامون" وأتناول الفطائر الصينية أيام الأحد، والأرز بجوز الهند وسمك الدنيس أيام الإثنين، والكبيبة السورية-اللبنانية أيام الأربعاء، وشرائح اللحم أيام الجمعة، والـ"أريبا" بالبيض، الطبق الأشهى، الذي كان يصل صباح السبت طازجًا تتصاعد منه الأبخرة، من قرية "لورواكو" القريبة، حيث الوصفة الأشهى للـ"أريبا".

كنا نعتقد أن تصميم البيت الحديث الرائع الذي شيَّده زوج خالتي مطلًا على الخليج أفضل من البيوت التي صممها "فرانك لويد رايت". كنّا نراقب وصول عابرات المحيط الأطلنطي الإيطالية العملاقة ("فيردي"، "روسّيني"، "دونيتسيتّي")، ورحيل السفينة البرّاقة "جلوريا" التي دشّنها الشاعر "جونسالو أرانجو" حديثًا، لتقوم بجولتها حول العالم فاردة أشرعتها البيضاء لنسيم الكاريبي العليل، أو سفن الحرب القاتمة تقطع طريقها ببطء من وإلى القاعدة البحرية بمدافعها المنذرة بالشرّ المصوبة إلى الخواء. في ذلك البيت الفسيح الذي يغمره النور، ويلطِّف جوه نسيم البحر، كانت تنساب الموسيقى الكلاسيكية دائمًا بأعلى صوت، تتردد في كافة أرجاء المكان، فقد كان زوج خالتي "رافا" ولا يزال من عشّاق الموسيقى، ولقد رأيته طوال حياتي محاطًا بهالة من الآلات الموسيقية أو مُخلفًا وراءه أثرًا سماويًا. فضلًا عن أنه كان ولا يزال عازف كمان يبلغ من البراعة حدًّا استطاع معه تسديد المصاريف الدراسية في كلية الهندسة المعمارية بـ"ميديّين"، ليس بمساعدة والديه المفلسين، بل بالعزف على الكمان في المآتم والأفراح والسهرات وحفلات المجتمع.

ثمَّة أوقات في الحياة تمرُّ بشيء من السعادة المتناغمة، أوقات بلون البهجة الرقيق، وأكثر تلك الأوقات صفاءً في ذهني هي تلك السنوات، تلك الإجازات التي قضيتها مع أبناء خالتي المقيمين بالساحل ويتحدثون الإسبانية بلهجة أعذب وألطف من لهجتنا الجبلية القاسية، أبناء خالتي الذين عُدنا للقائهم مرات قليلة منذ حلّت بنا المصائب، وكأننا نخجل من حزننا، أو كأنهم لم يرغبوا في إظهار سعادتهم الباقية لم تزَل من باب الرصانة، ففي دخيلة أنفسنا قد حلّ أسى قاتم محلّ بهجة الماضي، ولازمتنا ريبة نستشعرها تجاه الناس والوجود، ومرارة يصعب محوها لا تمت بصلة لذلك اللون المبهج الذي اصطبغت به ذكرياتنا.

أوشكت أولى المآسي أن تصبح حقيقة بسبب خطأ من جانبي، إلّا أنها لم تقع بفضل شجاعة طفل أسود لم أعرف اسمه يومًا، وإن كان يجب عليّ أن أظلّ ممتنًا له طوال حياتي، فله يرجع الفضل في أنني لم اضطر للشعور بالذنب بسبب موت أدّى جُبني إلى وقوعه. فقد ذهبنا على متن "لا فيوريلّا" لزيارة عائلة تمتلك استراحة في جزيرة "بارو". كان قد سبق لي وأن تعلمت السباحة على يد "تورّيس" الأسود، مدرب حمّام سباحة في فندق "كاريبي"، مدرب عملاق له قامة تمثال، وعلى مدى أسابيع قام بتعليم الأطفال الأكبر سنًا بيننا السباحة الحرّة وسباحة الصدر والقفز واستنشاق الهواء عبر الفم وإخراجه من الأنف وتحمُّل خفقات الذراعين فوق المياه ومدّ الساقين وإبقاء الجسد في وضع أفقي حتى تنقطع أنفاسنا من التعب بينما نقطع حمام السباحة كاملًا جيئة وذهابًا بلا توقف، استمر استمر استمر، مرة أخرى، وأخرى، كان يشجعنا "تورّيس" الأسود، تمثال الأبنوس ذو رداء السباحة الأبيض الدقيق، كان يرغمنا على الاستمرار حتى نغطس من الإنهاك، غير قادرين على ضرب المياه بأذرعتنا مرة أخرى، ولا مرّة واحدة، إلى الحدّ الذي يكاد يضطر معه لإخراجنا جذبًا من شعر رؤوسنا. بيد أن مثل ذلك التمرين المبرح لم ينفعني بشيء كما تأكّد لي تلك الأمسية على ظهر الجزيرة.

كان قد تملَّك منا الضجر خلال زيارتنا الطويلة إلى "بارو"، وبعد الغداء، بينما أخذ الكبار يتجاذبون أطراف الحديث حول السياسة في بهو المنزل، ذهبت وأختي الصغيرة إلى المرسى لمشاهدة البحر بعد أن لفحتنا حرارة الموضوع وحرارة الطقس، ودون أن يكون لدينا الكثير لنفعله أخذنا نقفز من الزورق إلى المرسى ومن المرسى إلى الزورق. فأخذ الزورق يبتعد تدريجيًا بينما ترتجف الحبال التي تشدُّه إلى المرسى، فتزداد القفزة بُعدًا وصعوبةً شيئًا فشيئًا، وكلما

اشتدّ الخطر صار التحدّي أكبر. ربما كنت أتحدّى أختي لأنني أكبر سنًا وأطول قامةً، فالفوز عليها سهل جدًا.

وفي واحدة من تلك القفزات لم تبلغ "صول" الزورق بقدميها وسقطت في البحر بين المرسى وجسم المركب، دون أن تكون قد حضرت دروس السباحة مع "تورّيس" الأسود. مكثتُ فوق ألواح المرسى أراقبها وقد تجمدت في مكاني. رأيت رأسها يغطس في المياه بينما تتصاعد فقاقيع الهواء دفعة تلو الأخرى من الجسد الغريق، وكأنه قرص فوّار، ثم يعود شعرها الأشقر ورأسها إلى الظهور لوهلة، ترتسم فوق وجهها علامات الهلع، تتوسل عيناها الزائغتان، تسعل بينما تتنفس عبر فمها القليل من الهواء مرة أخرى في يأس، ولكنها تغطس للتو من جديد، وتحرِّك ذراعيها كالمجنونة، تختنق، لعلّها كانت في السادسة من عمرها على الأكثر، وأنا في التاسعة، كنت أعرف جيدًا أنه يجب عليّ القفز إلى المياه على الفور لإخراجها إلّا أنني تجمدت في مكاني، أراقبها فحسب، وكأنني أشاهد فيلم رعب، غير قادر على الحركة، وقد تملك من جسدي الجُبن في أبشع صوره، غير قادر على القفز لنجدتها، غير قادر حتّى على الصياح لطلب المساعدة، وما كان أحدٌ ليسمعني نظرًا لصخب البحر وبُعد البيت الواقع على مسافة مائتي متر من المرسى، غارقًا في النباتات والنخيل. لم تعد أختي الصغيرة تخرج من المياه بالكاد، في حين بدأ الزورق يدنو إلى المرسى من جديد مما قد يتسبب في أن تصطدم رأسها وتنسحق تحت أكداس الخشب، أمّا أنا فواصلت المراقبة، متجمدًا، متأكدًا من أنها ستغرق، أرتجف من الخوف ساكنًا، أخرس، في حين تنازع هي الموت. وفجأة، ودون أن أعرف من أين أين برزت، مرّت بقعة سوداء عارية كالخيال من أمامي، سهم داكن اخترق المياه وخرج حاملًا الطفلة الشقراء بين ذراعيه. كان طفلًا في نفس عمري، بل أصغر قليلًا، فقد كان أقصر منّي قامةً، ونجح في إنقاذها. في تلك اللحظة بدأ يصل الكبار عدوًا من البيت،

صائحين في ذعر، فقد ساد الهرج والمرج في الكوخ الخاص بالزنوج المجاور للبيت الرئيسي. أمّا أنا فمكثت هناك، متجمدًا، أراقب أختي تسعل وتتقيأ المياه وتبكي وتتنفس مرة أخرى، معانقةً أمي، إلى أن أمسك أبي بكتفيّ، ثمّ مال عليّ متفحصًا عينيّ وقال:

- لماذا لم تفعل شيئًا؟

قالها بلهجة محايدة، فاترة، وبصوت خفيض للغاية. لم يكن حتى توبيخًا، بل تأكيدًا على حزنه وخيبة أمله القاتمة: لماذا لم تفعل شيئًا؟ لماذا لم تفعل شيئًا؟. وما زلت لا أعرف لماذا لم أفعل شيئًا، أو بالأحرى أعرف أنه بسبب الجُبن، فقد خفت أن أغرق بدوري في حال قفزت لنجدتها، بيد أنه كان خوفًا بلا مبرر، فقد أثبت لي ذلك الطفل الأسود أنه يكفي عمل شجاع، ثانية واحدة، لفتة حاسمة، كي تستمر الحياة ولا تتحول إلى مأساة مريعة. ورغم أن أختي لم تغرق، فقد ظلّ معي دائمًا ذلك الإحساس العميق، والظنّ المخيف بأنني قد أجبن في حال وضعتني الحياة في ظروف حيث يجدر بي أن أثبت نفسي.

-23-

لعلّ أبي كان يرمي إلى تهذيب طباعي عندما قرر بعد تلك الفترة بوقتٍ ليس بطويل، ربما عام أو عامين، أنه قد حان الوقت كي أتعرف على جثمان ميّت. وقد سنحت المناسبة عندما تلقى اتصالًا ذات فجرٍ، طُلب منه فيه التوجه إلى مشرحة "ميديّين" للتعرّف على "جون جوميس"، فتى مصاب بإعاقة ذهنية أردته سيارة قتيلًا على الطريق السريع، وهو الابن الوحيد لـ"أوكتافيا"، إحدى عمّات أبي. وقبل خروجه لإنهاء الإجراءات، قرّر أبي إيقاظي قائلًا:

- سنذهب إلى المدرّج، أرى أن الوقت قد حان كي تتعرف على ميّت.

ارتديت ملابسي وأنا أكاد أطير من السعادة، وكأنني ذاهب لقضاء وقت مرح، فقد سبق وأن طلبت منه أن يُقدّمني إلى عالم ما لم يعُد موجودًا منذ أمد بعيد. ذهبنا بمفردنا، بيد أن الأمر لم يرُق لي منذ لحظة دخولنا إلى مشرحة "إل بيدريجال" بجوار مدافن "أونيبيرسال". اكتظّت القاعة بالجثامين، إلّا أنني لم أرِد تدقيق النظر في أيٍّ منها، فضلًا عن أن معظمها كان مسجى بالملاءات. فاحت في المكان رائحة الدماء، والمجزر، والفورمول، والتعفّن. أخذني أبي من يدي إلى حيث أشار الطبيب الشرعي لوجود المُشتبه في كونه "جون". وبالفعل كان هو "جون"، فعرض الطبيب على أبي أن يحضر التشريح. وهي ذكرى ليست حاضرة بصفاء في ذهني. أرى منشارًا يبدأ في قطع الجمجمة، أرى أمعاء بلون أزرق موضوعة في دلو، أرى قصبة ساق مهشّمة تمزق اللحم وتطلّ من أحد جانبي باطن الساق. أشتمّ رائحة نفاذة لدماء متحللة وفورمول، وكأنه مزيج من مجزر ماشية ومعمل كيمياء. ثمّ لاحظ أبي مدى قسوة استعراض التشريح، فقرر أن يأخذني للتمشية بين باقي جثامين الموتي. في مساء اليوم السابق كانت قد سقطت طائرة خفيفة في ضواحي "ميديّين"، مُخلفةً

عددًا من الجثث المتفحمة والممزقة، لم أرغب في تدقيق النظر إليها بسبب نوبات الغثيان التي كانت تثيرها في نفسي. ولعلّ أكثر ما انطبع في ذاكرتي هي جثة فتاة في مقتبل العمر، عارية تمامًا، يبدو على بشرتها شحوبٌ شفاف، مصابة بجرح أزرق اللون، طعنة سكين في البطن، وبطاقة صغيرة معلقة من إصبع قدمها الكبير تقول إنها قد تعرضت للطعن في إحدى حانات "جواياكيل". علّق أبي قائلًا: «ربما كانت فتاة ليل... مسكينة.» كانت أول مرة أرى امرأة عارية (بخلاف أخواتي)، أول مرة أرى فتاة ليل، أول مرة أرى ميتًا رؤيةً متفحصة. وهناك سقطت مغشيًا عليّ. وإذا بي أراني بعد ذلك خارج المشرحة، أتناول زجاجة "أوبا لوكس" شديدة الحلاوة بالقوة لأسترد وعيي، وأنا شاحب، صامت، أتصبب عرقًا.

لم أستطع أن أخلد إلى النوم طوال ليالٍ عديدة. انتابتني كوابيس رأيت فيها بجوار فراشي العظام المهشّمة واللحم الممزق وأمعاء "جون" الزرقاء... زرقاء داكنة بلون طعنة فتاة "جواياكيل" التي عادت للظهور في مخيلتي بكامل هيئتها، بكلّ شحوبها، وعانتها كثيفة الشعر، والدماء المتخثرة على خاصرتها. (بعد سنوات، وبدون وعيٍ مني، لم أعرف أيّ افتتان مَرَضِيّ دفعني لشراء لوحة مؤثرة تُدعى «طفلة تُبدي جرحها»، تظهر فيها فتاة تشير إلى جرح سكين كالعروة في بطنها. الآن وقد استحضرت تلك الزيارة إلى مشرحة "إل بيدريجال"، أظن أنني أعرف لماذا اشتريتها، كما أعرف لماذا تتسبب في مضايقة كل من يزورني وإزعاجه.) وخلال الليالي العصيبة التالية، أحسّ أبي بالذنب ووخز الضمير، فكان يقضي ساعات جالسًا على الأرض بجوار الفراش ليؤانسني، فيشرح لي أشياء بينما يداعب رأسي، ويقرأ لي قصصًا هادئة.

وكلما لمح في عينيّ أن الصور المريعة قد عادت، كان يطلب منّي أن أسامحه. ربما ظنّ أن حياتي أسهل مما ينبغي، أحسن مما ينبغي، وأراد تلقيني درسًا بإطلاعي على أشد جوانب الوجود ألمًا ومأساوية. ومع ذلك، فلو كان بمقدوره التنبؤ بالمستقبل، لربما فكّر أن العلاج بالصدمة المبكر لم يكُن ضروريًا بالمرة.

-24-

التسلسل الزمني للطفولة لا تصنعه خطوط مستقيمة، بل لحظات الذعر. والذاكرة مرآة قاتمة محطّمة إلى شظايا، أو بالأحرى مصنوعة من أصداف الذكريات الخالدة المُتناثرة فوق شاطِئ النسيان. أعرف أن أشياء كثيرة مرّت طوال تلك السنوات، ولكن محاولة استحضارها تدعو إلى اليأس بقدر ما تدعو إليه محاولة استحضار حلم، حلم ترك في أنفسنا أحاسيس دون أن يخلّف أية صور، قصة بلا قصة، قصّة خاوية، لم يبقَ منها سوى حالة روحية مبهمة. ضاعت الصور. ذهب أثر السنين، الكلمات، اللعب، الربتات، ولكن فجأة، وبإعادة النظر إلى الماضي، ثمّة شيء يُضيء مرة أخرى في منطقة النسيان الحالكة. وهي في الغالب مشاعر بالخزي ممزوجة بالبهجة، وفي الغالب أرى وجه أبي، ملتصقًا بوجهي، كالظلّ نشدّه إلينا أو يشدّنا إليه.

قبل أن توشك أختي على الغرق، أو بعد ذلك بقليل، تعلّمت منها درسًا آخر لقنتني إياه دون قصد، وقد تصادف هذا الدرس وخيبة أمل أخرى مُني بها أبي. فخلال احتفالات المهرجان الشعبي للكتاب في "ميديّين"، بوسط المدينة، اصطحب معه الأخوين الأصغر سنًا، أنا و"صول". وعند وصولنا أخبرنا أنه بإمكان كلّ منّا اختيار الكتاب الذي يعجبه كي يشتريه لنا، ومن ثمّ نقرأه ونقضي وقتًا طيبًا أثناء مطالعته في البيت. في البداية مررنا بكافة أجنحة المعرض على أن نختار الكتاب الأشدّ جذبًا لانتباهنا في طريق العودة.

طُفنا المكان مرتين، ذهابًا وعودة، بينما يعطينا أبي بعض الاقتراحات دون إكراه، فيأخذ الكتب بين يديه ويُثني على مزايا القصة أو إجادة الكاتب أو الموضوع

الشيّق. سرعان ما اختارت أختي كتابًا متبعةً نصائحه: «البلبل والوردة وقصص أخرى» لكاتبه "أوسكار وايلد"، في طبعة بسيطة ولكن رائعة الجمال، بيضاء اللون، تتصدّر غلافها وردة حمراء. أمّا أنا فقد استحوذ عليّ منذ الجولة الأولى التي قُمنا بها في المكان كتاب باهظ الثمن، ضخم، ذو غلاف أحمر، عنوانه «القواعد الرسمية لجميع الألعاب الرياضية». ولكن إذا كان ثمّة ما يبغضه أبي، فهي الألعاب الرياضية والتمارين بوجه عام، والتي كان يجد فيها مصدرًا محتملًا لوقوع الإصابات والحوادث. حاول إقناعي، قال إن هذا ليس بأدب ولا علوم ولا تاريخ، بل وبلغ به الأمر أن قال شيئًا غريبًا عنه، فقال إن الكتاب باهظ الثمن. غير أنني لم أزدد إلّا إصرارًا، وأخذت أجزّ على أسناني مُنزعجًا، فاشتراه لي أبي.

عند وصولنا إلى البيت في وقت لاحق، ذهب ثلاثتنا إلى المكتبة، وبينما كنت أحاول فهم قواعد كرة القدم الأمريكية، التي لم أتمكن من فهمها لا ذلك اليوم ولا في أيّ وقت آخر، أخذ أبي يقرأ لأختي القصة الأولى في كتاب "أوسكار وايلد" بصوت مسموع، قصّة «البلبل والوردة» تحديدًا. لعلّهما كانا قد انتهيا من قراءة الصفحة الأولى في الوقت الذي أحسست فيه بخيبة أملٍ تامة إزاء قواعد كرة القدم الأمريكية المستعصية على الفهم، وأخذت أسترق السمع إلى قصّة "وايلد" حتّى مات الطائر في النهاية بطعنة من إحدى شوكات شجيرة الورد، فأغلقت كتابي واقتربت منهما خاشعًا نادمًا. انتهى أبي من القراءة بحماس شديد. أظنّ أنني كدت أشعر بنفس القدر من التعاسة التي انتابتني يوم فشلت في إنقاذ أختي من السقوط في البحر، وأظنّ أنني كدت أخيّب أمل أبي كما فعلت يومئذ. أخفيت كتاب قواعد الألعاب الرياضية الأحمر خلف باقي الكتب وكأنه مجلّة إباحية، وقرأت قصص "وايلد" الخلّابة مرّة تلو الأخرى، ومن يومها لم أفعل شيئًا آخر بخلاف قراءة الأدب والعلوم والتاريخ، حتّى وإن لم أتعلم يومًا قواعد الكروكيت أو الركبي أو كرة القدم الأمريكية أو الجودو الياباني.

-25-

«معذرةً، لم أكن أعرف أنك مشغول.» هكذا قال لي أبي مساء صيف حارّ. كان قد وصل إلى البيت يحمل هدية من أجلي، سيرة "جوته"، وقد أعطاها لي في وقت لاحق (ما زلت أحتفظ بالكتاب، وما زلت لم أقرأه، سيأتي يومه). عند دخوله كنت مُنهمكًا في تلك الممارسة اليدوية التي تعدّ بمثابة حاجة مُلحّة لكل مراهق. كان من عادته أن يطرق الباب دائمًا قبل الدخول إلى غرفتي، ولكنه لم يفعل مساء ذلك اليوم، فقد جاء فرحًا والكتاب في يده، لا يطيق صبرًا ليهديني إياه، وفتح الباب. كان في غرفتي سرير معلّق، هناك استلقيت وأنا في قمّة النشاط، أتطلع إلى مجلة لأساعد يدي وخيالي بعينيّ. نظر إليّ لوهلة، ابتسم، ثم أولاني ظهره، وقبل أن يغلق الباب مرة أخرى قال: «معذرةً، لم أكن أعرف أنك مشغول.»

لم يعلّق بعدها بكلمة واحدة على الموضوع، ولكن بعد مرور أسابيع، وفيما نحن في المكتبة، حكى لي قصّة: «خلال السنة الأخيرة لي في كلية الطبّ، دعاني ابن عمي "لويس جيّرمو إيتشيبيري آباد" إلى بيته. وبعد الكثير من اللف والدوران، وبغموض شديد، أفضى إليّ ابن عمّي بقلقه بشأن ابنه "فابيتو" الذي يبدو وكأنه لا يأبه بشيء سوى ممارسة العادة السرية، صباحًا ومساءً وليلًا. قال لي ابن عمّي: أنت تكاد تكون طبيبًا، تحدّث إليه، انصحه، اشرح له مدى ضرر تلك الرذيلة التي تُقترف في الخلوة. فذهبت لأتحدّث مع الابن - واصل أبي قصته - قلت له: لا تقلق، استمر في ذلك ما شئت، فهو أمر طبيعي للغاية وبلا أيّة أضرار، والغريب هو ألّا يقوم فتى بممارسة العادة السرية، ولكنّي سأسديك نصيحة، لا تخلّف أثرًا ولا تدع والدك يراك. بعد وقت قصير عاود الاتصال

ليشكرني، فقد صنعت له معجزة: "فابيتو" أقلع عن تلك الرذيلة وكأنما بفعل السحر.» ثمّ أطلق أبي ضحكة مجلجلة وكأن القصة ليس لها مغزى أفضل من ذلك. الشعور الذي تعمّق عندي أكثر من ذي قبل هو أن أبي يثق بي، دون أن يولي أهمية لما أفعله، ويعقد عليّ آمالًا عظيمة (رغم تأكيده الدائم لي أنه ليس من الضروري أن أحقق شيئًا في حياتي، وأن مجرد وجودي يكفيه لكي يكون سعيدًا، وجودي السعيد، كيفما كان هذا الوجود). من ناحية، كان هذا يعني مسؤولية (حتى لا أخذل آماله أو أخون ثقته) وعبئًا ثقيلًا، عذبًا، وحملًا مفرط الثقل، فقد كانت تنال رضاه أية نتيجة أحققها مهما بلغت من التفاهة والسخافة، حتّى أولى صفحاتي المزدحمة بالشخبطة ألهبت حماسه، وقام بتفسير عمليات تحويل المسار المجنونة التي مررت بها على أنها تمرين ممتاز لبناء النفس، وافتقاري إلى المثابرة فسّره على أنه علامة مُسجلة وراثية يعاني منها شخصيًا، أمّا عدم استقراري في الحياة والأيديولوجيا فقد فسّره على أنه أمر لا مفر منه في عالم يتحوّل أمام أعيننا، حيث لا بد من التحلّي بعقل مرن لمعرفة أي جانب نختار في مملكة التغيّر والغموض.

لم يحدث وأن سمعت توبيخًا أو شكوى من جانبه قط، لا حين قمت بالتحويل من كلية لأخرى أربع مرات، ولا حين تعرضت للفصل من الجامعة بسبب كتابتي المعادية للبابا، ولا حين كنت عاطلًا عن العمل ولي بنت أنفق عليها، ولا حين ذهبت للعيش مع أولى عشيقاتي بدون زواج، بل كان دائمًا ما يُبدي رضاه عن حياتي واستقلالي، بكل تسامح وتفتّح. هكذا كان مع أخواتي أيضًا، فلم يكُن رقيبًا ولا ناقدًا ولا مفتشًا قط، ناهيك عن أن يكون جلادًا أو سجانًا، بل كان شخصًا ليبراليًا، متفتحًا، إيجابيًا، يتقبّل نقائصنا على أنها شقاوة بريئة. ربما آمن بأن الإنسان، كلّ إنسان، قد حُكم عليه بأن يكون هو نفسه، فليس لعصا أن تقوّمه، ولا لرفقة سوء أن تُعوِّجه، وربما كان من حسن

حظّه أنه ليس بيننا معربد أو كسول أو أحمق أو عديم الفائدة، لا أعرف كيف كان سيتصرف في تلك الحال، وإن كُنت أعتقد أنه ربما كان سيقابل الأمر بنفس الروح المتفتحة، والمتسامحة، والمبتهجة، ولكن بطبيعة الحال، كان سيقابله كذلك بجرعة من الألم والعجز لا سبيل إلى علاجهما.

كان شديد التفتّح دائمًا فيما يتعلق بموضوع الجنس، كما لوحظ في واقعة العادة السرية ووقائع أخرى لن أسردها، فليس هناك ما هو أشدّ إزعاجًا من المزج بين الجنس والوالدين. حتّى إننا دائمًا ما نتخيل أنّ الوالدين عديمو الجنس، وكما يقول أحد أصدقائي «الأمهات لا يلبين حتّى نداء الطبيعة». ربما كان أبي أكثر تزمتًا في الأمور الحياتية منه في الفكر، هذا صحيح، فقد كان متمسكًا بالتقاليد في الشؤون المُتعلقة بالقيم العائلية، أمّا من الناحية النظرية فقد كان شديد الليبرالية. على عكس أمي في هذا أيضًا، إذ كانت من الناحية النظرية متمسكة بتعاليم الكنيسة الأم المقدسة، أمّا من الناحية العملية فقد كانت أكثر تفتحًا وليبرالية من أبي. ذات مرّة، عندما قام زوج إحدى بنات خالي التابع لطائفة "أوبوس داي" بعقد مؤتمر في الجامعة انتقد فيه استخدام الواقي الذكري بدعوى أن الطبّ يعدّ بمثابة الحليف المنحلّ لفساد أخلاق البشر في بعض الأحيان، إذ يسعى لإتاحة المُحرمات بلا رادع، فقالت أمّي لابنة خالي سرًا إن كلّ هذا عظيم وإنها تتفق مع زوجها، ثمّ نصحتها بأن تضع علبة واقٍ ذكري في حقيبة سفر زوجها كلما سافر، لأن الرجال يحسنون الخطابة حول الأخلاق، ولكن في ساعة الحقيقة، وفي لحظة الغواية، تُنسى الأخلاق، ومن الأفضل في تلك الحالة ألّا يُصاب أحدهما، وخاصةً هي، بأحد الأمراض الناشئة عن الإفراط في الأخلاق المُجردة بدلًا من التمتع بصحة جيدة يرجع الفضل فيها إلى بعض الفساد الأخلاقي العملي.

كنت أستطيع التحدّث مع أبي حول كل تلك المواضيع الحميمية واستشارته بشأنها مباشرةً، فينصت إليّ دائمًا، بهدوء، دون أن تبدو عليه إمارات الصدمة، ثمّ يجيبني بنبرة تتراوح ما بين المحبة والتعليم، دون أن تبلغ حدّ التوبيخ يومًا. في منتصف مرحلة المراهقة، عندما كنت في مدرسة البنين، خطر لي شيء وجدته شديد الغرابة، إلى الحدّ الذي أرّقني معه طوال سنوات. كان مرأى الأعضاء التناسلية لزملائي بالفصل ومزاحهم الجنسي يثيرني، ولهذا فقد بلغ بي الأمر أن فكرت بضيق أنني مثلي جنسيًا. فحكيت لأبي والخوف والخزي يؤرقاني، إلّا أنه أجابني بهدوء باسمًا، وقال إن الوقت مبكر كي أعرف على نحوٍ قاطع، فلا بد من أن الحصول على خبرة أكبر في العالم وفي مختلف الأمور، لأننا خلال فترة المراهقة نكون مُثقلين بالهرمونات إلى الحدّ الذي قد نجد معه كلّ شيء مثيرًا للغرائز، دجاجة، أتان، حتّى تزاوج السحالي والكلاب، ولكن هذا لا يعني أنني مثلي جنسيًا. وقبل كلّ شيء، أراد أن يوضح لي أنني لو كنت كذلك لَمَا استحقّ الأمر أيّة أهمية، طالما اخترت ما يُسعدني، ما تُشير به إليّ ميولي الدفينة، فلا يجدر بالمرء أن يناقض الطبيعة التي ولد بها، أيًا كانت، والفارق بين المثلية الجنسية والميل إلى الجنس الآخر مثل الفارق بين أن يكون المرء أيمن أو أعسر، كل ما هنالك أن من يستخدمون اليد اليسرى أقلّ عددًا ممن يستخدمون اليد اليُمنى. المُشكلة الوحيدة التي قد تُقابلني إذا قدّمت نفسي على أنني مثلي جنسيًا ستكون اضطهاد المجتمع، في وَسَط ضيّق الفهم كالوَسَط الذي نعيش فيه، ومع ذلك فتلك المُشكلة يُمكن احتمالها، ويُمكن تدبر الأمر بجرعات متوازنة من اللامبالاة والكبرياء، التكتُّم والفضيحة، وفوق كلّ شيء حسّ الفكاهة، لأن أسوأ ما في الحياة ألّا يكون المرء نفسه، قال قوله الأخير بتأكيد وتشديد شعرت أنهما آتيان من أعماق ضميره، ليحذرني من أن أشدّ الأمور خطورة وأكثرها تخريبًا للشخصية التظاهر أو الرياء، في كلّ وقتٍ وفي كلّ حال، فهما وجهان لعملة

واحدة، مرضان من أعراضهما أن يدّعي المرء غير حقيقته أو يخفي حقيقته، وصفتان مضمونتان للتعاسة والذوق الرديء. قال لي بحكمة وسخاء ما زلت أشكره عليهما، وبهدوء ما زال يُدخل الطمأنينة إلى نفسي، إنه يجب علي أن أنتظر بعض الوقت على كل حال وأتعامل مع النساء أكثر، وسنرى إذا كنت سأحسّ بنفس المشاعر أو مشاعر أقوى وأفضل.

وهو ما حدث بالفعل مع مرور الوقت، وبعد أن أفصحت عن مخاوفي إلى الطبيب النفسي "ريكاردو خوسيه تورو" والمحللة النفسية "كلاوديا نييبا"، اللذين أذكرهما بحبّ ومودة. ورغم أن أبي هو الذي دفع أتعابهما، فلم يكُن هو الذي حثّني على استشارتهما. ومن خلال الحديث إليهما، أو السماح لعقلي بالنضج بفضل مهارتهما، بينما أصبّ مخاوفي في أسماعهما، استطعت العثور بداخلي على مسار رغباتي الدفينة، والذي شاء له الحظّ، أو ربما نفسي الباعثة على الضجر، أن يتفق والدرب الذي تسلكه الأغلبية. ومنذ ذلك الوقت، لم أعُد أخشى أشدّ رغباتي ظلامًا، ولا أتعذب أو أشعر بالذنب بسببها، حتّى وإن أحسست برغبة مفاجئة تشدّني إلى منطقة مُحرّمة، كامرأة قريبي، على سبيل المثال، أو نساء يصغرنني بفارق كبير، أو حبيبات أصدقائي، فإنني لم أسمح لتلك الخروق بأن تُنغصّ حياتي، بل عشتها على أنها نداءات آلة الجسد المُستبدة، العمياء البريئة على أيّة حال، والتي تتوقف ضرورة التحكم فيها من عدمها على الأذى الذي قد تلحقه بصاحبها وبالآخرين، وبهذا المعيار وحده، المعيار الأكثر براجماتية ومباشرةً من الأخلاق المُطلقة والمجردة (الأخلاق الدوجمائية الدينية) والتي لا تتغير بتغير الظروف أو اللحظة أو الفرصة، بل تتطابق بصفة دائمة، والجامدة جمودًا مُجحفًا بالفرد والمجتمع.

رحيل "مارتا"

-26-

وبعد هذا الفاصل من السعادة التي قاربت حدّ الكمال واستمرت بضع سنوات، تذكرت السماء أسرتنا بحسد، وصبّ الربّ الغاضب الذي آمن به أسلافي جام غضبه فوق رؤوسنا، بعد أن كنّا أسرةً سعيدة، بل وفي غاية السعادة، ربما دون حتّى أن نلاحظ. وهذا هو ما يحدث في أغلب الأحوال، فكلّما زادت سعادتنا كلّما قلّ إدراكنا لها، وربما لهذا ترسل إلينا الأعالي جرعة لا بأس بها من الألم، كي نتعلم الشكر والعرفان، ورغم أن صاحبة هذا التفسير الذي لا يُفسّر شيئًا هي أمّي، إذ لا أدعيه لنفسي ولا أقرّ بما جاء فيه، فإنني أكتبه لأن السعادة تبدو لنا طبيعية ومُستحقة، أما المآسي فتبدو لنا مُرسلة من الأعالي، وكأنها انتقام لذنوب مُظلمة أو عقاب قضت به قوى شريرة أو آلهة مُنتقمة أو ملائكة تنفذ أحكامًا لا مردّ لها.

أجل. كنّا سعداء لأن أبي قد عاد من آسيا بصفة نهائية ولا يفكر في العودة إلى السفر أبدًا، فخلال سفره الأخير أصيب بالاكتئاب وشارف حدّ الانتحار، ولحسن الحظّ لم يكُن السبب في الملاحقة التي يتعرض لها بالجامعة أنه شيوعي، بل لأنه رجعي (فعند الشيوعيين، يعدّ كل السعداء رجعيين في الأساس لأنهم ينعمون بالسعادة وسط التُعساء والمُعوزين) كُنّا سُعداء لأنه قد بدا لوهلةٍ أن أصحاب النفوذ في "ميديّين" يولون أبي ثقتهم ويسمحون له بالتصرف والعمل، فقد وجدوا أنه يقوم بعمل برامج نافعة في مجالات الطب العام، والتطعيم، وتعزيز الصحّة،

وإنشاء القنوات على الطرق المؤدية إلى الأقاليم، فلا تقتصر أفعاله على أقوال ولا شيء سوى الأقوال على غرار الكثيرين. ولأن أبي لم يعُد يشعر بالخطر يهدّد عمله وبدأت أمّي في الوقت نفسه تجني من المال أكثر منه، حينئذ سمحنا لأنفسنا بأن نحظى ببعض الرفاهيات مثل التردد على المطعم الصيني كلّنا سويًا من حين لآخر، أو فتح زجاجة نبيذ وتقديمها إلى الدكتور "سوندرز"، وهو أمر نادر الحدوث وفريد من نوعه، أو تلقّي هدايا أفضل بمناسبة عيد الميلاد المجيد (درّاجة أو مسجل كاسيت)، أو الذهاب في موكب عائلي لمشاهدة فيلم يرى أبي أنه أفضل ما شاهد: «لبؤة وعالمَان»، والذي لا أذكر منه أكثر من عنوانه والطابور الواقف في انتظار دخول سينما "ليدو" لمشاهدته.

كُنّا سُعداء لأننا لم نكن قد فقدنا أيًا من أفراد الأسرة، ولأننا كُنّا نذهب إلى المزرعة أسبوعيًا من الجمعة إلى الأحد، مزرعة صغيرة تبلغ من المساحة قيراطين وتقع في "يانوجراندي"، حيث المرتفعات الباردة، أهداها إلى أمّي العمّ "لويس" الكاهن المريض، مُنفقًا كلّ مدخرات حياته. تحسّن وضعنا إلى الحدّ الذي أهداني أبي معه جوادًا، "أميجو"، حصانًا هزيلًا أخرق من سلالة الـ"مورو"، يحمل نفس الختم الخاص بـ"راسيونانتي"، أخذ يزداد نحولًا وبرزت أضلاعه أسبوعًا بعد أسبوع، إذ كانت المزرعة بلا مرعى، ومع ذلك فقد كان يبدو في عينيّ مهرًا عربيًا أو جوادًا أندلسيًا أصيلًا وأنا أتجول عبر الطرقات القريبة من المزرعة فوق ظهره. ومنذ ذلك الحين اقترن معنى السعادة عندي بالتجوّل عبر الحقول فوق ظهر الحصان (وكذلك بشوارع "كارتاخينا")، حين لا أضطر للحديث إلى أحد، أنا وحصاني وحدنا، على غرار «راعي البقر الوحيد»، مجلتي المصورة المفضلة التي كان بطلها يشبه "دون كيخوته" بدون "سانتشو"، يُحارب الظلم عبر سهول "تكساس" و"تيجوانا" أو في بعض الأماكن التي لم أعرفها يومًا على أنها من هذا العالم، بل من العالم الآخر الذي تصوره المجلات.

يوم وصل الحصان إلى المزرعة تلقّيت، أو بالأحرى لم أُحسِن تلقّي، رسالة من الحياة أو من الحكمة التي يُفترض بالتجربة أن تُكسبنا إياها (ونادرًا ما تفعل)، وهي الرسالة التي كان ينبغي أن تنبهني إلى خطورة التعاسة المحدقة بالسعادة في كل وقت. أراد أبي أن يعدّ لي مفاجأة، فما إن وصلنا إلى "يانوجراندي" ظهيرة السبت، حتّى أوقف السيارة عند مدخل المزرعة وأشار إلى المُهر: «انظر، إليك ما أردت، الحصان.» قفز قلبي داخل صدري من السعادة. أخيرًا سأتمكن من امتلاك أحبّ الأشياء إلى نفسي في مزرعة جدّي (التجوّل فوق ظهر الحصان) دون أن أخوض معاناة الافتراق عن أبي ليلًا. حينئذ قفزت خارج السيارة الـ"بلايماوث" القديمة ذات اللون الأزرق السماوي، وفتحت الباب بأقصى سرعة، قفزت خارجًا وصفقت الباب بكل ما أوتيت من قوة لأركض إلى حيث وقف الحصان. تسرعت إلى الحدّ الذي تركت معه إصبعين في شقّ الباب وسحقتهما بنفسي وأنا أغلقه. أحسست بألمٍ ثاقب. فانقلبت البهجة والفرحة وجعًا رهيبًا. احتبس الدمّ في إصبعيّ ليصبح لونهما أرجوانيًا، وفقدت أحد أظفاري. امتزجت ضحكة البهجة بالنحيب، ولم أستطع التعرف على "أميجو" إلا بعد مرور وقت لا بأس به، قضيته واضعًا أصابعي في طبق من الثلج لتخفيف الألم والتورّم. أخذت أضحك وأبكي في نفس الوقت. ربما كان عليّ أن أفهم بعد تلك التجربة، والتي اصطبغت فيها الفرحة بالألم على نحوٍ مباغت، أن سعادتنا في توازنٍ محفوف بالأخطار، غير مستقرة، وعلى وشك أن تزلّ في منحدر الأسى.

ولكن كلا. كنّا نتصور طوال تلك السنوات أننا سنظلّ سعداء مدى الحياة، فليس ثمّة ما يدعو إلى الشكّ. كُنّا سُعداء لأن أخواتي جميعًا حسناوات وكلهن سرور، أجمل فتيات حيّ "لاوريليس" على حدّ قول الجميع: "ماري لوس"، "كلارا"، "بيكي" (كنّا نُنادي "إيبا" باسم "بيكي"، فرغم أن اسمها الحقيقي هو

"إيبا بيكتوريا"، إلّا أنها كانت تمقت اسم "إيبا" الذي بدا لها اسمًا جبليًا من الأسماء الشائعة في بلدة "خيريكو"، وطالما عانت من هذا الأمر، علمًا بأنها صاحبة الاسم الجميل الوحيد بين أفراد الأسرة جميعًا) ثمّ "مارتا". أمّا "صول" فلم يكُن قد حان وقتها بعد، إذ كانت لا تزال صغيرة جدًا، تكتفي بالنظر متوارية إلى جواري خلف الشبابيك، تتذمّر من مرأى القبلات المختلسة، في حين يشي كلانا بأخواتي في نفس واحد («ماما، "خورخي" قبّل "كلارا"، و"كلارا" سمحت له بذلك»، «ماما، "ألبارو" أراد أن يقبل "بيكي" ولكن "بيكي" لم تسمح له»، «ماما، "مارتا" قبّلت "إيرنان داريو"، وهو وضع يده فوق نهدها الأيمن») ولكن سيأتي يومها كذلك لكي تهنأ وتختلس القبلات سرًا. أجل، أجمل فتيات في "لاوريليس" كنّ أخواتي، يمكنكم سؤال كلّ من عرفهن للتأكّد. كنّ الأكثر بهجة ولُطفًا ودلالًا والأعذب حديثًا، فتحوّل البيت إلى خليّة للشباب من المرحلتين الثانوية والجامعية، يتردد طنينهم طوال الوقت فيما يحاولون غزو قلوب أخواتي كالمجانين. فضلًا عن براعتهن في الرقص كانت لهن بسمة مُشرقة وخفّة ظلّ ذهبت بعقول شباب "لاوريليس"، حتّى إن بعضهم كان يقطع المسافة من وسط المدينة و"إل بوبلادو" لرؤيتهن، لمجرد رؤيتهن نهارًا، كي يتطلعوا إليهن وهم يرتعدون خجلًا، والخوف يدور برؤوسهم خشية عدم القبول. ثمّ يتكرر نفس الأمر ليلًا، فيعاود زوار النهار الظهور يومي السبت والجمعة بعد منتصف الليل، وقد بلغ منهم الحبّ حدّ اليأس، فتضجّ واجهة البيت بأغاني الغرام التي لا تنتهي. فيهدي "فرناندو" أغاني الغرام لحبيبته "ماري"، والتي أخلصت له منذ سن الحادية عشرة ولم تسمح لأحد بأن يقترب منها يومًا، وفي حال تغزّل بها آخر كانت توقفه عند حدّه بجفاء ثمّ تصرفه وعلى وجهها إمارات الانزعاج. أمّا "كلارا"، فقد كان يهديها أغاني الغرام كلٌّ من عشيقيها إلى جانب خُطّابها العشرين، (ذات مرّة أُهديت إليها أربع أغان في ليلة واحدة، من أربعة ألوان موسيقية مُختلفة، آخرها بمصاحبة مطربي "مارياتشي"،

يا تُرى من يبذل أكثر للفوز بقلبها الفولاذي!)، فعلى الرغم من إخلاصها بلغت من الجمال حدًا أصبح من المستحيل معه أن تختار من بين كلّ أولئك المتنافسين المثاليين، فكلّ شاب خير من سابقه. أحدهم، ويدعى "سانتا ماريا"، انتحر مصابًا بداء الحبّ. أمّا "بيكي"، فقد كان يهديها أغاني الغرام شخص يُدعى "ألبارو أوريبي"، بالغ القِصر، كاد حبّه لها يُفقده عقله، أمّا هي فلم تُبادله نفس الشعور، إذ كان يبدو لها شديد الجديّة وحادّ المزاج فوق كلّ شيء. قال لها ذات مرّة: «إذا لم تعيريني اهتمامًا فلسوف أُبدّلكِ.»، ثمّ قام بتسمية أفضل خيوله باسم "بيكي"، فقد كان يحبّ الخيل أكثر من أي شيء، وأصبح يقول «الآن سأركب "بيكي" كل أسبوع». كان يحمل إليها شهاداته حتى تراها، فيقول: حصلت على الدرجات النهائية في كل المواد بمدرسة رهبان "سان بنديكت". ولكنه تعرّض للفصل في العام قبل الأخير من المرحلة الثانوية بسبب أختي، ليست "بيكي"، بل "ماري لوس"، الأخت الكبرى. فقد كان لا بد من اختيار ملكة جمال المدرسة بمناسبة الحفل الخيري المُقام بمدرسة رهبان "سان بنديكت"، ومثّلت "ماري لوس" الصفّ السادس في المنافسة، غير أن ملكة جمال الصفّ الخامس التي كان يشجعها "ألبارو" حافظت على تفوّقها حتّى اللحظة الأخيرة. لم يكُن الفوز في المسابقة من نصيب الأجمل، بل الأكثر جمعًا للتبرعات، وقد جمعت فتاة الصفّ الخامس مبلغًا أكبر، لأن والد "ألبارو"، محبّ الخيل، كان على درجة كبيرة من الثراء وتبرّع بمبلغ ضخم. كاد يسبق السيف العذل، ولكن في اللحظة الأخيرة، توسلت "ماري لوس" لواحد من أثرى أثرياء "ميديّين"، "ألفونسو مورا دي لا أوس"، فأعطاها شيكًا ضخمًا بمبلغ كبير. وعند عدّ النقود، تفوّقت فتاة الصفّ الخامس بعد جمع النقود السائلة، مما أسعد "ألبارو"، ولكن آخر ورقة تمّ احتسابها كانت هي الشيك الذي قدّمه الرجل الثري، حينئذ تفوّقت ملكة جمال الصف السادس. انطلقت صيحات الفرحة بفوز "ماري لوس"، فقام "ألبارو"

الذي لم يتقبل الخسارة، وما زال لا يتقبلها، باعتلاء أحد المكاتب وأخذ يخطب في طلاب المدرسة وكأنه يلقي خطاب يوم الاستقلال: «لقد باع رهبااااان "سان بنديكت" أنفسهم!» ففصله رهبان "سان بنديكت" لعجزه عن تقبّل الهزيمة وقواعد اللعبة، واضطر لاستكمال المرحلة الثانوية في مدرسة "خورخي روبليدو"، حيث يذهب المطرودون من "ميديّين" جميعًا. بعد ذلك نشأت علاقة حبٍّ بين "بيكي" وشاب آخر من عائلة تلقّب بـ"أوريبي"، يدعى "فيديريكو"، لا تربط بينه وبين الأوّل صلة قرابة، بل كان من عائلة أخرى لها نفس اللقب، وتزوجت به في نهاية المطاف. عندما اضطرت لاتخاذ قرار بهذا الشأن قال لها أبي «هذا أفضل، فالآخر شديد الطموح، ولا أعرف إذا كان سيُخلص لكِ». لا أحد مخلص، ولكن لنُعد إلى موضوعنا. أمّا "مارتا"، والتي تصغرهن سنًا، ابنة الجيل الجديد، فلم تكُن تُهدَىَ إليها الأغاني الغرامية التي تنشدها الفرق الثلاثية، فقد أصبح شيئًا من زمن آخر يليق بالعجائز وذوي الخبرة. ولكن عند ساعة مُعينة، كانت تتوقف سيارة في الشارع ويُفتح بابها، ثمّ ينبعث من سماعات السيارة دوي طبول وجيتار كهربائي تتأجج منه موسيقى الروك بأغاني الـ"بيتلز" و"رولينج ستونز"، ثمّ في وقتٍ لاحق أغاني "كاربنترز" و"كات ستيفنز" و"ديفيد باوي" و"إلتون جون". لقد كان هناك بالفعل اختلاف أجيال بين أخواتي الأربعة اللائي يكبرنني سنًا، فكانت "مارتا" أولى بنات جيلي، وإن كُنت في الحقيقة لا أعتقد بانتمائي لأيّ من أجيال أخواتي، فبموتها أصبحت بلا قدوة وبلا جيل. ربما لهذا شُغفتُ بالموسيقى الكلاسيكية، الأرضية الصلبة التي وقف عليها أبي، وربما لهذا لم أهدِ أغاني الغرام قط، لا أغاني الفرق الثلاثية ولا الـ"بامبوكو" ولا الـ"مارياتشي"، ولا حتّى أدرتُ موسيقى الروك في السيارة.

والآن عليّ أن أحكي قصة رحيل "مارتا"، القصّة التي قسمت تاريخ بيتي إلى قسمين.

كانت أمّي تناديها باسم "مارتا سيسيليا"، ويناديها أبي باسم "تاتشي"، أمّا الإخوة فباسم "مارتا"، نجمة الأسرة. وقد عُرف عنها منذ حداثة سنّها أنه ليس بيننا جميعًا من يفوقها بهجة ولا ذكاء ولا حيوية (أقسم لكم أنها كانت تواجه منافسة، بل ومنافسة شرسة، من باقي الأخوات). بدأت العزف على الكمان في الخامسة من عمرها، فكانت تذهب من حين لآخر إلى معهد الكونسرفتوار حيث شغل منصب قائد أوركسترا أوبرا "فريبورجو" المُعلّم التشيكي "جوزيف ماتسا"، عازف الكمان البارع الذي أقرّ بأنه لم يلتقِ بموهبة مثل "مارتا" منذ سنوات. كانت فرقة الجامعة تعزف بقيادة "ماتسا"، الذي ضلّ طريقه عبر تلك الأراضي الاستوائية، وقدّم مع فرقتنا الموسيقية المتواضعة كلّ ما يمكنها تقديمه هنا (كان أبي يأخذنا لحضور حفلات الفرقة بعض أيام الآحاد في منتزه "بوليبار"). انتهى بـ"ماتسا" المطاف وقد أدمن الخمر، شاعرًا بالمرارة، يلتقطه تلاميذه من شوارع المدينة فجرًا، ومع ذلك فقد كان يلقى عنايةً حتّى من الشحاذين، فكانوا يقولون: «المايسترو مخمور، دعوه ينام». كان المايسترو "ماتسا" يقول لتلاميذه أثناء الدرس، ناظرًا إلى آلته بغضب ممزوج بالحبّ، «إنّه عدوي الحميم». ربما لهذا ضاقت "مارتا" بالكمان عند بلوغها سنّ الحادية عشرة، فقد رأت أنها آلة شديدة الحزن تقتضي أن تكرّس لها كل وقتها وحياتها، آلة صُنعت لعزف موسيقى قديمة على حسب قول أختي التي كانت ابنة عصرها بكلّ ما تحمله الكلمة من معاني، عصر الروك. حينئذ تركت الكمان غير آسفة ودون ضغط من جانب أبي وأمّي، فلم

يمارسا الضغط علينا يومًا بشأن أيّ من توجهاتنا، ثمّ بدأت في الغناء والعزف على الجيتار. فاتخذت مُعلّمة كولومبية تُدعى "سونيا مارتينيس" مكان المايسترو "ماتسا"، واتخذ الجيتار مكان ذلك «العدو الحميم». ورغم أن "سونيا مارتينيس" كانت تعلّمها موسيقى الـ"بامبوكو" التي لم تتحمس لها "مارتا"، فقد أقرّت بأنها تُجيد شرح التقنية الصوتية وكيفية مُصاحبة الجيتار. وقد درست المزيد مع "أندريس بوسادا" حبيبها الأول الذي أصبح اليوم موسيقيًا بارعًا، ومع "بيلار" أخت "أندريس"، موسيقية عظيمة هي الأخرى، فكانوا يقضون المساء سويًا، يتغنون بأغاني الـ"بيتلز" و"سيرّات" و"كات ستيفينز" وغيرهم وغيرهم!

وفي عمر الرابعة عشرة بدأت تُغنّي وتعزف مع فرقة «رباعي هُنّ» الموسيقية، حيث غنّت مطربة أخرى بارعة، "كلاوديا جوميس". فكانت "مارتا" أول من فاز بجوائز فنية في الأسرة (والوحيدة في الواقع)، وكتبت عنها الصحف واستضيفت في بعض البرامج التلفزيونية. قامت بجولات في كافة أنحاء كولومبيا، وسافرت إلى "بورتوريكو" و"سان أندريس" و"ميامي" وأماكن من هذا القبيل، لم يكُن باقي الإخوة يحلم حتّى بزيارتها. كما كانت "مارتا" ممثلة بالفطرة، تُلقي نصوصًا بالغة الطول من الذاكرة في حفلات أعياد ميلاد أخواتي، كلما أتمّت واحدة من الأخوات اللائي يكبرنها سنًا الخامسة عشرة، العام الأكثر أهمية عند كلّ امرأة تلك الأيام، والمناسبة التي يتمّ فيها «تقديمها إلى المجتمع». وتفوقت على كلّ طلاب فصلها بمدرسة "لا إنسينيانسا"، حيث كانت مثار إعجاب زملائها لأنها لم تكُن طالبة صمّامة ثقيلة الظلّ، بل طالبة تفيض بهجة يكفيها سماع الدرس مرةً واحدة كي تتعلمه، دون الحاجة إلى الاستذكار. كانت تقرأ أكثر منّي، وبلغت من السرعة والذكاء حدًّا جعل أبي يؤثرها علينا جميعًا، فقد آثرها حتى عليّ أنا الذي تميزت عنهن بميزة ليس لي

فيها أيّ فضل، وهي أنني كنت الرجل الوحيد، وآثرها على الأخت الكبرى التي كانت قرّة عينه لأنها أطيبنا قلبًا وأكبرنا سنًا.

تزوجت الأختان الأكبر سنًا. فتزوجت "ماري لوس" بالحبيب الذي ارتبطت به طوال حياتها، "فرناندو بيليس"، الاقتصادي الذي حقق ثراء في سن العشرين عندما آلت إليه تركة ضخمة ورثها عن أبيه، ومؤسس مصنع الأدوية المسمى بـ«معامل "ليستر"»، والذي أودى بحياته سرطان مبكر. ولكن الاقتصادي بلغ من الكرم حدًا لم يستطع معه الاقتصاد، بل وزاد الادخار صعوبة بقربه من أختي التي تنساب النقود من بين يديها على غرار أبي، ففي رأيها لم تكُن ثمة متعة في الحياة تفوق متعة إسداء الخدمات للآخرين والعطاء، فالعطاء، ثمّ العطاء... عطاء النقود، والوقت، والملابس، والأغراض وكلّ شيء. كانت "ماري لوس" واحدًا مع "فرناندو"، وكأنهما توأم سيامي، حتّى بدا الأمر وكأنهما قد تزوجا منذ المناولة الأولى. يكفي القول بأنه كان في الثالثة عشرة من عمره حين أهداها أول أغنية غرامية، أمّا هي فكانت في الحادية عشرة. وببلوغها السابعة عشرة كانا قد قضيا معًا وقتًا طويلًا إلى درجة لم يستطيعا معها تحمّل المزيد من العذرية (كان ذلك هو زمن العذرية)، فقامت باستدعائه وأرغمته على الزواج منها قبل حتّى أن ينتهي من دراسته الجامعية. حينئذ أحسّت "كلارا" أيضًا بأنها تحت ضغط يدفعها للزواج حتى لا تتخلف عن اللحاق بأختها، فتزوجت بعد ثلاث سنوات من الشاب الذي قيل عنه إنه صاحب المستقبل الأكثر إشراقًا، "خورخي أومبيرتو بوتيرو"، المحامي «النابغة» حسب ما تردد على ألسنتهن جميعًا، دمث الأخلاق، شديد الذكاء على حدّ قول أبي، على الرغم من كلماته المتكلفة التي كانت تثير بعض الضحك الممزوج بالإعجاب بيننا جميعًا، وحديثه المتأنّي، التعليمي، الفطن. لم أعرف أحدًا سواه ما زال يستخدم تلك الصيغ اللغوية العتيقة مثلما يفعل، وقد كان من أوائل الكولومبيين الذين

خرجوا للتريّض كالخواجات، لممارسة الـ«jogging» حسب قوله. كان وسيمًا ممشوق القوام، له أسلوب مصطنع في الكلام يُلازمه باستمرار إلى الحّد الذي يكاد يمكننا القول معه بأنها طبيعته التي جبل عليها. سافر كل من "كلارا" و"خورخي أومبيرتو" إلى الولايات المتحدة بعد زواجهما مباشرةً لمواصلة الدراسة في "مورجان تاون"، بلدة تقع غربي "فيرجينيا" ولها جامعة.

تبقّى أربعة أبناء في البيت، وأصبحت "إيبا بيكتوريا" كثيرة الولع بالتأنّق بعد أن شغلت مكان الابنة الكُبرى آنذاك. كانت تقضي يومها كاملًا مع زميلتها في الدراسة، "ماريا إيما ميخيّا"، فتُسدي إليها الأخيرة نصائحها حول الملابس والجاذبية، وتعلّمها كيف تحرّك يديها كراقصات الباليه. ويرجع الفضل إلى دروس "ماريا إيما" في كون "إيبا" أو "بيكي" صاحبة الآداب الأكثر رقيًّا في بيتنا، حتّى ليبدو أنها سليلة أسرة أرقى من أسرتنا. كانت تسلك سلوكًا متكبرًا، ولكن رأيي أنه لم يكُن ناتجًا عن استهانة، بل عن كبت النفس، وهو ما أظنّ مردّه الإفراط في امتحان الضمير، والخوف من الذنوب المظلمة والملتبسة كالخطيئة الأصلية، إلى أن أصبحت تعاني من جمود مرضيّ يحول في بعض الأحيان دون أن تعيش حياتها، ويصل بها الأمر إلى رؤية الشرّ والخسّة حيث لا يوجد لهما أدنى أثر.

بقينا أنا و"مارتا". "مارتا"، النجمة، المغنيّة، الطالبة الأكثر تفوقًا، الممثلة. كانت قوية الملاحظة، ذات سمع مرهف، ولهذا تحديدًا كانت تتمتع بملكة التقليد المتقن، فبعد مرور دقيقة من التعرف على أيّ شخص كانت تتمكن من تقليد إيماءاته، صوته، مشيته، طريقته في تقطيع اللحم، حركات يديه واختلاجات عينيه، وحتّى صعوبة النطق التي يعاني منها. مساكين زوار بيتنا، فعند خروجهم لم تكُن أختي تقلّدهم، بل تُجري لهم أشعة سينية. كُنت أشعر نحو "مارتا" بمهابة، وعلى نحوٍ ما، لم أكُن أشعر بأنني أصغر منها سنًا فقط، بل وكنت أشعر أمامها بالنقص، بكل ما تحمله الكلمة من معاني. كانت تجد

الكلمة المناسبة لكل شيء، الحلّ العبقري، الملاحظة الملائمة، في حين كنت لا أزال أعاني صراعًا داخليًا لحلّ عقدة الكلمات التي لم تنبت في وعيي بعد، ناهيك عن أن تكون قد أزهرت على لساني. ولكن هذا الإحساس بالنقص لم يكُن يهمّني كثيرًا، فقد استسلمت لتفوقها منذ البداية، فضلًا عن أنني كنت قد اتخذت لنفسي في الكتب ملاذًا، في إيقاع الكتب الهادئ والمحادثات الجادة المتأنية مع أبي، كي أجلو شكوكي حول الطبيعة والميتافيزيقا، أمّا تفوّق أختي فقد كان أمرًا جليًا لا شكّ فيه ولا يُمكن منافستها عليه، وكأننا نعقد مقارنة بين ربوة "بانديأسوكار" ومُرتفعات "نيبادو ديل رويس" الهائلة. وربما لعدم مقدرتي على منافستها، لا في الكلمة ولا الرقص ولا الغناء ولا التمثيل ولا التقليد ولا الدراسة، أصبحتُ قارئًا و«راعي بقر وحيدًا»، طالبًا متوسط المستوى يفتقر إلى ملكة التعبير الشفهي وغير قادر على ممارسة الرياضة ولا يُجيد سوى شيء واحد فحسب منذ ذلك الحين: الكتابة. وفي آخر القائمة تأتي "صول"، والتي لم تكن قد تجاوزت غشاوة الطفولة بعد، فكانت تقضي يومها كاملًا في بيت اثنتين من أقاربنا في نفس عمرها وتقطنان بنفس الشارع، "مونيكا" و"كلاوديا"، حيث يلعبن لعبة الأمّ بجديّة تتمناها كلّ أمّ، ويتظاهرن بأن دمي "باربي" بناتهن، ويلعبن بالسيارات الصغيرة والأقمشة والملابس التنكرية والدُمي البلاستيكية. في الحقيقة كانت "صول بيا" بمثابة ابنة لأعمامها أكثر منها ابنة لأبي وأمّي (كُنّا ندعوها "صول بيا" لأن اسمها كاملًا "صول بياتريس"). أحيانًا، ورغم أنها الطبيبة الوحيدة في البيت وعلى قدر كبير من الجدية والمهنية، فإنها إذا تشاجرت تبدُر منها تصرفات لا تليق بطبيبة بل بتاجر ماشية، وهو الشيء الذي لا يُمكن إلا أن تكون قد ورثته عن العمّ "أنطونيو" المُزارع، أكثر أبناء جدّي شبهًا به.

أكرّر ما قلت، استمرت تلك السعادة حتّى شعر الربُّ، أو بالأحرى الحظّ السخيف، بالحسد نحونا على كل تلك السعادة، فصبّ جام غضبه فوق رؤوس تلك الأسرة السعيدة بلا رحمة. ذات مساء قام أبي باستدعائي و"صول" عند عودته من العمل. كان جادًا، أكثر جديّة من أيّ وقت مضى، لم يكُن متعكر المزاج وإن لاحت في عينيه نظرة انشغال جارف، وكأنه يمرّ بضائقة كما كانت أمّي ستقول في تلك الحال، يختلج فمه ويداه في قلق إشارة على قيام توتر الأعصاب بشنّ انقلاب داخل نفسه. لا بد وأن أمرًا غريبًا يجري، فلم يسبق لنا وأن فعلنا شيئًا مماثلًا قط، بل جرت العادة على أن تكون لحظة وصوله إلى البيت كأمطار من البهجة، حيث الضحكات المجلجلة والدعابات، أو الموسيقى الكئيبة وطقوس القراءة المُنعشة. أمّا تلك المرّة، فلا شيء من هذا القبيل: «هيّا نقوم بجولة بالسيارة» قال بلهجة جافة قاطعة. انطلق بالسيارة، وبعد عدة جولات عبر متاهات شوارع "لاوريليس"، توقف في حارة مُنعزلة بجوار "لا أميريكا" وقد كدنا نبلغ شارع "سان خوان". أبطل السيارة وبدأ يقول بتمهل، وقد التفت نحونا ناظرًا إلى أعيننا:

- يجب أن أخبركما بشيء شديد القسوة وشديد الأهمية. (قالها بنبرة مؤلمة، وتوقف برهة حتّى يزدرد ريقه.) يجب عليكما التحلّي بالقوة وتلقّي الأمر بهدوء. اسمعا، يشقّ عليّ القول... "مارتا" مريضة بشدة، ومرضها يُدعى "ميلانوما"، نوع من السرطان، سرطان الجلد.

أمّا أنا، وبدلًا من أن أتحكم في نفسي فقد قفزت كالزنبرك قائلًا أفظع ما يُمكن قوله، أوّل ما تبادر إلى ذهني:

- إذن، ستموت.

لم يكُن أبي يريد سماع هذا، ناهيك عن التفكير فيه، فهو أخشى ما يخشاه، والشيء الذي يعلم علم اليقين في دخيلة نفسه أنه سيحدث لا محالة، فغضب مني بشدّة:

- أنا لم أقل هذا، اللعنة! سنأخذها إلى الولايات المتحدة وربما تنجو. سنفعل كل ما في طاقة البشر لإنقاذها. يجب عليكما التحلّي بالقوة والهدوء وتقديم يد المساعدة، فهي لا تعرف ما بها، ويجب أن تُحسنا معاملتها وألّا تقولا شيئًا على الأقل في الوقت الراهن، حتّى تتهيأ لذلك. لقد تقدّم الطب كثيرًا، وسنعالجها طالما أمكن.

في هذه اللحظة بدأت فترة دامت أربعة أشهر من الألم المرير، من أغسطس إلى ديسمبر، لم يخرج أحدٌ منها كما كان.

إن إصابة فتاة في عمر السادسة عشرة مثل "مارتا" بالسرطان من شأنها أن تثير ألمًا ورفضًا، لا يمكن احتمالها، في أيّ شخص كان. ثمّة لحظة تكتسب فيها حياة الإنسان قيمة أعظم، وهي تلك اللحظة التي تتزامن، حسب اعتقادي، مع ريعان الشباب الذي يجيء مع نهاية المراهقة، بعد أن أمضى الأبوان سنوات طوال في تشكيل الشخص الذي سيمثلهما ويحلّ محلهما والعناية به، ثمّ يبدأ ذلك الشخص أخيرًا في التحليق وحيدًا، فيُحسن التحليق، كما في هذه الحالة، بل ويتفوّق عليهما كثيرًا، وعلى الآخرين جميعًا. إن موت طفل وليد، أو عجوز طاعن في السنّ، أقل ألمًا. فقيمة حياة الإنسان تأخذ ما يُشبه المنحنى التصاعدي، قمّته في اعتقادي بين الخامسة عشرة والثلاثين، بعد ذلك يعود المنحنى إلى الهبوط وصولًا إلى العام المائة الذي يعادل العودة إلى وضع الجنين، ولا يهمّنا في شيء.

كان المستشفى الأوسع خبرة في إجراء التجارب على أدوية جديدة لعلاج ذلك السرطان الموحش، الـ"ميلانوما"، يقع في واشنطن. فباع أبواي بعض الأغراض، كالسيارة الخاصة بأبي وأوّل مكتب اشترته أمّي في بناية "لا سيبا" بما ادخرته من نقود طوال سنوات، للحصول على تكلفة العلاج. كما قام العديد من الأصدقاء، "خورخي فيرنانديس" و"مارتا إيرنانديس" و"فابيو أورتيجا" و"مابيل إسكوبار" ودون "إيميليو بيريس" وصهري "فرناندو بيليس"، بتقديم آلاف الدولارات على أنها قروض لأجل غير مسمى أو هدايا، تلقاها أبي وأمّي بعينين مغرورقتين بالدموع. عند عودتهما من الولايات المتحدة ردّ أبي وأمّي القروض كاملة دون أن تُمسّ، ولكن وجودها في المحفظة كان يُشعرهما بالطمأنينة. كانا على استعداد لبيع البيت، المزرعة، كل ما نملك، لو كان علاج "مارتا" ممكنًا ومتوقفًا على الدفع. هكذا كان الوضع، ولا يزال، فمن يملك مالًا أكثر يحصل على رعاية صحية أفضل. ولكن مع ذلك السرطان لم يكُن المال قادرًا على شراء الصحّة. كانت هناك آمال مبهمة، مُعلقة على دواء جديد في أولى مراحل التجربة، بدأت "مارتا" تتناوله في المستشفى.

نزلوا في واشنطن ضيوفًا على "إدجار جوتيرّيس كاسترو" الذي ترك لهم الشقّة وذهب للإقامة بغرفة في بيت صديق له. ويوم ذهب للقائهم في المطار، انتابه قلق شديد لدرجة أدّت إلى تعرّضه لحادث على الطريق، وعند وصوله في سيارة أجرة في وقت لاحق لم يجد أبي وأمّي و"مارتا" هناك، فقد كانوا قد استقلوا الحافلة إلى أحد الفنادق ظنًا منهم أن "إدجار" قد نسي لقاءهم. ولكنه

انتشلهم من الفندق وأنزلهم بشقته «ما يلزم من الوقت» في لفتة كرم وسخاء لا تنساها أسرتي. انضمّت إليهم أختي "كلارا" التي لم تكُن تسكن بعيدًا، كما كان يزورهم زوجها "خورخي أومبيرتو" أثناء العطلات الأسبوعية. وهناك، في الشرفة المطلة من شقّة "إدجار جوتيرّيس"، وجهت "مارتا" لأبي ذلك السؤال المشؤوم أخيرًا: «بابا، هل حقًا أن ما بي سرطانًا؟» أمّا هو فلم يستطع إلّا أن يومئ برأسه وقد اغرورقت عيناه باليأس، بيد أنه أردف بكذبة حانية، بدت وكأنها أمر وارد الحدوث: نعم، إنه سرطان، ولكنه سطحي ومن الممكن جدًا علاجه لأنه أصاب الجلد. لم يصدّق أنها ستموت. أراد أبي منها أن تُساعد ذلك العلاج بروحها المعنوية رغم ضعف احتمالات نجاحه. لم تعُد للسؤال قط. وعرفت منذ ذلك اليوم كيف تتحكم في ألمها وتغلف رغبتها في عدم الاستسلام لليأس بأمل واهٍ. وفي الواقع، حاولت أن تبقى سعيدة حتى النهاية.

في إحدى العطلات الأسبوعية، اصطحبوها للتنزّه والتعرف على نيويورك بإذن من المستشفى. ذهبوا برفقة "كلارا"، وأثناء نزهتهم في "مانهاتن"، أصيبت "مارتا" بغثيان مروّع، ثمّ سقطت مغشيًا عليها وقد تسارع معدّل ضربات قلبها. اضطروا للاتصال بسيارة الإسعاف والعودة بها إلى واشنطن. تلك العودة المتعجلة في سيارة الإسعاف وحدها كلّفتهم نفس المبلغ الذي بيعت مقابله سيارة أبي. لم يكُن شيئًا ذا أهمية، مجرّد ردّ فعل للعقار شديد المفعول، الذي ربما كان أوّل أنواع العلاج الكيميائي.

كانوا قد بلغوا المستشفى أخيرًا عندما اكتشفوا إصابة جسد "مارتا" بنقيلة، قيل لهم إن كلّ ما يُمكن عمله هو انتظار نتائج الدواء الجديد، وإنه بإمكانهم أخذ جرعات من الدواء إلى كولومبيا وإرسال فحوصات المعمل بصفة أسبوعية إلى المستشفى حيث سيتم تحليلها على أيدي المتخصصين، ومن ثمّ سيتم إبلاغهم بالإرشادات عبر الهاتف عند الحاجة. عندما رافقتهم "كلارا" إلى المطار يوم العودة،

ودّعت "مارتا" بقبلة طويلة وعناق حارّ. أخبرتها "مارتا" أنها خائفة، فضحكت منها "كلارا" وقالت لها ألّا تكون ساذجة، فكلّ شيء سيكون على ما يرام. قالت قولها بابتسامة سعادة زائفة. وفي طريق عودتها إلى مكان انتظار السيارات، بعد أن تركتهم عند بوابة مراقبة الجوازات، شعرت "كلارا" بشيء دافئ يسيل على فخذها، سائل دافئ. هرعت إلى الحمام. كانت مصابة بنزيف حادّ، أنهار من الدماء تنساب من المهبل إلى الأرض، فاضطرت للذهاب إلى المستشفى (مستشفى آخر في بلدتها) لإيقاف النزيف بإجراء عملية كحت، كما اضطرت لتناول محلول ملحي وإجراء نقل دم. قال الطبيب إنها ربما كانت حاملًا وفقدت جنينها دون أن تدري. وقيل لها إن هذا يفسر الألم المبرح الذي عانت منه.

عند عودتهم من الولايات المتحدة أخذت "مارتا" تذوي يومًا بعد يوم، ببطء شديد، شيئًا فشيئًا، كما لو كان المقصود من ذلك أن نرى جيدًا كيف يتسلل الموت إلى جسدها، سنتيمترًا تلو الآخر، إلى جسد فتاة في السادسة عشرة شارفت على السابعة عشرة من العمر، كانت منذ عام واحد عنوانًا للحيوية والصحة والبهجة، التجسيد المثالي للسعادة. أخذت تزداد شحوبًا ونحولًا إلى أن صارت جلدًا على عظم، أشدّ تألّمًا وعجزًا وأكثر هشاشة يومًا بعد يوم، حتّى كادت تتلاشى كالبخار. ثمّة أوقات في الحياة يتركّز فيها الحزن، وكما يُقال إننا نستخرج من الوردة خلاصتها لنصنع العطر، أو نستقطر من النبيذ روحه لنصنع الكحول، فهكذا يتقطّر الشقاء في حياتنا أحيانًا حتى يصبح عاصفًا لا يُطاق. وهكذا كان موت أختي "مارتا"، الذي ترك أسرتي محطمة، ربما إلى الأبد.

اكتشفت إصابتها بالسرطان عندما وجدوا عند قاع الجمجمة، فوق مؤخر عنقها، صفًا من الكرات الصغيرة، أو على الأصحّ مسبحةً حسب قولهم، مسبحة من الكرات الصغيرة ذات ملمس شبه رخو، تراصت الواحدة خلف الأخرى... مسبحة... أجل، كتلك التي كان يحكم قبضته حولها كلٌّ من العمّ "لويس"

والجدّة "بيكتوريا"، أجل، مسبحة من النقائل، هذا هو ما أرسله إلينا الرب والقديسة العذراء بعد «مسبحة الفجر»، بعد صلوات المسبحة التي لا حصر لها في بيت جدّتي، ابتلينا بمسبحة من السرطان، هكذا، بسلسلة من اللآلئ المُميتة معقودة في الجلد. هذا هو ما استحقّت تلك الطفلة السعيدة البريئة على آثام أبي أو أمّي أو أجدادي أو أجداد أجدادي أو آثامي أنا أو آثامها هي... أو من يدري!

كانت "مارتا" في أيد أمينة، نوابغ الطبّ في العالم، في واشنطن أولًا ثمّ "ميديّين"، ومن بينهم أصدقاء ورفاق أبي بكلية الطب في الجامعة. العالم الدكتور "بورّيرو"، أفضل طبيب باطنة في المدينة، معين من العلم، أنقذ حياة آلاف العجائز والأطفال والشباب من كافة العلل والأمراض الأشدّ خطورة، من السرطان وأمراض الرئة، من قصور القلب والفشل الكلوي، إلّا أنه لم يستطع أن يفعل شيئًا من أجل "مارتا". كان الدكتور "بورّيرو" يذهب إلى البيت كل مساء، فلا يعين "مارتا" فحسب على تخفيف أوجاعها، بل يعين أبي وأمّي على الأخصّ، حتّى لا يفضي بهما الأسى إلى الجنون. كما كان يزورها "ألبرتو إتشاباريّا"، أخصائي أمراض الدمّ الذي نجح في إنقاذ أطفال من اللوكيميا الفتّاكة وعدد من المصابين بمرض الهيموفيليا، وتمكن من علاج الأنيميا المنجلية، إلّا أنه لم يستطع أن يفعل شيئًا من أجل "مارتا"، سوى الاقتصار على أخذ عينة الدمّ كل ثلاثة أيام، لعمل رسومات بيانية توضّح مكونات الدمّ وإرسالها بصفة دورية إلى الولايات المتحدة حتّى يتمكنوا من متابعة مفعول الدواء وكيفية تطور المرض بخطوات وئيدة نحو الموت. كان هناك أيضًا "إدواردو آباد"، أخصائي أمراض الرئة الكبير، وعمّ أبي، الذي كان يعالج مرضى السلّ وذات الرئة، بيد أنه لم يستطع سوى تأكيد تقدُّم النقائل إلى رئة "مارتا". والدكتور "إسكوريا"، طبيب القلب الأبرز، والذي نجح في انتزاع مصابين بأزمات قلبية من بين فكي الموت، وأجرى عمليات قلب مفتوح، وكان

مؤهلًا لإجراء أولى عمليات زرع القلب، ولكنه بدوره لم يستطع أن يفعل شيئًا من أجل قلب "مارتا" الذي أخذت تتدهور حالته أسبوعًا بعد أسبوع، فبدأ يُعاني من عدم انتظام ضرباته وتسارع معدلاتها وتشنّجات مؤقتة وأشياء من هذا القبيل، فربما كانت النقائل قد وصلت إلى هناك، كما وصلت إلى الكبد، والحلق، والمخّ، وهو أسوأ ما في الأمر.

كان أبي يغلق باب المكتبة على نفسه في بعض الأحيان، ويقوم بتشغيل إحدى سيمفونيات "بيتهوفن" بأعلى صوت، أو مقطوعة موسيقية لـ"مالر" (أغانيه المؤلمة عن الأطفال الموتى)، وأثناء عزف الأوركسترا لمقطوعة « con tutti»، وعلى خلفية أوتارها، كنت أسمع نحيبه، صرخاته اليائسة، لعناته التي يصبّها على السماء، وعلى نفسه، لأنه غبي، لأنه عديم الفائدة ولم يقُم باستئصال الشامات التي ظهرت في جسدها في الوقت المناسب، لأنه ترك بشرتها تسمرّ تحت أشعة الشمس في "كارتاخينا"، لأنه لم يتوسّع أكثر في دراسة الطبّ، ولأيّ سبب كان، خلف الباب الموصد بالمزلاج، غير قادر على تحمّل ما يحدث على مرأى منه، أخذت قرّة عينه تنساب من بين يديه، يديّ الطبيب، دون أن يقدر على عمل أيّ شيء لتجنب هذا المصير، باستثناء وخزها بالآلاف من حقن المورفين محاولًا على الأقل تخفيف إحساسها بالموت، بالألم، بتدهور جسدها المحتوم. كنت أجلس على الأرض، بجوار الباب، وكأنني كلبٌ لم يسمح له سيده بالدخول، فأسمع تأوهاته تتسلل عبر شقّ الباب السفلي، آتيةً من جوفه، من الأعماق، وكأنها آتية من مركز الأرض، بألمٍ فوق الاحتمال، تتوقف تأوهاته بعد ذلك فيما تستمر الموسيقى لوقت أطول، ثمّ يخرج وفي جفنيه حمرة، وعلى وجهه ابتسامة زائفة، مواريًا حجم ألمه اللانهائي، فيراني هناك، «ماذا تفعل هناك يا حبيبي؟»، ويساعدني على الوقوف، يعانقني، ثمّ يصعد إلى غرفة "مارتا" وأنا في أثره، راسمًا على وجهه السعادة ليرفع من روحها المعنوية،

ويقول لها إنها وبكلّ تأكيد ستبدأ في التحسّن في اليوم التالي عندما يُحدث الدواء تأثيره ويحقق العلاج مفعوله، ذلك المعجون المقزز، تلك الشَّرْبَة الضاربة إلى البياض التي تتلألأ بألوان قوس قزح، والتي أحضروها معهم من الولايات المتحدة ويجب عليها أن تتناولها باشمئزاز، ملعقة تلو ملعقة، دواء في طور التجربة أدّى إلى تدهور حالتها إلى الأسوأ، أسوأ كثيرًا، وفي النهاية لم ينفع بشيء، ربما لم ينجح حتّى في أن يعطينا الأمل. ثمّ قرروا إيقافه ذات يوم، فقد كانت نتائج الفحوصات التي يُجريها لها "إتشا" أخصائي أمراض الدمّ آخذة في التدهور من السيئ إلى الأسوأ، أسبوعًا بعد أسبوع.

كانت روحها المعنوية ترتفع قليلًا من آنٍ لآخر. كانت شاحبة اللون، تكاد تكون شفافة، وأخذ وزنها في التناقص يومًا بعد يوم. أطلّت الهشاشة من كلّ إصبع من أصابعها، وكلّ عظمة من عظام جسدها، ومن شعرها الأشقر الذي أخذ يتساقط خصلة خصلة. ولكن في بعض الأيام المُشمسة، كانت تخرج إلى الفناء صباحًا فتسير ببطء شديد، بالكاد تسير كالعجائز، وتطلب الجيتار، تُغنّي أغنية تفيض عذوبة تدور حول موضوع مُبهج، فتجيء الطيور الطنّانة تتنقل بين الزهور فيما تُغنّي. بعد ذلك أصبحت غير قادرة على التحرّك من غرفتها، إلّا أنها كانت تطلب الجيتار في بعض الأمسيات، وتُغنّي أغنيةً. كانت تُغنّي نفس الأغنية دائمًا في حال وجود أبي، أغنية لـ"بيبرو" مطلعها: «أبي رجلٌ طيب [...]»، وإلّا فكانت تُغنّي أغاني فرقتها، «رباعي هُنّ»، أو أغاني "كات ستيفنز" و"كاربترز" والـ"بيتلز" و"إلتون جون". حتّى جاء يومٌ طلبت فيه الجيتار، حاولت أن تُغنّي، فلم يصدر عنها صوت. حينئذٍ قالت لأمي، وفي عينيها ابتسامة تفيض حُزنًا:

- آهٍ، يا ماما، أعتقد أنني لن أعود للغناء مرة أخرى أبدًا.

ولم تعُد للغناء قط، فلم يكُن يصدر عنها صوت.

ذات يوم بدأ نظرها يتدهور إلى الأسوأ، فقالت: «بابا، لا أرى شيئًا، مجرّد أضواء وظلال تتحرك على سقف الغرفة، إنني أفقد بصري.» قالتها هكذا، بلا دراما، بلا نحيب، بكلمات مُحدّدة. تقول أمّي إنها غادرت الغرفة مذعورة، وجثت على ركبتيها في الصالة، على الأرض، طالبةً من القديسة "لوسيا" معجزة، صنيعًا صغيرًا، طلبت منها ألّا ترحل "مارتا" عمياء، حتّى وإن كانت راحلة لا محالة. في اليوم التالي عادت "مارتا" للرؤية مرة أخرى، ولم تشكّك أمّي يومًا في تلك المعجزة الصغيرة لأن "مارتا" توفيت في الثالث عشر من ديسمبر الموافق عيد القديسة "لوسيا". قد ينال الإنسان عزاءً وهو في عمق آلامه إذا قُضي بتخفيف العقوبة التي أوقعت عليه.

تردّ الأمراض العضال عقولنا إلى حالة بدائية، تجعلنا نعود إلى التفكير السحري. فنُعزي ظهور السرطان المباغت وغير المفهوم إلى قوى خارقة للطبيعة، لأننا لا نفهمه فهمًا جيدًا، ولا نستطيع علاجه (ناهيك عن علاجه عام 1972 عندما توفيت "مارتا"). ونعود إلى الأفكار الخرافية، والدينية: فهناك إله شرير، أو روح شريرة، يُنزل بنا العقاب في صورة جسم غريب، شيء يجتاح جسدنا ويفتك به، حينئذ تُقدّم القرابين والنذور لذلك الإله (الإقلاع عن السجائر، الذهاب إلى "خيراردوتا" زحفًا على الركبتين وتقبيل جراح المسيح صانع المعجزات، شراء تاج من الذهب مرصّع بالأحجار الكريمة للعذراء) فتُقام الصلوات وتُبدى مظاهر الذلّ أثناء رفع التوسلات إلى ذلك الإله. على الأقل هذا هو ما حدث لبعض أفراد العائلة. فعندما يتسلل اليأس تصبح كلّ الخيارات مُمكنة.

ثمّة وسيطة روحانية في "بيلين" صنعت معجزات شفاء: أحضروها! هناك ساحر من الأمازون يصنع العجائب بخلطة مصنوعة من الجذور: فلتتناول

الدهان! هناك راهبة أو كاهن، على اتصال مباشر بالسيّد الرب الذي يستجيب إلى طلباتهم: فليحضرا للصلاة من أجلها وسنقدّم لهما العطايا!

لم يكُن دواء واشنطن هو الشيء الوحيد الذي جربناه في البيت، فقد تمت تجربة كلّ شيء، بدءًا بالساحرات ومرورًا بالمعالجين بالطاقة الحيوية والطقوس الدينية بكافة أنواعها، دون أن نستثني سرّ مسحة المرضى المقدس. جرّبوا كلّ شيء، يائسين أكثر منهم مُشككين، ولكن بلا فائدة. لم يكُن أبي بطبيعة الحال يؤمن بتلك الضروب من السحر، إلّا أنه سمح بأن يجرّب باقي أفراد الأسرة ما شاءوا، طالما لم يكُن من شأن وصفات العلاج المُقترحة أن تؤذي "مارتا" أو تضايقها. كان يعرف بما يجري تمام المعرفة، ويستطيع التكهّن بما سوف يحدث أيضًا، حتّى إن الدكتور "بوزّيرو" بنفسه، الطبيب الباطني المُشرف على حالة أختي، قالها منذ أغسطس بقسوة تنطوي على الكثير من الكرم، فعلى الأقل لم يُعطِنا آمالًا زائفة: «ستموت الطفلة بحلول ديسمبر، ليس هناك ما يُمكن فعله.»

كانت العمّة "إينيس"، أخت أبي، تحضر إلى البيت مساء كلّ يوم ما عدا العطلات الأسبوعية، حينئذ كانت أختي "ماري لوس" تأخذ مكانها. ولأنها لم تكُن تكتفي بذلك، فقد كانت تأتي في الصباح أيضًا في بعض الأحيان. كانت أرملة، ذات قلب من ذهب كما يُقال، امرأة ناضجة، عذبة ورصينة، حانية بدون إفراط، كرّست حياتها لصنع الخير للآخرين فحسب. فأخذت تعتني بـ"مارتا" منذ عودتها من الولايات المتحدة كلّ ليلة بلا انقطاع، وتستريح ليلتي السبت والأحد، حينئذ كان يتناوب على العناية بها أكبرنا سنًا، "ماري لوس"، وكذلك "كلارا" منذ عودتها من "مورجان تاون" في نوفمبر.

أخذت أجساد أخواتي تزداد نحولًا بنفس الوتيرة على غرار "مارتا"، حتى انتهى بهن المطاف وقد أصبحن في نفس وزنها تقريبًا، فبلغ وزن "كلارا" خمسة وثلاثين كيلو، و"ماري لوس" ستة وثلاثين كيلو، أمّا أبي، ففي ردّ فعل مُعاكِس، أصبحت قمصانه أكبر بمقاسين وبدلاته أكبر بمقاس واحد خلال ثلاثة أشهر، إذ لم يكُن يتوقف عن الأكل حتّى أصبحت له هيئة مُستديرة كالبرميل.

كانت "مارتا" تحب رفقة العمّة "إينيس" كثيرًا، فقد كانت قليلة الكلام، تعرف كيف تتعامل مع المرضى. إذا استيقظت ليلًا، وأرادت أن يتحدّث إليها أحد، كانت العمّة تحكي لها شيئًا. فتحكي لها على سبيل المثال قصّة زوجها "أوليدو" الذي لقي حتفه أثناء هروبه من القتلة المحافظين الذين طاردوه بغرض قتله لمجرد كونه ليبراليًا، وكذلك قصّة صهرها "نيلسون مورا" أعزّ أصدقاء أبي الذي اغتيل على أيدي "القتلة" المُحافظين في شمال "بايّي"، بالقرب من "سيبيّا". عاشت العمّة "إينيس" سعيدةً لسنوات قليلة جدًا، ومع ذلك فقد حظيت بالوقت الكافي كي تنجب بنتًا وابنًا، "ليديا" و"راؤول". كانت أثناء الخياطة ومرافقة "مارتا" تُفكّر أن الرب أعطاها أكثر مما أعطى "مارتا"، والتي لم يتسنَ لها سوى أن تعرف حبيبين فحسب، "أندريس بوسادا" و"إيرنان داريو كابيد"، فلا زوج ولا أولاد. كانت "مارتا" تستشيرها بشأنهما، إذ لم تكُن متأكدة آنذاك أيهما تحبّ، فكلاهما يُعجبها بنفس القدر، "أندريس" لأنه موسيقي بارع، و"إيرنان داريو" لأنه وسيم. حتى جاء وقتٌ لم تعُد تُنازع نفسها فيه وقررت أن تحبهما معًا.

فكان يذهب "أندريس" و"إيرنان داريو" إلى البيت في ساعات مختلفة كلّ يوم، ففي البداية كان يذهب "أندريس" صباحًا و"إيرنان داريو" مساءً، حتى أصبحا يذهبان إلى البيت في نفس الوقت خلال الشهر الأخير، فيأخذ الأول بيدها اليُمنى والآخر بيدها اليُسرى. كان "أندريس" يُغنّي لها أغاني "سيرّات"، أمّا

"إيرنان داريو" فكان يرسم الضحكة على شفتيها. كانت أختي توضّح كيف وقعت في حبّ الاثنين لعمتي "إينيس" التي كانت تُفاجأ بعض الشيء بذلك المشهد، وإن وجدته جميلًا. ذات ليلة، وبينما العمّة "إينيس" تنسج بساطًا صنعته مع أخواتي خلال أشهر السهر، وما زالت تحتفظ به وكأنه كنز، أوضحت لها "مارتا" أن "أندريس" هو حبيب الروح، الحبّ الروحاني، أمّا "إيرنان داريو" فهو حبيب الجسد، الحبّ المُتّقد، ولذا فقد كانت تحبّ وجود كلّ منهما، هكذا تذكر عمتي القصة. بدا الأمر وكأن "مارتا" قد قرأت أفلاطون، وقرأت محاورته حول الحبّ التي شغف بها أبي وقرأها لي ذات يوم بصوت مسموع، بعد سنوات، والتي تدور حول إلهتي الحبّ، "باندیمیکا" و"سيليستي"، وهما بمثابة سمة ثابتة من سمات أعماق النفس، تلك النفس التي نجلبها إلى الدنيا بمولدنا وقد تشكّلت بالفعل، والتي يرجع لها الفضل في مقدرتنا جميعًا على التواصل فيما بيننا، وبسببها تنطوي كلّ المعارف على شيء من الذكرى غير المكتملة.

ذات ليلة أحد، مثل كلّ ليالي الأحد، كانت أختي "ماري لوس" برفقة "مارتا" بعد منتصف الليل. كانت "ماري لوس" حديثة السن، تركت المدرسة للزواج من "فرناندو" دون أن تتم عامها الأخير في المرحلة الثانوية، تبلغ من العمر عشرين عامًا، ورغم ذلك فقد كان لها ولد يُدعى "خوانتشي"، الحفيد الأكبر ومعبود أبي الجديد، بهجته الوحيدة وعزاؤه الأعظم طوال تلك الشهور التعيسة. وقد أنجبت طفلة أخرى بعد مرور عشرة أشهر على موت أختي، فسُمّيت باسمها، "مارتا سيسيليا"، وورثت عنها بهجتها وعذوبتها، وكأنما بفعل السحر. بعد موت ابنته، غمر أبي أحفاده بذلك الحبّ العظيم الضائع، وخصّهم بأيام وليالي كاملة قضاها في كتابة القصائد والمقالات، وعرّف حبّه نحوهم بوصفه شيئًا أسمى من الحبّ ذاته، بصفحات مشبوبة بالعاطفة إلى

درجة تكاد تبلغ حدّ الابتذال. ولكنّ خلال الساعات الأولى من صباح ذلك الأحد، استيقظت أختي المريضة في حالة سيئة جدًا قبيل مطلع الفجر، وقد تملكها شعور بالغثيان ونوبة من التقيؤ فوق الملاءات. ذعرت "ماري لوس" لمرأى ما أفرغته "مارتا" من جوفها، وهرعت خارجًا لتوقظ أبي:

- آه! بابا، بابا، أسرع، تعالَ، تعالَ، لقد تقيأت "مارتا" كبدها!

ولأول مرة طوال أشهر أخذ أبي يضحك.

- يا حبيبتي، مستحيل، لا يُمكن أن تتقيأ الكبد.

- بلى يا بابا، بلى، تعالَ وسترى، فقد احتفظت به هناك.

أخذت تصيح "ماري لوس". وضعت أختي الكبرى الكبد في قنينة معدنية بيضاء، حيث كانت توضَع الإبر المغليّة لزوم الحقن. كانت عبارة عن كتلة حمراء ذات مسام في حجم قبضة اليد. ولكن ما حدث هو أن "مارتا" في أواخر أيامها لم تكن تقبل سوى بأكل البطيخ. لم تكن تتقبّل أي نوع آخر من أنواع الطعام ما لم يكُن بطيخًا، فلم تكُن قادرة على ابتلاع الطعام، إلى الحدّ الذي كان يجعل خالتي "مونا" وزوجها "رافا" يُرسلان إلينا كميات هائلة من البطيخ (أو الـ"باتيّاس" كما كانا يسميانه) من "كارتاخينا" كل أسبوع، حتى يتسنى لـ"مارتا" أكل أجود أنواع البطيخ في البلاد. أمّا ذلك الشيء الذي لفظته فقد كانت قطعة بطيخ تبدو كالكبد. وربما كانت تلك هي المرة الوحيدة التي استطعنا أن نضحك فيها طوال تلك الأشهر، فضحكنا على براءة "ماري لوس" التي كانت لا تزال طفلة في عمر العشرين، رغم كونها سيدة تحمل طفلًا على كتفها.

لم يكُن البطيخ يأتي وحده، بل كان يصل كل جمعة مع "نورا"، ابنة خالتي وأعزّ صديقات "مارتا" التي كانت في نفس عمرها، فكانت خالتي وزوجها

يُرسلانها بالطائرة كلّ جمعة لتقضي العطلة الأسبوعية مع "مارتا". «أرسل إليكِ بخير ما عندي»، كان يقول زوج خالتي "رافا" إلى أمّي، ثمّ تصل "نورا" بحقيبة ملابسها وصندوق الـ"باتيّاس". كانت تبدر لفتات طيبة من هذا القبيل عن الكثير من صديقات "مارتا". وبسبب قول أختي بأن الوردة ذات اللون الوردي هي الأثيرة لديها (والتي انهمك أبي في زراعتها لاحقًا، على مدار عشرين عامًا، وكأنها صلاة خاصة يتلوها لابنته التي رحلت) كان الكثيرون يحملون إليها وردة كلّ يوم، مثل زميلة الدراسة "كلارا إيمّا أولارتي"، وكلٌّ من «حماتيها»، "ماريا إوخينيا بوسادا" أمّ "أندريس"، و"راكيل كادابيد" أمّ "إرنانديس داريو".

-29-

أخذ نظر "مارتا" في التدهور ابتداءً من أوائل ديسمبر. فقد قال طبيب الأعصاب إن المخّ قد أصيب بنقيلة بالفعل، وربما تكون قد سدّت بعض المَشابِك بمنطقة الإبصار عند وقتٍ معين، ولكن لحسن الحظّ، شُفيت الوصلات الدماغية بطريقة أخرى. توفيت "مارتا" في الثالث عشر، حين أسدل الليل ستائره، بعد أن قضت آخر أسبوعين بين آلام وتشنّجات وعناء. إلّا أنّ أختي لم تتحدث يومًا عن الموت، ولا كانت تريد الموت، ولا جال بخاطرها أنها ستموت. كانت تظنّ أن المشقّة والحمّى والآلام هي سبيل جسدها إلى الشفاء. كان ينتابها الذعر كلما أصيبت بتسارع معدّل ضربات القلب، فتطلب الذهاب إلى العيادة حتّى لا تموت، ثمّ بعد ذلك تطلب من العمّة أن تؤكّد لها على أن ذلك المرض سطحي للغاية، لأنه يصيب الجلد، ولذلك يمكن الشفاء منه. كان كلٌ من عمتي وأبي وأمّي يقولون لها أجل، بكلّ تأكيد، رغم أنهم كانوا يموتون في دخيلة أنفسهم بينما يقولون ذلك.

عندما جاءتها سكرة الموت، اجتمع أبي بالإخوة جميعًا في المكتبة، وكذب على كلّ منّا كذبة، فقال لـ"ماري لوس" إنه لو كان الموت من نصيبها هي لكانت المصيبة أشدّ مأساوية، فهي الابنة الكُبرى ولها طفل صغير أتمّ عامه الأول، وقال لـ"كلارا" نفس الشيء، فهي متزوجة ولها أسرة، أمّا "إيبا" فلم يدرِ تقريبًا ماذا يقول لها، عدا أن أهميتها عند أمّي تفوق أهمية "مارتا"، أمّا أنا فلأنني الابن الذكر الوحيد، و"صول" لأنها الابنة الصُغرى. إذن يجب علينا، في قلب كلّ ما نمرّ به، أن نعتبر أنفسنا سُعداء الحظّ وأن نتحلّى بالقوة لأن أسرتنا قد نَجَت، ولأننا سوف نتجاوز الموقف. إن "مارتا" - قال لنا - ستكون

الأسطورة الأجمل في تاريخ أسرتنا. أظنّ أنه كان لقاء حافلًا بالأكاذيب عديمة الجدوى والتعازي المُختلقة، ولم يكُن يجدر به أن يُجري هذا اللقاء قطّ.

كان في غرفتها يوم وفاتها كلٌ من أبي وأمّي والعمّة "إينيس" و"إيرنان داريو"، حبيب الجسد، والذي حلق شعره في وقتٍ سابق من ذلك اليوم، في حين كانت "مارتا" تقول دائمًا إن الرجل حليق الرأس يجلب الحظّ العاثر، وكذلك كان هناك الدكتور "خايمي بوزّيرو" (والذي زارها كل يوم طوال ستة أشهر دون أن يتقاضى مليمًا، دون أن يفعل شيئًا طوال تلك المدّة بخلاف محاولته التخفيف من عنائها وعنائنا. كان يقول لي دائمًا: «يجب عليك أن تكون قويًا وتساعد أباك، فهو مُحطّم. كُن قويًا وساعده.» كُنت أومئ برأسي أن أجل، دون أن أعرف كيف أكون قويًا، فما بالك بأن أساعد أبي. لم يكُن أبي يفعل شيئًا سوى حقن أختي بالمورفين مرة تلو الأخرى. بخلاف هذا، وبخلاف تدليلها والرفع من روحها المعنوية، لم يكُن قادرًا على القيام بأي شيء، عدا مُشاهدتها وهي في طريقها إلى الرحيل، يومًا بعد يوم، ليلةً بعد ليلة. كان العقّار يُضفي على وجه أختي ابتسامة صافية، إلّا أن الجرعة التي تحتاجها كي تبقى في حالة جيدة لساعات قلائل أخذت تزيد زيادة مستمرة. لم يعُد ثمة مكان في جسدها خالٍ من وخزات الإبر، ردفها، ذراعها، فخذها، تناثرت الوخزات فوق جسدها وكأنما قد لدغتها جيوش من النمل. كان أبي دائم البحث عن مكان حيث يمكنه حقنها مرّة أخرى، مُتمسكًا بمستوى من النظافة يليق بغرفة عمليات، فيقوم بتنظيف يديه وتعقيم الحُقَن التي كانت تغلي طوال ساعات، لتفادي إصابتها بعدوى عن طريق الإبر. فلم يكُن زمن الحُقَن التي تستخدم مرّة واحدة قد حان بعد. في تلك الأمسية الأخيرة، عندما قال الدكتور "بوزّيرو" إن "مارتا" تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأذن لأبي بأن يحقنها بالمزيد من المورفين، بجرعة أكبر حتى لا تشعر بالألم، حدث شيء يكاد يكون سخيفًا. لم يجد أبي إبرة مغليّة ومُعقّمة،

فثارت ثائرته وغضب من أمّي وعمتي "إينيس"، وأخذ يرعد ويزبد لعدم وجود إبرة نظيفة يُمكن استخدامها لحقن ابنته بالمورفين، «اللعنة!»، حتّى اضطر الدكتور "بورّيرو" أن يقول له، بعذوبة ولكن بصرامة: «"إكتور"، لم يعُد لهذا أهميّة.» ولأول وآخر مرّة طوال ثلاثة أشهر من المورفين، أقدم أبي على فعلةٍ لم يراعِ فيها معايير النظافة، وهي حقن أختي دون أن يغلي الحقنة أو الإبرة. عندما انساب السائل إلى أوردتها، حينئذٍ، ودون أن تنبس بكلمة، دون أن تفتح عينيها، دون تشنّجات أو غطيط، خمدت أنفاس أختي. وأخيرًا استطاع أبي وأمّي أن يجهشا بالبكاء أمامها، بعد ستة أشهر من ضبط النفس. نحيب، فنحيب، ثمّ نحيب. وحتّى يومنا هذا، لو كان أبي على قيد الحياة لم يزَل، لانهمرت دموعه كلما تذكّرها، مثل أمّي التي لم تكفّ عن البكاء، ولا يكفّ عنه أيٌّ منّا كلّما فكّر في الأمر. فالحياة بعد حادث كهذا، ليست بأكثر من مأساة سخيفة بلا معنى، لا يجدي معها أيّ عزاء.

جنازتان

-30-

«هلّلوا، هلّلوا، هلّلوا!» أخذ يهدر صوته الآتي من فوق المنبر، بينما يملأ الميكروفون ومكبرات الصوت صحن الكنيسة عن آخره بتلك الكلمة وحدها. ردّدها حوالي عشر مرّات، مُبدلًا بينها وبين مرادفها اللاتيني: «هلّلوا، هللويا، هلّلوا!» سعى ابن خال أمّي، "خواكين جارسيا أوردونيس" أسقف "سانتا روسا دي أوسوس"، إلى توديع "مارتا" على هذا النحو، ببهجة جارفة حسبما يبدو، لأن روحها قد بلغت ملكوت السموات لتوّها، وثمّة فرح عظيم في الآخرة، يستطيع رؤيته، لأن "مارتا" ستنضم إلى الملائكة والقديسين للترنُّم بتسبيح الرب. أخذ يصيح: «هللويا، هللويا، هلّلوا!»، في صدر كنيسة ازدحمت بحضور ليس في وسعهم سوى البكاء وسماع ذلك الأسقف، ذاهلين أكثر من كونهم مُشككين، في حين يُهلّل الأسقف مأخوذًا، مُرتديًا أعظم ثيابه فخامة، بألوانها الحمراء، والخضراء، والأرجوانية. «هلّلوا، هللويا، هلّلوا! فالرب يجرحنا أحيانًا في أعزّ أحبابنا، حتّى يُذكرنا بالديْن الذي في أعناقنا له. هلّلوا، هللويا، هلّلوا.»

عندما بلغت الموعظة تلك اللحظة، قال لي أبي هامسًا: «لا يُمكنني تحمُّل المزيد، أنا خارج لبعض الوقت»، وبينما أخذ المونسنيور يشرح السبب الذي جعله مُبتهجًا إلى هذا الحدّ (أسائل نفسي لو كانت بهجته غير صادقة، ولو كان مصدرها فرحته لرؤيتنا نُعاني على هذا النحو تحديدًا) خرجتُ وأبي إلى فناء كنيسة "سانتا تيريسيتا" بـ"لاوريليس"، وبقينا هناك حينًا، تحت أشعة

الشمس، أسفل زُرقة سماء لا تُبالي، في يوم مُشرق من أيام ديسمبر، مُشرق على غرار "جارسيا أوردونيس"، دون أن نتكلّم، دون أن نسمع كلمات الأسقف، حتّى بدأ ثلاثة من أعضاء «رباعي هُنّ» في إنشاد أغاني الفريق العذبة، فعُدنا للدخول كي ننال العزاء الوحيد الذي يشعر به المرء في غمرة حزنه، وهو الغوص في الحزن أعمق فأعمق، حتّى لا يعود قادرًا على التحمل.

وهناك انقسم حاضر أسرتي وماضيها، بموت "مارتا" الذي عصف بها، فلم يعُد مستقبل أيّ منّا كما كان. دعونا نقول إنه لم يُمكن لأيّ منّا أن يعود سعيدًا بمعنى الكلمة، ولا حتّى للحظات، فما إن نحسب أنفسنا سعداء لوهلة كنّا ندرك أن هناك من ينقصنا، وندرك أن أسرتنا ليست كاملة، وأنه لا يحق لنا أن نكون سُعداء في تلك الحال، إذ لم يعُد ممكنًا لسعادتنا أن تكتمل. حتّى سماء الصيف الصافية، سأراها وأسرتي دائمًا مشوبة بسحابة سوداء، عند نُقطةٍ ما في الأفق. عرفت بعد مرور سنوات أن أبي وأمّي لم يعودا إلى مُمارسة الحبّ منذ ذلك التاريخ قطّ، وكأن تلك المتعة بدورها قد حرّمت عليهما إلى الأبد، وإن استمر كلّ منهما في حبّ الآخر، بلا شكّ، وهو ما استطعنا رؤيته جميعًا في عناقهما الدافئ الأخوي صباح بعض أيام الأحد، عندما كانا يبقيان في الفراش حتّى وقت متأخّر، بيد أن ما لم نتمكن من رؤيته هو الضياع التام للعلاقة الحميميّة بينهما بموت "مارتا" إلى الأبد.

في التاسع والعشرين من شهار يناير عام 2006 ذهبت لتناول الغداء مع أمّي كعادتي كلّ أحد تقريبًا. وبينما نتناول الحساء في صمت، قالت لي تلك العبارة: «اليوم تتمّ "مارتا" عامها الخمسين.»

واصلت أمّي عدّ سنوات عمر "مارتا". لم تتجاوز أختي عمر السادسة عشرة قط (كان أمامها شهر واحد طويل لتتمّ السابعة عشرة) بل وكانت تصغر الابنة

الكُبرى بعامين، إلّا أن أمّي قالت: «اليوم تتم "مارتا" عامها الخمسين.» حينئذ تذكرت الورقة الذهبية الصغيرة التي طلب أبي صنعها للأطباء والأقارب الذين أحاطوها بعنايتهم في مرضها ("بوزّيرو"، "إيتشاباريّا"، "إينيس"، "إدواردو آباد"). قالت: «ليس الموت هو الذي يأخذ الأحباء، على العكس، فهو يحفظهم ويُخلّدهم في شبابهم الجميل. ليس الموت هو الذي يُبدّد الحبّ، بل الحياة.» يومئذ، وبدون حلوى أو شموع، احتفلت أنا وأمّي في صمت بعيد الميلاد الخمسين لـ"مارتا"، الخالدة في شبابها، والوفيّة في حبّها، تلك الطفلة التي ماتت، والتي قال عنها أبي مُعزيًا نفسه إنها لم تكُن يومًا، فهي ليست بأكثر من أسطورة جميلة.

-31-

بعد مرور خمسة عشر عامًا، وفي كنيسة "سانتا تيريسيتا" بعينها، حضرنا جنازة أخرى صاخبة، أقيمت في السادس والعشرين من أغسطس، بعد مقتل أبي مساء اليوم السابق. سهرنا مع جثمانه أولًا ببيت أختي الكُبرى "ماري لوس"، في الهزيع الأخير من الليل، استعدادًا لدفنه، عقب تسلّم الجثمان بعد منتصف الليل بتلك المشرحة التي عرفتها في طفولتي (نفس المشرحة التي أخذني أبي إليها لأتعرف على الميّت، وكأنه أراد أن يُعدّني للمستقبل). وكما جرت العادة في ذلك البلد، بلد الكوارث اليومية، أبدت الكثير من المحطات الإذاعية رغبتها في الحديث إلى أحد أفراد الأسرة. فكانت أختي الكُبرى هي الوحيدة التي وجدت الهدوء الكافي لذلك. وأثناء اللقاءات التي أجريت معها، أخذ بعض المسؤولين (العُمدة، والمُحافظ، وبعض أعضاء المجلس) يقدّمون لها التعازي على الهواء. ثمّ استُضيف المونسنيور "ألفونسو لوبيس تروخيّو" أسقف "ميديّين" على الهواء بدوره، وأبلغ أختي بمدى أسفه لتلك الفاجعة وأوصاها بالالتزام بالتسليم المسيحي. فشكرته أختي شديدة التمسّك بالكاثوليكية على الهواء.

ولكن بعد مرور ساعات قلائل، في حوالي العاشرة صباحًا، جاءت مُكالمة هاتفية من كنيسة "سانتا تيريسيتا"، التي تواظب على الحضور فيها أمّي وأخواتي، لتخبرهن بعدم إمكانية إقامة قدّاس الجنّاز المُقرر إجراؤه في الثالثة مساءً. فقد قام الكاردينال "لوبيس تروخيّو" بإجراء مكالمة إلى القسيس منعه فيها من إقامة القداس منعًا باتًا، نظرًا لأن أبي لم يكُن مؤمنًا، وباعتبار أنه لم يحضر القداس

الإلهي قط، لا في تلك الكنيسة ولا في أيّ مكان، فليس من المعقول - قال رئيس الأساقفة - أن تُرفع الشعائر الدينية من أجل شخص صرّح علانيةً بأنه ملحد وشيوعي. في الواقع، لم يكُن هذا صحيحًا، ففي التصريحات الدينية النادرة التي أدلى بها أبي، وعلى الرغم مما قد يبدو في ذلك من تناقض، أقرّ أبي دائمًا بأنه «مسيحي الديانة، ماركسي الاقتصاد، وليبرالي السياسة».

كان عمّي "خابيير" الكاهن، أخو أبي، هو الذي سيقيم قداس الجنّاز، وقد وصل بالفعل من "كالي" لمرافقتنا وإقامة القداس الإلهي. وحين علم بالأوامر الصادرة عن الكاردينال، توجّه العمّ إلى الكنيسة على الفور وأخذ يتناقش مع القسيس حول الأمر، فعرض أن يتحمّل بنفسه وبصفة شخصية كامل المسؤولية أمام رئيس الأساقفة، وإلّا فسوف تكون وصمة عار لو تراجعت العائلة عن إقامة قداس الجنّاز، الذي يعدّ بمثابة عزاء للعائلة. وجد "خابيير" أنه تكفي رغبة أمّي وأخواتي في إقامة الشعائر الدينية والجنازة، وهنّ المتمسكات بالكاثوليكية بشدّة. فالجنازة الدينية لا تُقام من أجل الفقيد، بل من أجل أسرته وأقاربه، ولذلك فإن معتقدات الميت ليست بذات أهمية كبيرة طالما فضّل الأحياء تشييع الفقيد على نحو معيّن. صحيح أن إرغام شخص مُلحد لم يعُد بوسعه اتخاذ القرار على حضور قدّاس وداع (إن جاز التعبير) يُعدّ بمثابة إهانة، ما كُنت أودّ أن يفعلوا بي هذا قطّ في موقف مماثل. ولكن أهمّ ما في الأمر أن أبي لم يكُن يعرف إذا كان مؤمنًا أم لا. وفوق ذلك، ليس هناك ما هو أشدّ إهانة أو قسوة من حرمان أرملة مؤمنة، تودّ التخفيف من ألمها عن طريق الأمل في الحياة الجديدة، من ذلك العزاء مهما كان ساذجًا أو غير منطقي. أمّا الكاردينال، فبأوامره الخالية من الشفقة، بدا وكأنه يردد كلمات "كريون" حين أراد أن يحرم جثمان شقيق "أنتيجون" من الدفن: «لا يغدو العدو صديقًا أبدًا،

ولا حتّى بعد موته.» وبدا عمّي، وكأنه يردد كلمات "أنتيجون" أخت "بولينيسيس": «لم أولد لمشاطرة البغضاء، بل لمشاطرة الحبّ.»

لم تكُن لدي أدنى فكرة عمّا حدث إلّا بعد مرور أيام، حين عرفت عن طريق خطاب احتجاج كتبته أمّي إلى "لوبيس تروخيّو"، وعند قراءته استطعت أن أردّد مرة أخرى بصوت مسموع اللقب الذي يخطر بذهني كلما فكرت في هذا الكاردينال، والذي أصبح اليوم رئيسًا لـ«المجلس البابوي للأسرة» في روما، اللقب الأكثر ملاءمةً له، والذي لن أكرره هنا بناء على نصيحة الناشر، وتحاشيًا لأن تتمّ مقاضاتي بدعوى السبّ (وليس بدعوى القذف). وافق القسيس على غضّ الطرف عن الأمر رغم خوفه، وفتح أبواب الكنيسة ليتمكن عمّي من إقامة القداس، ولكي يتسنى للآلاف المؤلفة من المُعزين توديع أبي. احتشد هناك جمع كبير، فقد قامت العائلة ومعها أشخاص كثيرون بتوجيه الدعوة إلى قداس التأبين من خلال التعازي التي نُشرت في الصحف، فضلًا عن أن واقعة الاغتيال قد حرّكت مشاعر خير من في المدينة، رغم أنها قد أدخلت السرور على قلّة قليلة. ولكن القسيس اشترط ألا تُعزف موسيقى على الأقل، فقداس موسيقي ربما يكون إفراط في التأبين. لم يردّ عمّي "خابيير" على قوله بشيء، بيد أنه حين شرع كورال الجامعة وعدد من الموسيقيين المجتمعين هناك في الغناء والعزف على نحو شبه تلقائي، لم يثنهم عن ذلك. كانت وعظته التي ألقاها وسط جداول من الدموع حزينة وجميلة في آن واحد. تحدّث عن استشهاد أخيه، ودفاعه عن أفكاره حتى الموت، وعن التضحية العظمى التي بذلها مدفوعًا بإحساس جارف بالتعاطف الإنساني والنفور من الظلم. صرّح عن اقتناع بأن هذا الرجل العادل لن يُدان في الآخرة، كما أدانه البعض هنا. هذه المرة لم نسمع صيحات «هلّلو، هللويا، هلّلوا»، بل همسات وعبارات مُتقاطعة تحاول أن تفصح عما نشعر به جميعًا، عن الحزن الجارف. سنظلّ مدينين للعم "خابيير" بالشكر ما حيينا

على ذلك العمل الشجاع، ولفتة التمرّد التي بدرت عن الكاهن التابع لطائفة الـ"أوبوس داي". فقد نالت أمي وأخواتي ذلك العزاء الغريب عنّي تمامًا، العزاء الذي يمنحه الأمل في العدالة الخارقة التي ستتحقق في العالم الآخر، وفي جزاء الأعمال الصالحة، ولمّ الشمل المُحتمل في الحياة الأخرى. لم أشعر بذلك العزاء، ولا استطعت أن أناله، ولكني أحترمه باعتباره شيئًا متأصّلًا في بيتي كالشهية المفتوحة أو الاعتزاز والفخر بكل ما فعل أبي خلال مسيرته في الدنيا.

سنوات الكفاح

-32-

لست أعرف في أيّة لحظة يتجاوز التعطّش إلى العدالة ذلك الحدّ الخطير الذي يتحول عنده إلى رغبة في الاستشهاد. فهناك إحساس أخلاقي عظيم السمو يحيق به خطر الفيضان والسقوط في الهوس المحموم بالنضال دائمًا. وثمّة ثقة تنطوي على قدر من التفاؤل، تتجلّى بشدّة في طيبة البشر، وتحمل المرء على الاعتقاد بأن إقامة الجنّة على الأرض مُمكنة بفضل «النوايا الحسنة» للغالبية العُظمى، ما لم تحدّ منها الريبة التي يتّسم بها العارفون معرفة وثيقة بالشرور المُتخفية في الطبيعة الإنسانية، والتي لا مفرّ منها. وربما كان أولئك المصلحون المتشددون من أمثال "سافوناررولا"، و"برونو"، و"روبسبير"، أشخاصًا يصنعون من الشرّ أكثر مما يصنعون من الخير رغم كلّ شيء. ويقول "ماركو آوريليو" إن المسيحيين - مجاذيب الصليب - يرتكبون خطأ فادحًا ببلوغهم حدّ التضحية من أجل فكرة بسيطة مفادها الحقّ والعدالة.

أنا على يقين من أن تلك الرغبة في الاستشهاد لم تنازع أبي قبل موت "مارتا"، ولكن أيّة عقبات كانت تبدو طفيفة بعد وقوع تلك المأساة العائلية، وأيّ ثمن لم يعُد يبدو لنا غاليًا كما في السابق. ففي أعقاب المصائب الجسام يمرّ حجم المشاكل بعملية تصغير وتقليص، وليس هناك من يأبه ببتر إصبعه أو سرقة سيارته على الإطلاق بعد موت ابنه. فالموت ليس خطيرًا في عيني من يحمل بداخله حزنًا بلا حدود، وحتّى إذا لم يرغب المرء في الانتحار، أو لم يكُن قادرًا على أن يرفع يده

ليلحق الأذى بنفسه، فإن خيار الموت على أيدي الآخرين من أجل قضية عادلة يصبح أكثر جاذبية طالما فقد بهجة الحياة. وفي اعتقادي أن حياتنا الشخصية تنطوي على مراحل تُحدّد القرارات التي نتخذها في حياتنا العامة.

إن حبّه المفرط نحو أبنائه، نفس الحبّ البالغ الذي شعر به نحوي، قد حمله على أن يذهب في حربه إلى حدّ الجنون في معارك مستحيلة وقضايا ميؤوس منها بعد سنوات من موت أختي. أذكر منها على سبيل المثال قضية واحد من ضحايا الاختفاء القسري، ابن دونيا "فابيولا لاليندي"، فتى في نفس عمري تقريبًا، وهي القضية التي تدخّل فيها بإصرار مُتعطّش إلى الثأر، إصرار جدير بأب، ربما بسبب ذلك التقارب العمري بيني وبين الفتى المُختفي لم يتحمل أبي فكرة عدم وجود من يريد مساعدة تلك الأمّ التي تبحث عن ابنها دون سند، مُستعينة فقط بقوّة الحبّ والحزن واللهفة.

غالبًا ما تكون الرحمة سمة من سمات الخيال، فهي القدرة التي تتيح للمرء أن يضع نفسه مكان الآخرين، أن يتخيّل ما قد يشعر به في حال عانى من موقف مماثل. ودائمًا ما اعتقدت أن قساة القلوب يفتقرون إلى الخيال الأدبي - تلك القدرة التي تمكننا من وضع أنفسنا مكان الآخرين، والتي نكتسبها من خلال الروايات العظيمة -، ودائمًا ما اعتقدت أن قساة القلوب ليسوا قادرين على إدراك حقيقة أن عجلة الحياة دوّارة، وأننا قد نقف مكان الآخرين في وقت ما، نذوق الألم، الفقر، القمع، الظلم أو التعذيب. إذا كان أبي قد استطاع أن يرقّ لحال دونيا "فابيولا" وابنها ضحية الاختفاء القسري، فهذا لأنه كان قادرًا على تخيّل ما قد يشعر به لو تعرض لموقف كهذا، لو اختفيتُ أو إحدى أخواتي في ذلك المكان الملبّد بالغيوم حيث يذهب ضحايا الاختفاء القسري، بلا خبر، بلا كلمة، وبدون حتّى ما تأتينا به الجثة الهامدة من يقين وتسليم بالموت.

ويُعدّ التعرّض للاختفاء القسري جريمة في نفس خطورة الاختطاف والاغتيال، بل وربما أبشع، فالاختفاء القسري حيرة خالصة، وخوف، وأمل بلا طائل.

وقد أصبح التزام أبي بالعمل الاجتماعي بعد موت أختي أقوى وأوضح. فاشتدّ ولعه بتحقيق العدالة وقلّ حذره وحيطته حتّى تبخرا تمامًا. وهو الأمر الذي تفاقم حين التحقت وأختي الصغرى بالجامعة، وأصبح بالإمكان القول بأن التزامه بتنشئتنا قد بلغ نهايته، ما لم أكُن مخطئًا. «ألن يكون موتًا جميلًا لو قُتلت بسبب أفعالي؟» كان أبي يتساءل عندما يقول له أحد الأقارب إنه يعرّض نفسه لخطر كبير حين يتندّد بحالات التعذيب، والاختطاف، والاغتيال، والاعتقال العشوائي، وهو ما كرّس له نفسه في السنوات الأخيرة من حياته، الدفاع عن حقوق الإنسان. بيد أنه لم يكن ليتخلّى عن ذلك بسبب مخاوفنا، بل وكان على يقين من أنه يقوم بما يجب عليه فعله. كما قال "ليوباردي": «حتّى يستطيع المرء التضحية بنفسه، لا بد وأن يكون شديد الاعتداد بها.»

خاض أبي أولى معاركه النضالية بعد موت "مارتا" في صفوف رابطة أساتذة جامعة "أنتيوكيا"، والتي كان يرأسها، واستطاع من موقعه بالرابطة أن يقود إضراب أساتذة الجامعة، بدعم من الطلاب، دفاعًا عن مناصبهم وضد رئيس الجامعة الرجعي ثاقب الذكاء، "لويس فرناندو دوكي"، والذي درس على يد أبي في نفس تخصصه، الصحة العامة، وكان يفترض به أن يكون صديقه لبعض الوقت، إلّا أنه أصبح غريمه وعدوّه اللدود فيما بعد، حتى بلغت كراهيته نحو أبي مبلغها.

وقد حدث ذلك في أواخر 73 وأوائل 74 (كانت "مارتا" قد توفيت في ديسمبر من عام 72)، خلال واحدة من تلك الأزمات التي تتكرر بصفة دورية، والتي تعاني منها الجامعة الحكومية في كولومبيا. فقد شغل منصب رئيس

الرابطة في عام 73 "كارلوس جابيريا"، أستاذ القانون الشاب الذي أصبح صديقًا حميمًا لأهل بيتي منذ ذلك الوقت. وفي ذلك العام، خلال الاشتباكات التي اندلعت بين الطلاب والجيش الذي فرض سيطرته على المدينة الجامعية بناء على أوامر رئيس الجامعة، سقط الطالب "لويس فرناندو بارّينتوس" قتيلًا على أيدي أفراد الجيش، فتسبب مقتله في إثارة الشغب، واستولى الطلاب الغاضبون على مبنى رئاسة الجامعة، فوضعوا الطالب القتيل الذي حملوا جثته على الأكتاف عبر كافة أرجاء الحرم الجامعي فوق مكتب رئيس الجامعة، ثمّ أشعلوا النيران في المقرّ الإداري للجامعة.

حينئذ قام "كارلوس جابيريا" بصفته رئيس رابطة أساتذة الجامعة بكتابة خطاب واضح الحجّة والنيّة، إلّا أن هذا الخطاب ظلّ يُشهر في وجهه طوال حياته لاتهامه بالتحريض. وقد كانت وجهة النظر التي دافع عنها في رسالته هي أنه في قلب سلسلة من الأحداث اللاعقلانية، أتى الطلاب بفعلة أخرى تفتقر إلى العقلانية، وهي حرق المبنى، إلّا أن أكثر الأحداث افتقارًا للعقلانية لم يكُن هذا، بل كان اغتيال الطالب، وهو ما اعتبره أشدّ خطورة، كما رأى أن رئيس الجامعة الرجعي "دوكي" يحمل وزر كلّ ما حدث، فهو الذي أراد أن يُخضع الجامعة لتصرفاته السلطوية، بإقالة الأساتذة أولًا، ثمّ سعيه إلى جعل دوريات الجيش تجوب أرجاء المدينة الجامعية ليلًا ونهارًا.

بعد أشهر قلائل تقلّد أبي منصب رئيس رابطة أساتذة الجامعة خلفًا لـ"كارلوس"، واضطرّت الرابطة لمواجهة اللائحة المنظمة لشؤون الأساتذة الجديدة، الصادرة من جانب واحد على يد رئيس الجامعة "دوكي" الذي استغلّ إعلان الأحكام العرفية في البلاد لفترة من الوقت حتّى يصدر لائحة من شأنها زعزعة الاستقرار المهني والأكاديمي للأساتذة. إذ أصبح بإمكان رئيس الجامعة وعمداء الكليات وفقًا للائحة الجديدة إقالة الأساتذة بدون أي مبرر

تقريبًا، والأخطر من ذلك أنهم قد بدأوا في استخدامها بالفعل لإقالة كل الأساتذة التقدميين، خلف قناع من الدوافع الأكاديمية والتأديبية. غابت حريّة الأساتذة، ووُضع كُلّ ما يقومون بتدريسه للطلبة تحت المراقبة الأيديولوجية، من خلال زيارات دورية تُجرَى أثناء المُحاضرات بدون سابق إنذار.

استمرّ الجيش في فرض سيطرته على المدينة الجامعية، فيما رفض أعضاء الرابطة التدريس في حضور القوات المسلحة. ذات مرّة قال "لويس فرناندو بيليس"، أستاذ الأنثروبولوجيا وعضو مجلس الرابطة، إنه يأبى التدريس في حضور الجيش الوطني، وجيش التحرير الوطني، ففي تلك الأيام كانت حركة التمرّد المسلحة بدورها تحاول اختراق الحرم الجامعي بغرض زيادة الفوضى والاضطراب.

كانت معركة طويلة، دارت في أواخر عهد حكومة "ميسايل باسترانا"، ولوهلة بدا أن رئيس الجامعة سينتصر. تمّت إقالة أكثر من مائتي أستاذ من مناصبهم، على رأسهم أبي و"كارلوس"، بسبب ذلك الإضراب. ولكن لحسن الحظ، تصادف صعود الرئيس الليبرالي "لوبيس ميتشيلسين" إلى الحكم في ذلك الوقت، فاستطاع أبي أن يعتمد على حليف في أعلى درجات الحكومة، كان قد سبق لأبي الانضمام إلى حركة مُعارضة ليبرالية بقيادته قبل ذلك بسنوات، تُدعى «الحركة الثورية الليبرالية».

كانت الإقالة من نصيب رئيس الجامعة "دوكي" في نهاية المطاف، واستطاع الأساتذة أن يرفعوا رايات النصر أخيرًا في معركة مهنية طويلة. أعيد الأساتذة المائتان إلى مناصبهم بعد أن طُردوا منها إلى الشارع، وبعضهم كانوا من خيرة أساتذة الجامعة ("خايمي بورّيرو" و"برناردو أوتشوا" وأبي في الطبّ، "كارلوس جابيريا" و"لويس فرناندو بيليس" في الحقوق، "أوجو لوبيس" و"سانتياجو بيلايس" ورافاييل آوباد" في الاقتصاد، و"داريو بيليس" في

الرياضيات). خرجت حريّة الأساتذة سالمة ذلك العام، بعد أن سعى "دوكي" لحرمانهم إياها، ورغم ذلك فقد ارتكبت وزارة التعليم فيما بعد خطأ بزيادة نسبة استيعاب الجامعة زيادة فادحة بلغت حدود الشعبوية، ولكي تتمكن الجامعة من تقديم خدماتها لأفواج الطلاب الجديدة التي تلتحق بها، ازدحمت بأساتذة غير مؤهلين ينتمي الكثيرون منهم إلى اليسار المتطرف (يسار عدواني وغير مُحبّ للتدريس الجامعي)، فبدأوا ينظرون لأشخاص من أمثال أبي و"كارلوس جابيريا" على أنهم برجوازيون على قدر من الانحلال والرجعية والمحافظة، لمجرد أنهم دافعوا عن الدراسة الجادة ولم يقبلوا بالقضاء على المستغلين والرأسماليين. في غضون أعوام قليلة انقلب الوضع من النقيض إلى النقيض، وانخفض مستوى الجامعة لأن الكثير من خيرة الأساتذة من حيث التأهيل الأكاديمي قد آثروا المغادرة وتأسيس جامعات خاصة أو الانضمام إلى الجامعات الخاصة القائمة بالفعل، بدلًا من الاضطرار إلى تحمّل أولئك المتطرفين الجدد ممن ينتمون لأسوأ أشكال اليسار الذي يجنح إلى العنف.

حوادث على الطريق

-33-

في نوفمبر من عام 1976، بعد أن أتممت الثامنة عشرة بقليل، يوم تخرّجت في الثانوية تحديدًا، وبينما أنا في طريقي إلى المدرسة في السيارة الصفراء طراز "رينو 5" التي أعارتني إياها أسرتي، ما لم تخُنّي الذاكرة، صدمت امرأة تُدعى دونيا "بيستابي" في الطريق بين "إنبيجادو" و"سابانيتا". كانت خارجة من القداس الإلهي، وقد لفت حول كتفيها وشاحًا، وأمسكت بكتاب صلوات القداس. أخذت تودّع أصدقاءها وهي تسير إلى الخلف دون أن تنظر إلى الطريق. كبحتُ السيارة بكل ما أوتيت من قوّة، أو بمعنى أصحّ، صدر صفير حاد عن الإطارات واختلّ توازن السيارة فحاولت أن أميل بها إلى الجانب الآخر، نحو حافة الطريق، إلّا أنني صدمت تلك المرأة صدمة مُباشرة، جعلتها تطير إلى أعلى. ارتطم ظهرها بأكمله بمانع الصدمات أولًا، ثمّ طارت فوق الزجاج الأمامي الذي تهشّم إلى آلاف الشظايا، ودخل جسدها للحظة إلى حيث جلست وابن عمّي "خايمي" داخل السيارة، ثم ارتدّت إلى الخارج حيث سقطت بلا حراك فوق الأسفلت. صرخوا جميعًا، النساء التقيات اللائي خرجن من الكنيسة معها، المارة، محبو الاستطلاع: «قتلها! قتلها! قتلها!». وتجمهر حشد كبير حول الجثة، ثمّ شرعوا في النظر والإشارة نحوي متوعدين. كنت قد ترجلت من السيارة، ومِلت فوق دونيا "بيتسابي". أخذت أصرخ «لا بد من نقلها إلى المستشفى، ساعدوني لأضعها في السيارة!» فلم يُساعدني أحد، ولا حتى ابن عمي "خايمي" الذي وقف مشدوهًا من أثر

الصدمة. مرّت واحدة من تلك الشاحنات ذات صندوق الحمولة المفتوح في الجزء الخلفي، فساعدني ابن عمي أخيرًا على وضعها في الصندوق، حيث أنزلنا الحمولة. ركبت معها في مؤخرة الشاحنة، وحدي، وأنا أظنّها قد فارقت الحياة. كانت قصبة الساق قد مزقت الجلد وأطلّت من باطن ساقها (بالضبط نفس الحالة التي وجدنا عليها عظام "جون"، فتى المشرحة). انطلقت آلة تنبيه الشاحنة التي أسرعت نحو مستشفى "إنبيجادو"، في حين أخرج السائق منديلًا أحمر من النافذة حتى يرى الناس أنها حالة طارئة. وصلت المرأة في حالة صدمة، فدخلت غرفة الإنعاش. تحدثتُ إلى الأطباء. وكأنه كابوس... شعرت كما لو كنت مجنونًا. لم أستطع تحمّل فكرة أن أقتل أحدًا. أفصحت عن هويتي. سبق لهم جميعًا وأن درسوا على يد أبي. اتصلوا به. كان يشغل منصب مدير التأمين الاجتماعي في "ميديّين". قال الأطباء: «السيدة في حالة صدمة وربما تفارق الحياة، نبذل كلّ ما في وسعنا لإنعاشها ونعمل على استقرار الحالة، وسنرسلها في سيارة إسعاف إلى عيادة "ميديّين" لتتلقى رعاية مكثّفة.»

واجهتنا مشكلة أخرى، فقد سأل الأطباء أبي عبر الهاتف:

- هل ابنك مُسجَّل في السجن الخاص بقادة السيارات؟

- كلّا.

- في تلك الحالة ربما يحتجز بسجن "بيّابيستا" إذا فارقت المرأة الحياة، في فناء مروّع، خطير، قد يقع له أيّ شيء هناك. لقد أصيب بجروح في ذراعه، يمكننا أن نُبقيه في المستشفى بينما تقومون بتسجيله في سجن السائقين، وهو ما يستغرق يومًا أو يومين.

فطلب منهم أبي أن يسألوني أين أريد أن أُحتجز حتى لا أودع بسجن "بيّابيستا". لم يرغب حتّى في الحديث إليّ، كان غاضبًا وعلى حقّ، فدائمًا ما كان

يقول لي إنني أقود السيارة بسرعة كبيرة. قُلت دون تفكير، أو بالأحرى قلت مُفكرًا في الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة، أي في الجنون الذي أصابني: «في مستشفى الأمراض العقلية.» فقال أبي الذي قلّما عارض شيئًا: «حسنًا». حينئذ قام الأطباء بخياطة رسغي الذي جرحته شظايا الزجاج الأمامي، ووضع ضمادة حول معصمي. استقرّت حالة دونيا "بيتسابي" التي أفاقت من الصدمة بفضل المحلول الملحي والمضادات الحيوية والمسكنات، ثمّ وُضعت في سيارة الإسعاف التي خرجت مُسرعة في اتجاه وسط مدينة "مديّين" بينما تدوي صفارة الإنذار. قال لي طبيب الطوارئ «أعتقد أنها ستنجو، فعلى الرغم من الجرح المفتوح في ساقها وإصابة القصبة وعظم الشظلية، والكسر الذي أصيبت به في الذراع والترقوة وعدد كبير من الأضلاع، يبدو أنه لا توجد إصابات في الأعضاء الحيوية أو الرأس. نأمل ذلك!»

أخذوني في سيارة أخرى إلى مستشفي الأمراض العقلية القائم في "بيّو"، حيث تمت إحالتي إلى أطباء الأمراض العقلية عند وصولي، دون أن يخبروهم بسبب إيداعي بالمستشفى، فأخذ الأطباء يتطلعون إلى الضمادة حول معصمي مُبتسمين، وهم على يقين من أنها مُحاولة انتحار. سألوني في أيّ شهر كُنّا، أيّ عام، أيّ يوم من أيام الأسبوع، وعن أسماء أجدادي وأعمامي وأجداد أجدادي. كنت مضطربًا، نسيت كلّ شيء. أخذ شريط الحادث يمرّ أمام عينيّ بلا توقف، دونيا "بيتسابي" تقفز في الهواء، صفير المكابح، جسدها ينفذ إلى داخل السيارة عبر الزجاج الأمامي وكأنه جسم حوت رمادي، ويرتدّ خارجًا، عظامها المُهشّمة إثر الارتطام. أخذت تلك الصورة المُتكررة تفقدني عقلي بحقّ.

أودعت في أحد العنابر مع ثلاثة آخرين مصابين بالجنون على نحو خطير، فبدأت أشعر بأنني مثلهم. أخذت أنتحب في صمت. رأيت دونيا "بيتسابي"، وتخيلتها في حفل التخرّج الذي لا أستطيع حضوره، حفل تسليم الشهادات.

دونيا "بيتسابي" في رأسي، وكأنها كابوس لا ينتهي، وكأنني مذنب، قاتل، مجرم خلف عجلة القيادة. كان هناك مجنون يردِّد نفس العبارة مرة تلو الأخرى، بصوت مسموع: «لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو"، لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو"، لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو"، لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو"». في حين أخذ يُردّد رأسي تلك اللازمة بدوره: «قتلت امرأة لتوي». كان أحد المجانين الآخرين في العنبر يجمع كتبًا مصورة لـ"جول فيرن"، وأراد مني أن أطالعها معه. ارتسمت على وجهه ابتسامة تحمل شيئًا من التلميح وهو يضع الكتب فوق ركبتيّ. أمّا ثالثهم فقد تطلع عبر النافذة، جامدًا، بلا حراك، دون أن ينبس ببنت شفة، ناظرًا نظرة جامدة خاوية نحو نقطة لامرئية، مشدوهًا. شعرت أنني سأجنّ معهم بالفعل. أخذت الشمس في المغيب، في حين لم أكن أعرف أيّ شيء عن الواقع على الإطلاق، لا عمّا يجري بالخارج، ولا عن حياة دونيا "بيتسابي" أو موتها. بدأ ذلك المحبس المريع يتحول إلى عالمي. شرعت أصرخ مناديًا المرضين: «أريد الاتصال ببيتي! أريد أن أعرف إذا كانت تلك المرأة على قيد الحياة! أريد التحدث عبر الهاتف، سأجنّ بحق ما لم تخرجوني من هنا!» ليس ثمة مكان أفضل من مستشفى الأمراض العقلية للإصابة بأمراض عقلية. حتّى أصحّ الأصحاء وأعقلهم يفقد صوابه بعد إيداعه في مستشفى الأمراض العقلية بأيام قلائل... ماذا أقول؟ بل يفقد عقله بعد ساعات قلائل. اقترب المجانين نزلاء العنابر الأخرى لسماع صراخي، هذياني، وأخذوا يسخرون مني قائلين: «إنه في حالة مزرية بحقّ، هدئوه، هدئوه، هدئوه، هدئوه.» بينما يصفقون بأكفهم على نفس الإيقاع لاستدعاء المرضين، وكأنها رقصّة أندلسية.

ثمّ حضروا بزيّهم الأخضر الداكن الخاص بممرضي مستشفى الأمراض العقلية. أمسك بي ثلاثة ممرضين عنوة، أنزلوا سروالي، وأعطوني حقنة أسفل

ظهري، طويلة، ثقيلة. لا أريد أن أصف تأثير ذلك العقار. رأيت دونيا "بيتسابي"، رأيت دماء، رأيت يديّ داميتين، رأيت عظامًا مُهشّمة، رأيت جنوني، كلّ الصور في نفس الوقت، دون أن أستطيع التركيز على أيّ شيء، ذكريات لا يربط بينها رابط تزحف على ذاكرتي، ذكريات عن صور بشعة لا تلبث أن تحلّ محلّها صور أخرى. لا أعرف كم من الوقت بقيت على تلك الحال. أظنّ أنني خلدت إلى النوم. عندما استيقظت في الصباح قلت لنفسي يجب عليّ أن أكون مريضًا نموذجيًا. سأكون هادئًا، ويجب أن أحاول إقناعهم بالسماح لي بإجراء مكالمة. نظرت حولي، نزيل يطالع كتب "جول فيرن"، والآخر نظراته تائهة مصوبة نحو الخواء، أمّا الأخير فما زال يردّد نفس النغمة الرتيبة: «لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو"، لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو"، لي أبناء أخ يزرعون الموز ويعيشون في "أبارتادو".» خطرت لي فكرة جيدة، بحثت عن محفظتي، كنت أحمل نقودًا.

«انظر، أعرف أنه أمر غاية في الصعوبة هنا، ولكني في حاجة لإجراء مكالمة هاتفية، مرة واحدة فقط. خُذْ. (أعطيته كل ما معي من نقود)، أعتقد أنه بهذا يمكن لحضرتك الحصول على إذن بالاتصال.» أخذ الممرض النقود بشراهة، ثم عاد بعد وهلة: «تعالَ.» أخذني إلى هاتف عمومي في إحدى الردهات، وأعطاني عملة معدنية. اتصلت برقم البيت الذي لم أكن قد نسيته، ولم أنسه حتّى اليوم، بعد مرور ثلاثين عامًا، رغم أن البيت لم يعُد هناك، ولم يعُد ثمّة أرقام هاتف مكونة من ست خانات في مدينتي: 437208. ردّت أختي "بيكي". «إن لم تخرجوني من هنا اليوم، في الحال، سأجنّ بحقّ ولن أشفى أبدًا. تعالوا سريعًا لتأخذوني، عدوًا، في الحال، حتّى وإن أودعت في السجن.» أخذت أبكي، ثم أنهيت المكالمة. أقسمت لي "بيكي" أنهم سيخرجونني. بعد مرور ساعة أو أكثر، مرّت وكأنها الدهر، وفعل خلالها زملائي في العنبر المستحيل

حتّى أصبح واحدًا منهم، جاء الممرضون ليأخذوني. طلب مني طبيب الأمراض العقلية التوقيع على مستند أقرّ فيه برحيلي بناء على اختياري وأبرئ ساحة مستشفى الأمراض العقلية من أيّة مسؤولية.

شهدت حالة دونيا "بيتسابي" تحسنًا وبدأت تتعافى، رغم أنها استغرقت عدّة أشهر كي تستقر تمامًا. ثمّ قامت أمّي بتوفير وظائف لأبنائها العاطلين عن العمل كحراس عقار أو عمّال نظافة في بعض البنايات. وكذلك بحث أبي عن عمل لآخرين. كانوا فقراء بشدّة، وقالت دونيا "بيتسابي" شيئًا مروعًا وحزينًا للغاية، ويُصوّر حقيقة هذا المجتمع: «إن هذا الحادث نعمة أنعم عليّ الرب بها لأنني كنت خارجة من القداس الإلهي، وطلبت منه أن يرزق أبنائي بعمل. ولكن كان لا بد أن أكفّر عن ذنوبي أولًا. وعندما كفّرت عن ذنوبي رزقهم الرب بعمل. إنها نعمة من عند الرب.» ذهبت لزيارتها مرّة واحدة وبعد ذلك لم أرغب في رؤيتها ثانيةً قط. كنتُ كلما رأيتها تمثّل أمام عينيّ شبحها، جثتها الهامدة التي لم تستجب سوى للحظة، حين ندت عنه التأوهات بوصولنا إلى مستشفى "إنبيجادو".

لو كانت قد لقت حتفها، لا أريد حتّى التفكير في الأمر، لربما كنتُ في مستشفى "بيّو" للأمراض العقلية حتّى الآن لم أزل.

«كنت تقود مُسرعًا جدًا - قال لي أبي - والعلامات التي تركتها الإطارات طويلة للغاية. لا يمكن لهذا الأمر أن يتكرر.» ورغم ذلك، فقد تكرّر بعد مرور عام ونصف العام بالكاد.

-34-

في أوائل عام 1978 ذهبت وأبي وحدنا إلى مدينة مكسيكو. فقد اختاره الرئيس "لوبيس ميتشيلسين" لمنصب مستشار ثقافي بالسفارة الكولومبية لدى المكسيك بناء على طلب السفيرة "ماريا إيلينا دي كروبو". كُنت قد أتممت التاسعة عشرة لتوي، وكانت أول مرة أستخرج جواز سفر (جواز سفر رسمي) وأوّل مرة أسافر خارج البلاد، وأوّل مرّة استقلّ طائرة دولية، وأوّل مرّة تُقدّم إليّ صينية طعام ساخن على متن طائرة. بدا لي كلّ شيء عظيمًا، مُهمًّا، رائعًا، وبدت لي الرحلة التي استغرقت خمس ساعات عملًا بطوليًا. وفي مدينة مكسيكو نزلنا أولًا في أحد المقرّات السكنية، ضرب من ضروب الشقق الفندقية، في تجمّع "روما" السكني، حيث كانت تُقدّم لنا خدمتي ترتيب الفراش وتنظيف الملابس.

كان القنصل، وهو شخص لطيف جدًا، ابن شقيق الرئيس السابق "تورباي أيالا". أمّا السفيرة، فقد كانت تعيش حياةً مُعذبة بعد أن مرّت بوزارة العمل مرورًا عصيبًا (إذ تصادفت فترة وجودها في هذا المنصب مع تعرُّض "خوسيه راكيل ميركادو"، القيادي بالنقابة العمالية، للاغتيال على يد اليسار، ودخول الأطباء في إضراب رهيب تسبب في احتضار المرضى في أقسام الطوارئ وولادة الحوامل في الردهات)، وربما كانت على يقين من أنها قد بلغت قمّة مسيرتها السياسية، ثمّ تهاوت من فوق تلك القمّة إلى الأبد. فلم تكُن سفارة كولومبيا لدى المكسيك بالنسبة لها بمثابة جائزة، بل منفى، ووداع الحياة السياسية في الوقت نفسه. وربما لهذا كانت تشرب أكثر مما ينبغي، وطلبت من أبي أن يتولّى تسيير الأعمال الروتينية

بالسفارة ويُغطّي ظهرها في المكتب، فقد أصبحت بلا رغبة في العمل في أيّ شيء. نزل أبي على رغبتها عن طيب خاطر، إذ كان يعتبرها صديقة مُقرّبة.

كُنّا ثنائيًا أخرق، أنا وأبي، ولم تصل أمّي حتّى شهر مايو أو يونيو، فقد كان عليها أن تستمر في العناية بشؤون شركتها في "ميديّين". لم نكُن نجيد الطهو، واشتملت وجبات الإفطار القليلة التي حاولت إعدادها على الخبز اليابس والبيض المحروق، فكُنّا نأكل بالخارج دائمًا. وقد أعارنا القنصل سيارة فولكس فاجن حمراء من طراز الخنفساء، تعلّمت التنقّل بها عبر طرق مدينة مكسيكو اللانهائية، حيث أغرب المسافات وأفظع أشكال الازدحام على وجه الأرض. كان الازدحام على الطريق الدائري في بعض الأحيان يستمر وقتًا أطول مما تستغرقه الرحلة إلى كولومبيا بالطائرة. فقد كان المرور يصاب بشلل تام، بكلّ بساطة، إلى الحدّ الذي يُمكن للمرء معه مطالعة كتاب، بينما العالم ما زال يدور من حوله وكلّ شيء ما زال يتحرّك، باستثناء المرور على الطريق الدائري. كُنت أقوم بتوصيل أبي إلى السفارة في "لا سونا روسا" في وقت مبكر جدًا، ثمّ أحظى بباقي اليوم لنفسي، وإن لم أكُن أعرف ماذا أفعل به، فجاء لنجدتي واحد من أصدقاء أبي، "إيبان ريستريبو" (زوج سكرتيرة أبي في كليّة الطب)، والذي هاجر إلى المكسيك قبل ذلك بعشرين عامًا. ومنذ ذلك الوقت، كلّما فكّرت في المكسيك أفكّر في "إيبان ريستريبو" وفي بيته الواقع بشارع "أماتلان" بتجمّع "كونديسا" السكني، حيث أقيم كلّما ذهبت إلى المكسيك، على مقربة شديدة من بيت "فرناندو باييخو"، صديق آخر لم أعُد أحظى به.

أعتقد أنني لم أقرأ في حياتي كما فعلت طوال تلك الأشهر التي قضيتها في المكسيك، فكنت أقرأ صباحًا بالمكتبة الرائعة القائمة في بيت "إيبان" الذي فتح لي أبوابها حتّى أقضي بها النهار وحيدًا، في صمت، برفقة الآلاف المؤلفة من الكتب الخاصة به، وأقرأ مساءً في الشقّة الصغيرة التي استأجرتها وأبي أخيرًا،

في تجمّع "إرّيجاسيون" السكني بشارع "بريسا لاس بيلاس"، والتي لم أعُد أذكر رقمها، لا أعرف سوى أنه كان هناك دبلوماسي فرنسي يسكن في الطابق الأعلى، علّمني أن أستمع إلى "جاك بريل"، أمّا سطح البناية فقد كان يضمّ حجرات صغيرة وقذرة حيث تنام الخادمات. وبعد أسابيع من البيض المحروق والقهوة الفورية، جاءت "تيريسا" من كولومبيا، وهي الخادمة التي عملت لدينا طوال العمر وما زالت تذهب كل خميس لكيّ ملابس أختي الصُغرى رغم تقاعدها. وحتّى يومنا هذا ما زالت تلك الرحلة إلى المكسيك هي أعظم مفاخر "تيريسا"، بل وما زالت محتفظة ببعض التعبيرات المكسيكية، حتّى لا يُداخل أحدهم الشكّ في أمجاد الماضي الذي عاشته عام 1978، بعد مرور ثلاثين عامًا على عودتها. وبوجود "تيريسا" معنا في البيت، وبفضل حفلات الاستقبال الدبلوماسية، بدأت وأبي في تناول الطعام الشهي من جديد، ربما أشهى من أي وقت مضى، وأصبحنا نحتسي النبيذ مع الطعام لأول مرّة، و نظرًا لعمل أبي في السلك الدبلوماسي كان النبيذ يصله حتّى مقرّ إقامته معفيًا من الضرائب. في بعض المرات، القليلة، بقيت في بيت "إيبان" لتناول الغداء مع «ندوة "أنجانجيو" الثقافية» التي كانت تترد عليها شخصيات رفيعة. كُتّاب مثل "تيتو مونتيرّوسو"، و"كارلوس مونسيبايس"، و"إيلينا بونياتوسكا"، و"فرناندو بينيتيس"، ورسامون مثل "روفينو تامايو"، و"خوسيه لويس كويباس"، و"بيسينتي روخو"، وممثلات مثل "مارجو سو" عشيقة "إيبان" سرًا وأفضل مديرة مسرح شعبي عرفتها المكسيك، فضلًا عن موسيقيين عظام مثل "بيريس برادو"، ومطربين وراقصين مثل "تونجوليلي" و"سيليا كروس". كان الغداء يستمر طوال المساء، حيث تُقدّم مئات الأطباق التقليدية من أطايب الطعام المكسيكي، مثل الدجاج بالصلصة الخضراء من "جالابا"، وسمك الدنيس الأحمر من "بيراكروس" (أو ما يسمونه هناك "واتشينانجوس")،

وصدور الديك الرومي (أو ما يسمونه هناك "واخولوتي") بالصلصة التقليدية لمدينة "بويبلا" أو بالصلصة البيضاء مع الصنوبر والتوابل، إلى جانب كافة أصناف لفائف الـ"تامال"، وأسماك مدينة "باتسوكارو"، وفطائر الفاصوليا بدهن الخنزير، والفلفل المحشو، ولحم الأخطبوط باللوز، والذرة بالكزبرة...

أذكر أن "بينيتيس" كان يودّعني دائمًا بنفس الطريقة: «أيها الشاب، أتمنى لكَ أن تكون في غاية السعادة»، ثمّ ينحني انحناءة مسرحية، وبخروجي إلى الشارع كانت تلك التحيّة تُصيبني بنوبة من الضحك والسعادة المفاجئة، إلى الحدّ الذي أضطر معه للقفز في الهواء لاستيعابها. حاولت العمل بقوله منذ ذلك الحين، دون أن أحقق نجاحًا يُذكر. ورغم ذلك فلم أتعرف في تلك الرحلة على من كُنت أشعر نحوهم بإعجاب أكبر وأتطلع لمعرفتهم، وهم "خوان رولفو" الكتوم نادر الخروج، و"جارسيا ماركيز" الذي لم يكُن ممن ينتمون إلى ذلك العالم، و"أوكتابيو باس" الذي قرأت كل ما كتب من شعر ومقالات خلال تلك الأشهر إلّا أنه لم يكُن يقابل أحدًا ما لم يطلب تحديد جلسة قبل ثلاثة شهور وكأنه البابا، وكذلك الشاعر الشاب الذي فتنت به وما زال يخلبني، "خوسيه إميليو باتشيكو"، إلّا أن الأخير كان يقضي نصف وقته في الولايات المتحدة. لم يكُن أيّ من "رولفو" و"باس" و"جابو" و"باتشيكو" ينتمي إلى «ندوة "أنجانجيو" الثقافية» الموقّرة، والتي كانت تتردّد عليها شخصيات سعيدة أكثر من كونها مشهورة، لا تأخذ حياتها أو عملها أو أيّ شيء بتلك الجديّة. ربما كان على المرء أن يختار في حياته ما بين أن يكون سعيدًا مثل "بينيتيس" أو مشهورًا مثل "باس". عسى أن نتحلّى جميعًا بالحكمة لاختيار أوّلهما مثل صديقي "إيبان ريستريبو"، أو "مونسيبايس" والأميرة "بونياتواسكا"، وهم سعداء أكثر من كونهم مشاهير، أو على الأقل سعداء بقدر ما هم مشاهير.

بقيت في المكسيك تسعة أشهر، حتّى شهر أكتوبر. أمّا أبي فقد بقي هناك حتّى ديسمبر، لمدة عام واحد، وما أودّ توضيحه هنا هو أنه قد سمح لي بقضاء تلك الإجازة التي دامت تسعة أشهر وكأنها فترة حمل بدون أيّ نوع من أنواع الضغط، لا الأكاديمي ولا الوظيفي، دون أن أدرس شيئًا أو ألتحق بالجامعة، لم أكن أفعل شيئًا سوى القراءة بينما أتمتع بالحياة وأرافقه في حياته الدبلوماسية من حين لآخر. أذكر على وجه الأخصّ أنني قرأت فيما قرأت من كتب كثيرة « La Recherche» لـ"بروست"، بشغف وتركيز ربما لم أعُد للشعور بهما في أيّة قراءة أخرى قط. لو أن ثمّة قراءات أساسية في حياتي، ففي اعتقادي أنها كانت خلال فبراير، مارس، إبريل، تلك الأشهر التي قضيتها في قراءة الملحمة الـ"بروستية" «البحث عن الزمن المفقود» (في طبعة "أليانسا"، الأجزاء الثلاثة الأولى من ترجمة "بيدرو ساليناس"، أمّا باقي الأجزاء فمن ترجمة "كونسويلو بيرخيس") وقد تركت في حياتي كإنسان أثرًا لن يفارقني إلى الأبد. وهنا أؤكد أنني أردت أن أفعل مثل "بروست" بالضبط، فأقضي حياتي في المطالعة والكتابة. لقد وضع اسمان عظيمان علامات الطريق في الأدب خلال القرن العشرين، هما "جويس" و"بروست"، وأظن أن اقتفاء أثر أحدهما أو تفضيل الآخر بالنسبة للتذوّق الأدبي هو أمرٌ في أهمية الاختيار بين اليمين واليسار بالنسبة للسياسة. إذ يصيب "بروست" البعض بالضجر في حين يخلبهم "جويس"، أما أنا فيحدث معي العكس تمامًا.

أعطاني أبي الإذن بألّا أفعل شيئًا، بدا له كافيًا أن أقرأ وأتعرّف على حاضرة عظيمة بما فيها من دور سينما وحفلات موسيقية ومتاحف. الأمر الآخر الذي قُمت به كان الاشتراك في عدد من ورش العمل الأدبية في "كاسا دل لاجو". ورشة شعر مع "دابيد أويرتا"، وورشة قصّة قصيرة مع "خوسيه كولينا" وورشة مسرح لم أعُد أذكر مع من. وفي المساء، كُنت أحضر ورشة عمل أخرى أكثر خصوصية في "كاسا دي إسبانيا" مرة واحدة أسبوعيًا، مع أستاذ عظيم من أمريكا الوسطى، لم

أعرف عنه شيئًا بعد ذلك، الأستاذ "فيليبي سان خوسيه"، تلميذ "روبين داريو"، الرجل ذو الثقافة الأدبية الهائلة، والسخاء غير المحدود الذي كان يظهر في تعليقاته حول كتابات الطُّلاب. ومعه أجريت أوّل اتصال جاد بأدب «العصر الذهبي الإسباني»، والرواية الإسبانية المعاصرة. مرّت تلك الأشهر مرورًا بطيئًا، إذ قضيتها في الفراغ، والقراءة، وغياب الإرادة، والسعادة.

وفي منتصف ذلك العام كتب جدّي "أنطونيو" خطابًا إلى أبي، يعبّر فيه عن قلقه الشديد. فقد نما إلى علمه أنني، في حياتي المثالية الـ"بروستية"، أقضي أيامي بأكملها مستلقيًا على السرير، أو الأريكة، أطالع روايات بلا نهاية وأحتسي رشفات من نبيذ "سوترن"، وكأنني عانِس منعزلة عن العالم، أو كأنني "أوبلوموف" المناطق الاستوائية، أو شابٌ مغناج ومُخنّث من شباب القرن الحادي والعشرين. لم يكُن ثمّة ما يبدو له أشدّ إثارة للقلق بشأن تكوين شخصيّتي ومستقبلي بخلاف هذا الأمر الذي إذا نظرنا إليه من الخارج، من خلال عينيّ تاجر ماشية نشيط وعملي، أو حتّى من خلال عينيّ اللتين أرى بهما اليوم، يجدر بي الاعتراف بأنه كان يبدو مشوبًا بالانحراف، وربما كان جدّي على حقّ. بيد أن أبي، وكما فعل معي طوال حياته، عندما قرأ ذلك الخطاب لم تبدر عنه سوى ضحكة مجلجلة، ثمّ قال مُعلقًا إن جدّي لا يفهم أنني أُجري دراستي الجامعية بمفردي. من أين أتى بتلك الثقة التي وضعها فيّ، رغم أعراض البلادة المخيفة التي أبديتها؟

في مارس قُمنا بالأولى من بين رحلات عديدة إلى الولايات المتحدة عبر الطريق البرّي، في سيارة القنصل الفارهة من طراز "بي إم دبليو" التي أعارنا إياها. كانت أوّل مرّة أدخل فيها إلى ذلك البلد الشاسع، حيث دخلنا من خلال "لاريدو" على حدود "تكساس". كُنّا ذاهبين لزيارة اثنين من طلّاب أبي، أولهما في "سان أنطونيو" وهو أخصائي التخدير "إكتور ألبيار"، أمّا الآخر في

"هيوستن" وهو جرّاح التجميل "أوسكار دومينجيس". كما ذهبنا لشراء سيارة معفاة من الضرائب نظرًا لعمل أبي في السلك الدبلوماسي. اشترينا سيارة هائلة الحجم من طراز "لينكولن كونتيننتال" بكلّ الرفاهيات التي لم يسبق لنا وأن رأيناها قطّ، علبة تروس أوتوماتيكية، زجاج كهربائي، مكيّف هواء، كراسي ومرايا يتمّ التحكم فيها عن طريق الأزرار، موتور هائل الحجم يبتلع البنزين وكأنّه سكير يزدرد زجاجات خمر "مسكال". أذكر كيف كنت أتنقل بتلك السيارة هائلة الحجم، البيضاء، عبر دروب منتزه "تشابولتيبيك"، في طريقي إلى "كاسا دل لاجو"، حيث أتلقّى دورات الأدب المُتأنية، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، ومظهري يدلّ على أنني مراهق يجمع بين الذكورة والأنوثة، بطيء النمو، يكاد يكون في طور الطفولة لم يشبّ عنه بعد، لا يزال يافعًا، هزيلًا، شهوانيًا. كُنت أشعر وكأنني "بروست" في سيارة مكشوفة فارهة على أحدث طراز، ذاهب لزيارة دوقة "جيرمانت"، وفي الطريق أتبادل الحديث عن زهور الكاتليا مع "أوديت دي كريسي". لست أذكر أيًا من زملائي في تلك الدورات التدريبية فيما عدا الفتاة التي دعتني ذات مرّة إلى بيت والديها في "بولكانو"، وهما من أصحاب المصانع بالغي الثراء، ما لم أكُن مخطئًا. من الظاهر أننا لم نقطف بتلات الكتاليا يومًا. ربما أذكر زميلين آخرين. كانت هناك طالبة فاتنة في "كاسا دي إسبانيا"، امرأة في الثلاثين من عمرها، كانت عشيقة الأستاذ "سان خوسيه"، وطالب آخر نابغة، لأبوين من أعراق مختلفة، كان يكتب رواية تاريخية حافلة بالأشعار حول سكان "تكسكوكو" في زمن وصول "إيرنان كورتيس". و أذكر أن الأخير قد قال لي في آخر أيام الدورة التدريبية، يوم ودعتهم قبل العودة إلى كولومبيا: «يا "إكتور" أحدّثك بمنتهى الجديّة، أرجوك، لا تتوقف عن الكتابة أبدًا.» وهو الطلب الذي بدا لي غاية في الغرابة، وكأنه قد أشار عليّ بألا أتوقف عن الحياة. ومنذ ذلك الوقت، ورغم أنني لم أنشر أوّل كتاب لي قبل مرور عشر سنوات، لم يُداخلني أدني شكّ حيال ما أريد فعله في حياتي. وفي المكسيك كتبت القصّة القصيرة التي فازت بالمسابقة الوطنية في

العام التالي: «أحجار الصمت». وأعتقد أنني مدين لكل من "خوسيه دي لا كولينا" و"فليبي سان خوسيه" بالتصويبات التي جعلت من القصّة أقلّ سوءًا. كما أدين لـ"دابيد أويرتا" ابن "إفراين" بأنني هجرت كتابة الشعر إلى الأبد، اللون الأدبي الذي خلت نفسي موهوبًا فيه أكثر من أي لون آخر، والذي يبدو أنني غير مناسب له منذ ذلك الحين، وكلما خطر لي بيت من الشعر آثرت مواراته في فقرة نثرية بدلًا من نشره.

بيد أنه كان عامًا من الألفة المفرطة بيني وبين أبي، العام الذي أدركت فيه كذلك أنني لا بد وأن أنفصل عنه، حتّى وإن كان السبيل إلى ذلك قتله. لا أريد أن يبدو قولي فرويدي، فأنا أعني ما قلت بالحرف الواحد. إن أبًا بهذا القدر من المثالية، قد يبلغ حدًّا لا يُطاق. رغم أن كلّ ما تفعله يروق له (أو بالأحرى لأن كل ما تفعل يروق له)، فعند وقت معيّن، وبسبب عملية ذهنية مُرتبكة وجنونيّة، ترغب في ألّا يكون ذلك الإله هناك كي يقول لك جيّد دائمًا، نعم دائمًا، كما شئت دائمًا. وكأن المرء في أواخر سنّ المراهقة، على أيّة حال، ليس في حاجة إلى حليف بل إلى خصم. إلّا أنه كان من المستحيل أن أتشاجر مع أبي، ولذا فقد كانت الطريقة الوحيدة لمواجهته هي أن أجعله يختفي، وإن لقيت حتفي بدوري أثناء المحاولة.

أعتقد أنني في الواقع لم أتحرّر منه، من حبّه المفرط، ومعاملته المثالية، ومن حبّي المفرط نحوه، حتّى ذهبت للعيش في إيطاليا مع "باربارا"، زوجتي الأولى وأمّ ولديّ، في عام 82. ولكن ذروة الاعتماد الكلّي على أبي والمشاركة الوجدانية معه كانت في المكسيك، وأنا في عمر التاسعة عشرة، في عام 1978، وهو الوقت الذي أردت أن أقتل فيه أبي كما قُلت، أقتله وأقتل نفسي، وسوف أروي لكم القصّة باختصار شديد، فهي ذكرى لا أحب استحضارها لما تحويه من حيرة وإبهام وعنف، رغم أن شيئًا لم يحدث في الحقيقة.

كُنّا عائدين من تكساس عبر طريق مُنعزل في شمال البلاد، بسيارة عتيقة شديدة القوّة (فقد سُرقت السيارة الأولى بعد أن أخذناها إلى مكسيكو بأسابيع قلائل)، ضخمة وكأنها سيارة نقل الموتى، أعارها لنا تلميذ أبي "أوسكار دومينجيس" بدلًا من السيارة الـ"لينكولن" المسروقة. كانت صحراء مترامية الأطراف، بديعة في عُزلتها. حينئذ شعرت بما يُشبه الرغبة الانتحارية المفاجئة، وأسرعت بالسيارة بلا تفكير. انطلقت بالكاديلاك الخردة شديدة القوّة بسرعة ثمانين، فمائة، فمائة وعشرين ميلًا (أي ما يُعادل مائتي كيلو متر في الساعة). أخذت السيارة تهدر وتنتفض بينما يرتجف هيكلها كصاروخ على وشك الانطلاق عن سطح الأرض، في حين داخلني إحساس بأننا سنلقى حتفنا، ورغم ذلك لم أتوقف عن الضغط على الدواسة بكل ما أملك من قوة، بينما تنازعني رغبة في الانتحار. كان أبي إلى جواري، نائمًا. كان كلانا سيلقى حتفه للتو في الصحراء. لا أعرف إذا كنت قد فكرت في الأمر، ولكن في اللحظة التي ظهر فيها قطيع من الماعز أمامي على الطريق، على بُعد أمتار، لمحت الموت أمام عينيّ، كبحت السيارة بكلّ ما أوتيت من قوة، كما سبق وأن كبحت السيارة يوم صدمت دونيا "بيتسابي"، فتحمّل العملاق الأمريكي العتيق الفرملة بالغة الطول دون أن ينحرف أو ينقلب، مُتأرجحًا على أصوات ضجيج آتٍ من الجحيم، بينما يتقافز قطيع الماعز على الجانبين، وقفزاته الهائلة ترسم أقواسًا داكنة في الهواء، في حين أخذ يصيح الراعي ملوحًا بذراعيه، راسمًا ما يشبه أجنحة طاحونة الهواء، إلّا أننا لم نرتطم بشيء، ولا حتّى بذنب أو قرن واحد، وتوقفت السيارة في النهاية دون أن يمسسها أذى، بعد أن تجاوزت القطيع المذعور ببضعة أمتار. أفاق أبي مفزوعًا على الضجيج وصوت المكابح، بالكاد يشدّه إلى الكرسي حزام الأمان. ودون أن ينبس بكلمة واحدة، بدا أنه قد تفهم كلّ شيء، فجعلني أبدل مكاني في صمت، وقاد السيارة وصولًا إلى مكسيكو رغم كونه قائد سيارة مريع، بسرعة 50 كيلومترًا في الساعة، لنستغرق نصف يوم في الطريق، دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

رجل الحقّ والإنسانية

-35-

في عام 1982، بعد ذهابي للعيش في إيطاليا لأول مرّة بأشهر قلائل، وقبل أن يتمّ أبي عامه الواحد والستين بقليل، تلقّى رسالة مُقتضبة من سكرتير شؤون العاملين بجامعة "أنتيوكيا"، أخطره فيها بضرورة التوجّه إلى المكتب المُشار إليه لإنهاء إجراءات التقاعد الفوري، بلهجة فاترة وبيروقراطية. تلقّى الخبر غير المتوقع بالمرّة وكأن مطرقة قد هوت على رأسه. وتذكر تلميذته المفضلة "سيلبيا بلاير"، التي كانت قد عُيّنت أستاذة لتوها، أن معلمّها العجوز قصدها في مكتبها مُنهمرًا في البكاء، وقد تلوّنت عيناه بلون الدماء، (كان أبي يبكي دون خجل، كأبطال "هوميروس" وليس كأبناء الصلابة الإسبانية)، فقد كان يرى أن الجامعة، حيث درس لسبع سنوات وعمل أستاذًا لخمسة وعشرين عامًا أخرى، يستحيل أن تطرده إلى الشارع كالكلاب لمجرد أنه قد أتمّ عامه الستين، دون حتّى أن تشكره على العمل الذي كرّس له حياته كاملةً، باستثناء بعض الأوقات المستقطعة القصيرة التي قضاها حول العالم. فقد سبق له وأن مثّل الطلاب أمام المجلس الأعلى، وافتتح قسم الطبّ الوقائي، وأسّس الكلية الأهلية للصحة العامة، وعمل أستاذًا تخرجت على يديه أجيال من الأطباء المتخصصين بمجال الصحة العامة، وخاض إضرابات دفاعًا عن أساتذة الجامعة التي رأس هيئة التدريس بها عددًا من المرات، وسبق لكلّ أطباء "أنتيوكيا" تقريبًا وأن درسوا على يديه، ورغم كلّ ذلك سيُطرد إلى الشارع بين عشية وضحاها، سيحال إلى المعاش بلا أدنى اعتبار.

في كتابه الثاني «رسائل من آسيا»، والذي كتبه أثناء تواجده في الفلبين، أكّد أبي أنه قد أصبح أستاذًا أبكر مما ينبغي، وأن المعلّم الحقيقي يبلغ تلك المنزلة بعد سنوات من النضج والتأمّل. كتب أبي: «ما أكثر الأخطاء نرتكبها إذ نسعى إلى التعليم قبل إدراك النضج الروحي والهدوء العقلي اللذين تمنحهما لنا التجارب والمعارف الكُبرى في أواخر العمر. فلا مجرّد المعرفة يعني الحكمة، ولا الحكمة وحدها تكفي. بل إن المعرفة والحكمة والخير كلّها أشياء ضرورية لتعليم الآخرين. وحريّ بنا، أعني كلّ من بلغ منزلة المعلّم ذات مرّة قبل أن يُدرك الحكمة، أن نطلب الصفح من تلاميذنا عن الضرر الذي أوقعناه بهم.»

والآن، وفي الوقت الذي شعر فيه بقرب بلوغه تلك المرحلة من حياته تحديدًا، في الوقت الذي لم يعُد للغرور عليه تأثير، ولم يعُد لطموحاته ثقل، وأصبح أقلّ استرشادًا بالشغف والعواطف، وأكثر استهداءً بعقلانية ناضجة شكّلتها مصاعب كثيرة، حينئذ، يطردونه إلى الشارع. ورغم أن التعليم عند أبي لا يمُتّ بصلة للروح القتالية التي تتسم بها الرياضة، ولا الجمال الكائن في اندفاع الشباب، فقد اقترن في رأيه بالنُضج والحكمة الرصينة التي يزيد احتمال إدراكها مع مرور السنوات. لا بأس من إحالة الأساتذة على المعاش طالما كانت تلك رغبتهم، أمّا في حال احتفظ الأستاذ بقدراته الذهنية، وأدرك النضج والرصانة اللازمين لمعرفة ما يهمّ بحقّ في مهنته، ورغب تلاميذه في استمراره، فإن حرمانه من مواصلة التعليم بين عشية وضحاها يُعدّ إهدارًا لقيمة كبيرة وجريمة بحقّ. ففي أوروبا، والشرق، والولايات المتحدة لا يُستبعد كبار الأساتذة من مناصبهم إذا تقدّم بهم العمر، بل تُوَفّر لهم المزيد من الرعاية أولًا، ويتمّ التقليل من مهامهم الأكاديمية، ولكن يُسمَح لهم بالاستمرار في الجامعة على اعتبار أنهم معلمو المعلمين، فيقفون جنبًا إلى جنب مع الطلاب وباقي الأساتذة في مرحلة نضجهم الفكري. وفي الواقع أبدى الكثير من الطلاب احتجاجهم على

تقاعد أبي الإجباري، وكتبت "سيلبيا بلير" خطابًا حادًّا وزعت منه نسخًا بالآلاف على الطلاب، قالت فيه إن الجامعة التي تحيل خير معلميها على المعاش ضد رغبتهم، لمجرّد تعيين ثلاثة مُحاضرين شباب بدوام جزئي ورواتب أقلّ، رغم افتقارهم إلى التجربة في الدنيا أو المادة التي يريدون تدريسها، هي جامعة بلا مستقبل. لقد آلمه بشدّة ذلك المعاش الذي فُرض عليه قسرًا، بيد أنه لم يكدّر حياته لوقت طويل، فقد صرّح ببساطة خلال حفل تكريم أقامه له أعزّ تلاميذه بأنه سوف يحيا حياةً أسعد، ويُكثر من قراءته، ويقضي وقتًا أطول مع أحفاده، ويكرّس وقته لـ«غرس الورد والصداقات» فوق كلّ شيء. وقد كان. فأصبح يمضي ثلاثة أو أربعة أيام أسبوعيًا، من الخميس إلى الأحد، في مزرعة "ريونيجرو"، يعتني بشجيرات الورد طوال الصباح، فيعمل على تطعيمها ويجرّب تهجينها ويجزّ العشب عن الأرض ويشذّب النباتات، ثمّ في المساء يقرأ ويستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، أو يُعدّ برنامجه الإذاعي المسمّى «التفكير بصوت مسموع»، أو يُعدّ مقالاته الصحفية. عند المغيب كان يزور صديقه العزيز، الشاعر "كارلوس كاسترو سابيدرا"، ثمّ يعود للقراءة ليلًا حتّى يغالبه النعاس. أخذت الشجيرات تزدهر بأكثر أنواع الورد غرابة، في رأيه ورأينا جميعًا، وكأنها حديقة ذات دلالة وقيمة كبيرة بحقّ. عندما سُئل عن التمرّد في آخر لقاء أجراه، في أواخر أغسطس لعام 1987، قال في إشارة إلى شجيرات الورد: «لا أريد أن أخسر القدرة على التمرّد. لم أكن رجلًا جاثيًا قط، فلم أجثُ سوى أمام الورد الذي غرسته، ولم ألوّث يديّ سوى بتراب حديقتي.»

يحتفظ الكثير من الأصدقاء والأقارب بذكريات مع شجيرات الورد التي غرسها أبي والتي ما زالت هناك في مزرعة "ريونيجرو"، وإن تدهور حالها بعض الشيء. لم يكُن يُهدي الورد إلى الجميع، بل لمن يتوسّم فيهم الطيبة فحسب، فكان يضنّ بها أحيانًا وعلى وجهه ابتسامة كئيبة، وصمت لا يفهمه سوانا، في حين كان يشرح

كلّ ما يمكن شرحه حول الورد لمن يرتاح إليهم. «وحدها الوردة المؤنثة تزهر، إلّا أنها شائكة. أمّا المُذكرة فهي خالية من الأشواك، بيد أنها لا تزهر.» هكذا كان يقول دائمًا بينما يشرح طريقة التطعيم، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة. كان يحبّ إطلاع الناس على الحديقة بأكملها، ليس على شجيرات الورد فحسب، بل وكذلك بستان الفاكهة، حيث أشجار الجوافة الحمراء، وأشجار الأفوكادو المُثمرة طوال العام لكونها مغروسة فوق خزّان صرف صحّي، والحرنكش الذي كان يقشره ثمّ يضعه في فمنا بنفسه. كان يقف ممتعضًا أمام الشجرة الوحيدة التي لم تزهر قط، شجرة كاميليا عاقر ما زالت في نفس المكان، وكأنها توجّه له بذلك إهانة شخصية: «تُرى، لماذا لا تُريد أن تُزهر أبدًا؟» لم تزهر قط، عدا مرّة واحدة، فبينما أخذ أبي يشكو لـ"مونيكا" أخت "باربارا" زوجتي الأولى من ذلك الأمر تحديدًا، إذا به يُبصر فجأةً زهرة كاميليا بيضاء، وحيدة، وفريدة. فاقتطفها وأهداها لـ"مونيكا" مفتونًا، سعيدًا بذلك الاستثناء الوحيد خلال سنوات الحياة الطويلة.

كان يعود إلى "ميديِّين" صباح الاثنين، وخلال تلك السنوات الخالية من أيّ التزام مُرتبط بالعمل كرّس أوقات فراغه بالكامل للدفاع عن حقوق الإنسان (في غير الأوقات التي يقضيها في تدليل الأحفاد أو غرس الورد والأصدقاء) وقد بدت له حقوق الإنسان، علاوةً على ذلك، المعركة الطبية الأشدّ إلحاحًا في كولومبيا وقتئذ. أراد تطبيق أحلامه بالعدالة على الممارسة العملية للأمور الملحّة في رأيه.

عشِق العمل بستانيًا، فهكذا كان يشعر بالعودة إلى الأصول الريفية للعائلة. بيد أنه في الوقت نفسه، واصل أحلامه بالإصلاح الطبّي، فيما ينعم بتلك الألفة التي شعر بها نحو الريف والأرض. فأخذ يحلم بنوع جديد من الأطباء، «طبيب المجتمع» على حدّ قوله، وأراد أن يقدم نموذجًا لسلوك طبيب المجتمع الجديد كما يجدر به أن يكون، إذ لن يهتمّ بمحاربة الأمراض وشفائها حالة تلو الأخرى، بل سيتدخل للقضاء على أعمق مسببات المرض وأكثرها بُعدًا. ولهذا فقد كان يزداد

خروجه من قاعة المحاضرات أكثر فأكثر في الوقت الذي شغل فيه منصب أستاذ الطبّ الوقائي والصحّة العامة سابقًا، كما كان يحبّ اصطحاب طلابه لمشاهدة المدينة بأكملها: الأحياء الشعبية، والأقاليم، والقنوات، والمجزر، والسجون، وعيادات الأثرياء، ومستشفيات الفقراء، والريف، والعزب الشاسعة، والمزارع الصغيرة، وظروف معيشة الفلاحين في القُرى والمناطق الريفية.

بعد مرور عامين على تقاعده، ونزولًا على ضغوط الطلاب والزملاء، دعته الجامعة للعودة إلى التدريس بها، وإن كان بغرض إلقاء بعض الحلقات الدراسية فحسب، وقد قبل الوظيفة بشرط أن يُسمح له بإلقاء أغلب محاضراته خارج قاعة المحاضرات، كما كان حلمه دائمًا. كانت أختي الصغرى "صول" قد بدأت في دراسة الطبّ بدورها في إحدى الجامعات الخاصة آنذاك، وتتذكر دعوة أبي لها ولكلّ زملائها إلى حضور عدد من الدروس حول «طبّ المجتمع» في سجن "بيّابيستا". عرضت أختي الفكرة على زملائها في الجامعة، إلّا أنهم قابلوا دعوته بالرفض. نهض أحدهم قائلًا بكلّ ما أوتي من حدّة وعدوانية: «ليس لدينا ما نتعلمه في السجن.» فقبل زملاؤه جميعًا بالحكم الذي أصدره باعتباره قائد المجموعة، ولذا فقد كانت أختي هي الوحيدة التي حضرت الدروس من بين كلّ أفراد المجموعة، وتتذكر تلك الأيام على أنها أكثر الأوقات التي تعلمت خلالها الطبّ، رغم كونه نوعًا مختلفًا من الطبّ، اجتماعيًا، في اتصال مباشر مع أشدّ الناس تجشّمًا للمعاناة، والضائقات الشخصية أو الاقتصادية أو العائلية التي يمرّ بها كلّ منهم.

لم يكُن أبي يقدّم إجابات خلال تلك الزيارات الميدانية، على عكس ما جرت العادة في كلّ الدروس، بل كان يستخدم المنهج السقراطي القديم في التعليم من خلال السؤال، مما يؤدي إلى ارتباك الطلاب، بل وتذمرهم: ما نفع أستاذ لا يفعل شيئًا سوى طرح أسئلة، ثمّ المزيد من الأسئلة، بدلًا من أن يعلّمنا؟ لم يكُن ذهابهم

إلى المستشفى بغرض علاج المرضى، بل للاستفسار عنهم وفحصهم، وهو نفس ما كان يجري عمله مع الفلاحين. فكان يجب على الطلاب تقصّي الأسباب الاجتماعية والجذور الاقتصادية والثقافية للمرض: ما سبب وجود ذلك الطفل المصاب بنقص التغذية في فراش المستشفى؟ أو أولئك المصابين بطلق ناري، أو بضربة سيف، أو بطعنة سكين، أو في حادث مرور؟ ولماذا هناك فئات معينة من المجتمع دون غيرها أكثر عرضة للإصابة بالسلّ أو بداء الليشمانيات أو بالملاريا؟ وفي السجن كان يدرس الطلاب نشأة السلوك العنيف، فضلًا عن محاولتهم تقديم المساعدة حتى لا ينتشر السلّ بمكان قد تنتقل فيه العدوى إلى باقي النزلاء، كما كانوا يلجأون إلى برامج بديلة (الدروس، القراءة، نوادي السينما) للسيطرة على إدمان المخدرات، والاعتداء الجنسي، وانتشار عدوى الإيدز... إلخ.

كان التصوّر المُجدّد الذي قدّمه عن العنف باعتباره شكلًا جديدًا من أشكال الطاعون، يعود لزمن موغل في القدم. ففي المؤتمر الكولومبي الأول للصحة العامة، والذي نظمه بنفسه عام 1962، ألقى كلمة صارت بمثابة علامة طريق في تاريخ الصحة الاجتماعية بالبلاد. كان المؤتمر بعنوان «دراسة وباء العنف»، وهناك أصرّ على دراسة العوامل المسببة للعنف دراسةً علمية، فعلى سبيل المثال اقترح التحرّي عن السوابق الشخصية والعائلية للمتورطين في أعمال العنف، وعن اندماجهم في المجتمع و«المنظومة الدماغية» الخاصة بهم و«سلوكهم الجنسي وتصوراتهم حول الرجولة (الذكورية)». كما أوصى بعمل «فحوصات جسدية ونفسية واجتماعية شاملة للمتورطين في أعمال العنف، وكذلك عمل فحص مُقارَن مُماثِل لسابقه، تخضع له مجموعة أخرى من غير المتورطين في أعمال العنف، على أن تكون المجموعتان متساويتين في الأعداد والأعمار والظروف، في إطار نفس المناطق والأعراق، لتحليل الاختلافات بين كل من المجموعتين.»

كان يلاحظ بتمهّل أسباب الوفاة الأكثر شيوعًا، ثمّ يتحقّق مما توصّل إليه بالبداهة وبدون أرقام، بمجرّد مشاهدة ما يجري والإنصات إلى ما يُقال: فقد أخذ ينتشر في كولومبيا مرّة أخرى وباء العنف الذي يتكرّر بصفة دورية، والذي سبق له وأن ضرب البلاد منذ زمن سحيق، نفس العنف الذي سبق له وأن أودى بحياة زملائه في الثانوية وجرّ أجداده لخوض الحرب الأهلية. فلم تكُن أضرّ الأشياء بصحّة الإنسان هي المجاعة ولا الإسهال ولا الملاريا ولا الفيروسات ولا البكتيريا ولا السرطان ولا أمراض الجهاز التنفسي ولا أمراض القلب والأوعية الدموية. بل إن البشر الآخرين هم أسوأ العوامل الضارة، والتي تودي بحياة أكبر عدد من مواطني البلاد. فقد أماط ذلك الوباء اللثام عن الوجه المألوف للعنف السياسي في منتصف الثمانينيات، حين أخذت الدولة، والجيش تحديدًا، في القضاء على المعارضين السياسيين المنتمين إلى اليسار بغرض «إنقاذ البلاد من تهديد الشيوعية الذي يحيق بها» على حدّ قولهم، وذلك بمساعدة فرق الموت الخاصة والجماعات شبه العسكرية، وبدعم من الجهات الأمنية، والشرطة في بعض الأحيان.

كانت معركته الأخيرة معركة ذات طابع طبّي أيضًا، خاضها باعتباره طبيبًا متخصّصًا في مجال الصحة العامة، وإن كان قد خاضها خارج قاعة المحاضرات والمستشفيات. وباعتباره قارئًا نهمًا ومثابرًا للإحصاءات (آمن باستحالة وضع خطّة علميّة لأيّة سياسة عامة بدون إجراء تعداد سليم) كان أبي يتأمّل في ذعر التقدّم التدريجي للوباء الذي أسفر عن عدد من جرائم القتل في كولومبيا يفوق مثيله بدولة في حالة حرب خلال العام الذي شهد مقتل أبي، وهو ما قاد كولومبيا إلى التربّع على القمة الحزينة للدول الأكثر عنفًا على مستوى العالم في أوائل التسعينيات. فلم تعُد الأمراض التي طالما حاربها (التيفويد، التهاب الأمعاء، الملاريا، السلّ، شلل الأطفال، الحمّى الصفراء) تتصدّر المراكز الأولى في أسباب الوفاة بالبلاد. أخذت مدن كولومبيا وأراضيها

تغرق أكثر فأكثر في الدماء التي خلفتها أبشع أمراض الإنسان: العنف. وعلى غرار الأطباء القدامى الذين كانت تنتقل إليهم عدوى الطاعون الدبلي أو الكوليرا فيما يبذلون جهودًا مستميتة لمحاربتها، هكذا سقط "إكتور آباد جوميس" ضحية أبشع الأوبئة، أشدّ صنوف الطاعون التي قد تضرب البلاد فتكًا: النزاع المسلّح بين الجماعات السياسية المختلفة، هوس الجريمة، التفجيرات الإرهابية، جرائم الثأر بين رجال المافيا ومهربي المخدرات.

لم يكن اللقاح ينفع لمحاربة كلّ هذا، ولم يكُن ثمّة ما يمكن فعله سوى الكلام، الكتابة، الشجب، توضيح مكان المذبحة وكيفية وقوعها، ومطالبة الدولة باتخاذ موقف لردع الوباء، على أن تحتكر الدولة السلطة بالفعل، بشرط أن تمارسها داخل إطار قواعد الديمقراطية، بدون عجرفة ووحشية المجرمين الذين تدّعي الحكومة محاربتهم.

في آخر كتاب نُشر لأبي في حياته، قبل مقتله بأشهر قلائل، تحت عنوان «الصحّة العامة بين النظرية والتطبيق»، كتب مُسلطًا الضوء على أن حريّة الفكر والتعبير «حقّ انتزعه الإنسان بمشقّة على مرّ التاريخ، حقّ حريّ بنا أن نصونه. ويُبيّن لنا التاريخ أن الحفاظ على هذا الحقّ يحتّم علينا بذل الجهود المستمرّة، وخوض المعارك من آنٍ لآخر، بل وتقديم التضحيات الشخصية أحيانًا. كُنّا وسنظلّ، الكثير من الأساتذة من هنا ومن كافة أرجاء المعمورة، على استعداد لملاقاة كلّ ذلك.» ثمّ أردف بخاطرة ما زالت تصلح اليوم بقدر ما كانت صالحة وقتئذ: «إن البديل يتجلّى على نحوٍ أوضح فأوضح كلّ يوم: إما أن نسلك مسلك الحيوانات الذكية والعقلانية، فنحترم الطبيعة ونسرّع قدر الإمكان بعملية «الأنسنة» الناشئة، أو يضمحلّ مستوى معيشة الإنسان. لقد بدأت شكوك بعينها تساور البعض منّا حول عقلانية الجماعات البشرية، وما لم نسلك مسلكًا عقلانيًا، فلسوف نلقى نفس مصير بعض الثقافات وبعض أنواع الحيوانات الحمقاء، التي تبقّت لنا منها بالكاد

بقايا حفرية، شاهدًا على عملية الانقراض التي تعرّضت لها. إن مصير الأنواع التي لا تتغير بيولوجيًا وبيئيًا واجتماعيًا بتغيّر «موطنها»، يعني الهلاك بعد حقبة من الشقاء الذي لا يوصف.»

عمل أبي بلا كلل منذ عام 1982 وحتّى تاريخ اغتياله عام 1987 في «لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في "أنتيوكيا"» التي كان يرأسها، رغم أن تاريخ تأسيس اللجنة يعود إلى ما قبل ذلك بسنوات. كان يحارب طاعون العنف الجديد باستخدام السلاح الوحيد المتبقي له: حريّة الفكر والتعبير، والكلمة، ومظاهر الاحتجاج السلمية، والاستنكار العام والتنديد بمنتهكي الحقوق بكافة أنواعها. كان يرسل خطابات إلى المسؤولين بلا توقف ودون أن يتلقّى الردّ في معظم الأحيان (رئيس الجمهورية، النائب العام، الوزراء، الجنرالات، قادة الألوية)، يذكر فيها أسماء ووقائع بعينها. وكان ينشر مقالات يشير فيها إلى المتورطين في جرائم التعذيب والاغتيال، ويندد بكلّ مذبحة، كلّ واقعة اختطاف، كلّ حادثة اختفاء قسري، كل جريمة تعذيب. كان ينظّم المسيرات الاحتجاجية في صمت مع بعض الشباب والزملاء المعلمين بالجامعة من المؤمنين بنفس القضية ("كارلوس جابيريا"، "ليوناردو بيتانكور"، "ماوريسيو جارسيا"، "لويس فرناندو بيليس"، "خيسوس ماريا بايّي"). كان يشارك في ندوات، ومؤتمرات ومظاهرات عبر كافة أنحاء البلاد، ولذا فقد انهالت على مكتبه مئات الشكاوى مُقدّمة من أشخاص نال منهم اليأس، ليس لهم من يلوذون به، لا القضاة ولا مسؤولي الحكومة، لم يكُن لهم سوى أبي. وبمجرد النظر إلى تلك المستندات، التي لا يزال بعضها محفوظًا في بيت أمّي، يشعر المرء بالاشمئزاز وبالغرق في الألم في الوقت ذاته: صور ضحايا التعذيب، رسائل تفيض يأسًا أرسلها آباء المُختطفين أو ضحايا الاختفاء القسري وإخوتهم، قساوسة لم يجدوا من يعيرهم انتباهه فلجأوا إليه لتقديم شكواهم،

(ثمّ كان يطالعنا بعد ذلك بأسابيع خبر اغتيال نفس القسيس صاحب الشكوى في قرية نائية)، إلى جانب رسائل تمت الإشارة فيها إلى فِرَق الموت بأسماء القتلة وألقابهم، ولكنها لم تُقابل سوى بالازدراء واللامبالاة من جانب الحكومة، وعدم التفهم من جانب الصحفيين، والاتهامات المجحفة بالتحالف مع المتمردين حسبما كتب بعض الصحفيين من زملاء أبي.

لم يكُن يندّد بالدولة فقط ثمّ يغض بصره عن الفظائع المرتكبة على أيدي حركة التمرّد المسلّحة، حسبما قال البعض. فبمراجعة مقالاته وتصريحاته يُلاحظ أنه كان يمقُت حالات الاختطاف والعمليات الإرهابية التي ترتكبها حركة التمرّد المسلّحة دون تمييز، ويندّد بها بشدّة، بل وباستماتة. ولكنه رأى أن أشدّ الأمور خطورة هو أن تضلع الدولة، التي تدّعي احترام القوانين، بشنّ تلك الحرب القذرة، أو أن تكلّف قتلة مأجورين آخرين بذلك (كالجماعات شبه العسكرية وفرق الموت). «ولكن إن فسد الملح [...]»، كانت واحدة من اقتباساته الأثيرة من الكتاب المقدّس.

وفي العام الذي شهد موته، تعرضت الجامعة الحكومية لموجة من العنف والحرب القذرة والاغتيالات الانتقائية بلا رحمة وعلى نحوٍ ممنهج، إذ رأى بعض عملاء الدولة وشركاؤهم من الدولة الموازية، أن بذرة التخريب وعصارتها الأيديولوجية مغروسة في الجامعة. وخلال الأشهر السابقة على اغتياله، قُتل سبعة طلاب وثلاثة أساتذة في جامعة "أنتيوكيا" المُحببة إلى قلبه وحدها. ربما كان المرء يفكر أن المواطَنة ستصاب بحالة من الذعر أو التأثّر أمام تلك الأرقام. إطلاقًا. بدا وكأن الحياة لا تزال في مسارها الطبيعي، كلّ ما هناك أن ذلك «المجذوب»، ذلك الأستاذ الأصلع اللطيف الذي تجاوز عمره الخامسة والستين، ولكن له صوت هادر وحماس شباب جارف، يصرخ بالحقيقة ويصبّ لعناته على الوحشية. «إنهم يقضون على الذكاء، ويخفون أكثر الطلاب نشاطًا،

ويقتلون المعارضين السياسيين، ويغتالون الكهنة الأشدّ تمسّكًا بالتزامهم نحو شعوبهم وأبرشايتهم، ويضربون أعناق القادة الشعبيين للأحياء والقرى. إن الدولة لا ترى في أيّ شخص ناشط أو مفكر سوى شيوعي ومعارض.»

وقد تزامنت مع تلك الفترة تصفية حزب الاتحاد الوطني المنتمي لليسار المتطرف، والتي بلغت حدًا أودت معه بحياة أكثر من أربعة آلاف ضحيّة من المدنيين عبر كافة أنحاء البلاد. وفي نفس الجامعة التي كان يعمل بها، تساقط عدد كبير من القتلى على أيدي جماعات شبه عسكرية. ففي حملة ملاحقة وتصفية سافرة، وقعت بين يوليو وأغسطس من عام 1987، اغتيل طلاب وأساتذة جامعة "أنتيوكيا" الآتية أسماؤهم: في الرابع من يوليو اغتيل "إديسون كاستانيو أورتيجا"، طالب طبّ الأسنان. في الرابع عشر من يوليو اغتيل "خوسيه سانتشيس كويربو"، طالب الطبّ البيطري. في السادس والعشرين من يوليو اغتيل "جون خايرو بيًا"، طالب الحقوق. في الواحد والثلاثين من يوليو اغتيل "يوالدين كاردينيو"، طالب المعهد الجامعي. في الأول من أغسطس اغتيل "خوسيه إجناسيو لوندونيو أوربي"، طالب التواصل الاجتماعي. في الرابع من أغسطس اغتيل أستاذ الأنثروبولوجيا "كارلوس لوبيس بيدويا". في السادس من أغسطس اغتيل طالب الهندسة "جوستابو فرانكو". في الرابع عشر من أغسطس اغتيل أستاذ كليّة الطبّ وعضو البرلمان عن حزب الاتحاد الوطني "بيدرو لويس بالينسيا".

كانت تُعرف تفاصيل بشعة عن بعضٍ من تلك الجرائم، فكان أبي يحكي لنا قائلًا: بعد أن تعرّض أحد الطلاب للتعذيب ثمّ الاغتيال، تمّ تقييد جثته إلى عامود ونسفها باستخدام قنبلة يدوية مزّقتها إلى أشلاء. كما عُثر على "خوسيه سانتشيس كويربو" مُهشّم الأنف، وأثار الكدمات بادية على خاصرته، وأصيب بانفجار في إحدى عينيه من أثر الضرب، بالإضافة إلى ذلك استقرت رصاصة في

أذنه، كما تعرضت بعض أصابعه للبتر. أمّا "إجناسيو لوندونيو" (والذي عُرف باسم "ناتشو")، فقد استقرت سبع رصاصات في رأسه ورصاصة واحدة في يده اليسرى، كما كان أحد أصابع يده اليمنى مبتورًا حين عُثر على جثته. كان هذا الشاب يكسب قوته بالعمل في برامج الترفيه والتسلية (ولا سيما في دور المسنين، إذ كان عذبًا في تعامله مع المسنين)، وأخذ يتقدّم في دراسته بكليّة التواصل الاجتماعي ببطء لأنه كان يعيل والده، رجلًا في الثانية والثمانين من عمره، وهو نفس الشيخ الذي اضطر لاستلام جثته، في حيّ "بيلين"، بمنطقة جبلية، وتعرّف عليه حين رأى أولًا يد ابنه مبتورة الإصبع، ملقاة فوق العشب، على بُعد مسافة قصيرة من الجثّة التي ظهرت عليها آثار التعذيب. كان الفتى على وشك التخرّج، إلّا أن الجماعات شبه العسكرية اشتبهت في أمره، فقد كان يدرس في الجامعة منذ ما يقرب من عشر سنوات، ومن الشائع بين عملاء حركة التمرّد المسلحة أداء عدد قليل من الامتحانات والمواد الدراسية بغرض الاستمرار لوقت أطول، بيد أن "لوندونيو" لم يكُن على علاقة بحركة التمرّد المسلحة من قريب أو من بعيد. وقد كان مصدر السعادة الكبرى للأب أن ابنه سيعمل في تخصصه بعد زمن وجيز، وعلى الأقل «سيتكفّل بتكاليف الدفن». إلّا أن الأب هو الذي دفنه، بألمٍ لم يرِد معه أن يبقى على قيد الحياة.

وخلال تلك الفترة حدث في بيتي عكس ما يحدث في أيّ من البيوت العادية، حيث يسعى الأبوان للسيطرة على الأبناء لئلا يشاركوا في احتجاجات ومظاهرات قد تعرض حياتهم للخطر. ولأن أبي كان أقلّ الشيوخ محافظةً، وأخذ يزداد ليبرالية وتمردًا يومًا بعد يوم، فقد تبدّلت الأدوار في البيت وأصبحنا نحن، الأبناء، من نسعى لئلا يكشف أبي نفسه أو يخرج في المسيرات أو يكتب تنديداته القاسية بسبب المناخ الدموي الذي عشناه. فضلًا عمّا بدأ يتردد من شائعات حول الخطر الذي يتهدّد حياته. فكان "خورخي أومبيرتو بوتيرو"

الذي شغل منصبًا رفيعًا في الحكومة يقول لأختي وزوجته السابقة "كلارا": «قولي لأبيكِ أن يتوخّى المزيد من الحذر، وأخبريه أنني أعرف ما أقول.» كما كان يقول نفس الشيء "فيديريكو أوربي"، زوج أختي الأخرى "إيبا"، والذي كان مطلعًا على ما يتردّد في نادي "كامبيستري": «والدك يكشف نفسه كثيرًا، وسيقتلونه في نهاية المطاف.»

وكانت ثمّة مؤشرات غير مباشرة على أن العداوة العامة التي أبداها نحوه الكثير من الشخصيات المهمة آخذة في التفاقم على نحوٍ خطير.

كان أبناء "إيبا" لاعبي بولو على غرار زوجها، ولذا فقد كانت تحضر مباريات البولو في نادي "يانوجراندي" من حين لآخر. وذات يوم، جاءت جلستها بمحض الصدفة إلى جوار لاعب بولو آخر أقلّ مهارة من أبناء أختي كثيرًا، وهو "فابيو إيتشيبيرّي كورّيا"، الذي كان مخمورًا وقتئذ، فانتهرها بلهجة فظّة: «أنا أختار من يجلس إلى جواري، ولن أسمح بأن تجلس إلى جواري ابنة شيوعي.» وبدون أن تتفوّه بكلمة، هبّت "إيبا" واقفة على قدميها وبدلت مكانها. ولكن "لويجي" ابن "إيتشيبيرّي"، والذي كان لطيفًا مع أسرتنا دائمًا، دافع عن "بيكي" بقوّة أمام والده.

كانت أمّي هي الوحيدة التي لم تصدّق ما يتردد من شائعات قط، ولا حتّى في الأواخر، بل وكانت تغضب حين تُنقل إليها: «كيف يخطر لكم هذا؟ ليس في استطاعتهم أن يمسّوا "إكتور" بأذى!» كانت ترى أن أبي رجل من الطيبة بحيث لا يجرؤ أحد على محاولة اغتياله مطلقًا. بعد مرور أسبوعين على مقتل زوجها، ورغم أنها كانت محطّمة الفؤاد، حاولت العودة إلى العمل، وذهبت لتفقّد أحوال «الإصطبل»، وهو الاسم الذي عُرفت به بناية «بقرات "ميديّين" المقدّسة»، أي أثرى أثرياء رجال الصناعة والأعمال في "ميديّين". كان

«الإصطبل» في الحقيقة يُدعى بناية "بلاسا"، رغم أن كلّ شاغليه تقريبًا إمّا أصبحوا في عداد الأموات أو انتقلوا لمكان آخر في الوقت الحالي. فجأة، لم تعُد تتحمل الألم والحزن، فجلست تبكي فوق درجات السلم بدون عزاء. وفيما هي على تلك الحال، كان دون "خوسيه جوتيرّيس" في طريقه للدخول إلى شقته، وهو الذي سبق له وأن تولّى رئاسة الاتحاد الوطني للصناعة على غرار "فابيو إيتشيبيرّي"، بل وأسّسه بنفسه. اقترب منها دون "جوتي"، حاول أن يساعدها على النهوض، ولكن أمّي شعرت بحاجة ملحّة لأن تقول له: «أصبحت أشكّ فيكم جميعًا، لا أعرف إذا كنت قد أصبحت مقيتة وساذجة بإقدامي على العمل في إدارة البنايات التي يشغلها أثرى أثرياء "ميديّين". يبدو لي أن واحدًا منهم هو من أعطى أوامره بقتل "إكتور"، ولكني لا أقصدك أنت يا دون "جوتي".» رافقها السيد "جوتيرّيس" ردحًا طويلًا من الزمن دون أن ينبس بكلمة واحدة، جالسًا إلى جوارها فوق درجات السلم.

تملّك من أمّي وأبنائها جميعًا شكٌ ما زال يساورنا إلى حدٍ ما، ويصعب علينا تبديده. من هم بالتحديد أولئك الذين كانوا يرشدون "كارلوس كاستانيو"، ويتولون توجيه رجال الجيش، ويصدرون الأوامر، ويشيرون إلى من يجب قتله؟ لم نحصل سوى على إجابات غير مباشرة وغير محدّدة: إنهم ملّاك مزارع موز من خليج "أورابا"، بل تجّار ماشية من "بويرتو بيرّيو" و"ماجدالينا ميديو" بالتحالف مع عناصر الجماعات شبه العسكرية، بل عملاء الـ"داس" (جهاز المخابرات) بتحريض من سياسيين ينتمون إلى اليمين المتطرف، بل مسؤولون تضرروا من تنديدات لجنة حقوق الإنسان... ولكن ذات مرّة، وأثناء زيارة أحد أبناء أخواتي لمزرعة شاسعة في "لا كوستا" بالقرب من "ميجانجي" خلال الإجازة، تناهى إلى مسامعه اعتراف صريح أدلى به عناصر الجماعة شبه العسكرية القائمين على حراسة تلك المزرعة. كانت ذكرى اغتياله، فظهر أبي

ظهورًا خاطفًا في نشرة إخبارية على شاشة التلفزيون. قال الحراس معلقين: «هذا الوغد من أوائل قتلانا في "ميديّين"، كان شيوعيًا شديد الخطورة، ويجب توخّي الحذر من الابن، لأنه يسير على نفس الطريق.» لم يرِد ابن أختي الذي انتابه الذعر أن يقول لهم إن هذا الرجل الذي يدور حوله الحديث هو جدّه.

عندما كانت أختي الكبرى والابنة المفضلة لأبي "ماري لوس" تتوسل إليه كي لا يستمر في تنظيم المسيرات الاحتجاجية وإلّا سيُقتل بهذه الطريقة، كان يجيبها بالقبلات والضحكات المجلجلة ليهدّئ من روعها. ولكنه كان يستعيد الجديّة والانشغال الجارف خلال المسيرات والاجتماعات التي كان ينظمها، فضلًا عن حماسه لمرأى العدد الكبير الذي يرافقه، والبهجة التي يكاد يبديها في الوقت نفسه، خلال مشاركته في تلك المسيرات، حتّى وإن كانت احتجاجاته بمثابة صرخة يائسة وخطبة مطوّلة بلا فائدة، يبقى فيها وحده في الكثير من الأحيان. فضلًا عن ذلك فقد كان على قدر من السذاجة. ذات مرّة، خرج في مسيرة منظّمة مُتجهة إلى مبنى المحافظة، برفقة مجموعة من الطلاب والأساتذة والناشطين في مجال حقوق الإنسان، وفجأة وجد نفسه وحيدًا، بلا رفيق واحد في المسيرة، حاملًا لافتته. تراجع الجميع حين وجدوا أنفسهم أمام سيارة مكافحة الشغب التابعة للشرطة، إلّا أنه واصل التقدّم، وحين أوقفوه ووضعوه في السيارة الخاصة بشرطة مكافحة الشغب كيفما اتفق، سأله باقي المحتجزين لماذا لم يتراجع في الوقت المناسب كما فعل الجميع، فشرح لهم ما حدث قائلًا إنه خلط بين سيارة مكافحة الشغب وسيارة جمع القمامة.

في بعض الأحيان، أثناء إلقائه كلمة أو خطبة أمام المظاهرة، كما كان يحدث في ختام كلّ مسيرة بصفة دائمة، كان يبقى وحده، فيرى المستمعين وهم ينفضون من حوله على نحوٍ مباغت وقد تملّك منهم الذعر. حينئذ كان ينظر خلفه، فيجد فرقة عسكرية تقترب نحوه. لم يحدّث وأن مسّوه بأذى قط، بل

كانوا يردّون له حريته على الفور في حال تمّ اعتقاله، وكأنهم خجلى أمام نزاهته وبراءته الجليّة. كان بريئًا، متفتّحًا، مبتسمًا دائمًا، مهندمًا وأنيقًا دائمًا، بسترته وربطة عنقه. كانت أفضل دروعه هي وجاهة الأستاذ الطيّب العتيقة، وعذوبته في المُعاملة، ولُطفه البالغ. كان كثير المخاطرة، ومع ذلك فقد ظنّ الجميع تقريبًا أنهم لن يتعرضوا للدكتور "آباد" بأذى، لن يمسّوه بسوء، فالكلّ يعلم جيدًا أنه ليس في قلبه مكان سوى للطيبة. وعلى كلّ حال، كان يفعل نفس الشيء منذ خمسة عشر عامًا ولم يُمسّ بسوء قطّ. كانت الحكومة تستدعيه بصفة دائمة لحلّ قضايا ميؤوس منها: كالاستيلاء على دار عبادة أو قنصلية أو مصنع، أو تسليم أحد أعضاء حركة التمرّد المسلحة أو أحد ضحايا الاختطاف. كانت جميع الأطراف تثق في كلمته. في الحادي عشر من أغسطس من ذلك العام المشؤوم كتب بيانًا «من أجل الدفاع عن الحياة والجامعة». وفيه ندّد باغتيال خمسة طلّاب وثلاثة أساتذة من كليّات مختلفة خلال الشهر السابق (وتعذيبهم في بعض الحالات)، وهو الهجوم الذي فسره كما يلي: «إن الجامعة تقع في مرمى أولئك الذين يتمنون ألّا يشكّك كائن من كان في أيّ شيء، وأن يتساوى فكرنا جميعًا، إنها هدف لمن يعتبر المعرفة والفكر الذي يتناول المجتمع بالانتقاد بمثابة خطر اجتماعي، فيرفعون السلاح والإرهاب في وجه المُنتقد ليختل توازنه ويسقط في دوامة اليأس حيث يصبح عبرة لمن يعتبر.»

وبالعودة إلى مقالاته يجد المرء نفسه أغلب الوقت أمام شخص شديد التسامح والتوازن، بدون دوجمائية اليسار الشائعة في تلك الأعوام المحتدمة. ورغم ذلك فثمّة مقالات بين كتاباته قد يبدو أنها تنطوي على مبالغة إن قرأناها اليوم، لما تحويه من تفاؤل وغضب عارم دافع به عن المطالب الاجتماعية لليسار. أحيانًا، أشعر بإغواء انتقاده حين أقرأ ما كتب، وهكذا فعلت في دخيلة نفسي مرات كثيرة. ورغم ذلك، فقد وجدت ذات مرّة في واحد من كتبه فقرة

وضع تحتها أكثر من خطّ لـ"برتولت بريشت"، شذرة فسّرت لي بعض الأشياء وعلّمتني كيف أقرأ مقالاته من منظور عصره: «أخذنا نبدّل بلدًا بآخر وكأننا نبدّل حذاء بآخر، ينال منّا اليأس حين نجد موضعًا خلا من كلّ شيء سوى الظلم، دون أن يكون فيه مكان للسخط. إن الكراهية تشوّه الملامح، حتّى وإن كانت كراهية الخسّة. والغضب يجعل في الصوت خشونة، حتّى وإن كان غضبًا على الظلم. ورغم ذلك، أرجو أن تفكّروا فينا برفق حين يأتي الزمن الذي يكون فيه الإنسان صديقًا للإنسان.»

وبالعودة إلى المقالات التي كتبها خلال تلك الأعوام، ونُشر أغلبها في جريدة "إل موندو" اليومية، الصادرة في "ميديّين"، ونُشر بعضها في جريدة "إل تييمبو" الصادرة في "بوجوتا"، أجد بعض القضايا الميؤوس منها. ثمّة مقال قاسٍ وشجاع على وجه الأخصّ بين مقالاته، نُشر عقب اعتقال وتعذيب صديق وتلميذ له على أيدي قوات الجيش في "ميديّين":

«إنني وأمام كلّ من السيد رئيس الجمهورية ووزيري الحرب والعدل، وأمام سيادة النائب العام للدولة، أتّهم «المحققين» من أفراد كتيبة "بومبونا" بمدينة "ميديّين" بإخضاع الأشخاص المحتجزين من قِبَل «الفرقة الخامسة» للتعذيب الجسدي والنفسي. وأتّهمهم بوضع المحتجزين وسط حجرة، مقيدين ومعصوبي العينين، واقفين على أقدامهم، طوال أيام وليالي تعرضوا خلالها لأفظع أشكال الإساءة الجسدية والنفسية، دون السماح لهم حتّى بالجلوس على الأرض لحظة واحدة، دون السماح لهم بالنوم، بينما تُكال إليهم الضربات بالأقدام وبالأيدي في مواضع مختلفة من الجسد، وتوجّه إليهم الشتائم، ويُرغمون على سماع صرخات باقي المحتجزين في الحجرات المجاورة، في حين لا تنزع العصابات عن أعينهم إلّا لمشاهدة المحققين وهم يتظاهرون باغتصاب زوجات المحتجزين، ويضعون الرصاص داخل خزانة المسدس ثمّ يصطحبون

المحتجزين خارجًا للقيام بجولة في أطراف المدينة حيث يهددونهم بالقتل ما لم يدلوا باعترافاتهم ويرشدوا عمن يفترض بهم أن يكونوا «شركاءهم في الجريمة»، وتُروى إليهم أكاذيب حول «اعترافات» مزعومة أدلى بها ضحايا التعذيب، ويُرغمون على الركوع وفتح الساقين إلى درجة مستحيلة جسديًا بغرض إصابتهم بآلام حادة، ثمّ إمعانًا في مضاعفة الألم، يجلس المحققون فوقهم لمتابعة الـ«تحقيق» المتواصل، الشاقّ، الغاشم، وتُترك النوافذ مفتوحة خلال أولى ساعات الفجر في حين يبقى المحتجزون بلا قمصان حتّى ترتعد فرائصهم من البرد، وتتورم أطرافهم السفلية نتيجةً للوضع الرأسي الذي يرغمون على البقاء فيه والتوقّف عن الحركة الإجباري، إلى درجة لا تحتمل معها التشنجات العضلية، والآلام، واليأس الجسدي والذهني، مما حمل البعض على إلقاء أنفسهم من النافذة، أو قطع أوردتهم عند المعصم باستخدام شظايا من الزجاج، أو الصراخ والبكاء كالأطفال والمجانين، أو الإدلاء بوقائع وهمية ومن نسج الخيال بغرض الاستراحة قليلًا من التعذيب الوحشي الذي يخضعون له. إنني أتّهم المحققين من أفراد كتيبة "بومبونا" في "ميديّين" بالتعذيب بلا رحمة، وبلا روح، وبلا رفق بالإنسان. أتّهمهم بكونهم سيكوباتيين مُدرّبين، مجرمين برواتب حكومية، يؤدّيها الكولومبيون حتّى يخضع المحتجزون السياسيون والنقابيون وأعضاء هيئة التدريس من كافة الفئات لظروف تتنافى وكرامة الإنسان، مما يعرّضهم لكلّ صنوف الصدمات التي لا سبيل إلى التخفيف منها أو علاجها في الكثير من الأحيان، وتترتب عليها عواقب وخيمة مدى الحياة. وأدين علانيةً وبصفة رسمية تلك الإجراءات التي يتبعها من يسمون بالقيادات الوسطى، والتي تنطوي على انتهاك منهجي لحقوق الإنسان يتعرض له المئات من مواطنينا. وأتّهم من يطالع هذا المقال من القيادات العليا للجيش وللوطن بالتورط في الجريمة ما لم يضعوا حدًا على الفور لهذا الوضع

الذي يجرح أبسط مشاعر التضامن الإنساني التي يحسّ بها الكولومبيون ممن لم ينال منهم الجنون أو التعصّب.»

كانت مثل تلك التنديدات الشجاعة والصريحة تثير غضبًا عارمًا بين صفوف الجيش وبعض مسؤولي الحكومة، ولكنها لم تكُن تلقى ردًا. نادرًا ما كان يحاول قاضٍ أو نائب تسلّم بلاغاته. فلم تكُن تُقابل تلك الاتهامات سوى بصمت عدائي بوجه عام. ثمّ أخذ العداء يتفاقم عامًا بعد آخر حتّى بلغ منتهاه. ذات مرّة قالت له أختي "بيكي" التي كانت تتردد على أرقى وأثرى الأوساط بالمدينة: «بابا، إنهم لا يحبونك هنا في "ميديّين"»، فأجابها قائلًا: «يا حبيبتي، بالطبع يحبني الكثيرون، ولكنهم ليسوا في الأماكن التي تترددين عليها، إنهم في جانب آخر، وسأصحبك يومًا لكي تتعرفي عليهم.» تقول "بيكي" إنه يوم خرج الموكب الذي رافق جنازة أبي عبر أرجاء وسط المدينة، حيث خرج الآلاف يلوحون بمناديلهم البيضاء في المسيرة، ومن النوافذ، وفي المقابر، حينئذ فهمت أن أبي يصحبها في تلك اللحظة للتعرف على من يحبونه حقًا.

ويطول بنا المقال لو نقلنا العشرات من المقالات التي طالما ندّد فيها أبي بالانتهاكات التي ارتكبها موظفون لدى الدولة والأجهزة الأمنية العامة في حقّ مواطنين عزّل، مشيرًا إلى أسماء وألقاب بعينها. فعلها طوال سنوات، رغم أن ذلك الكفاح في الكثير من المرات لم يكُن في نظره بأكثر من صرخات تتردد في الصحراء.

طرد سكان أصليين من مزارع خاصة بملاك الأراضي (ومقتل كاهن من السكان الأصليين كان يؤيدهم)، اختفاء طالب، تعذيب أستاذ، قمع مظاهرات دامي، اغتيال قادة النقابات الذي يتكرّر كلّ عام وكأنه طقس من طقوس الموت، حالات اختطاف غير مبررة على يد حركة التمرّد المسلّحة... ندّد بكلّ هذا مرّة تلو الأخرى، وسط الغضب الصامت لمتلقي تنديداته، والذين كانوا يؤثرون

عدم ترديد صدى كلماته على أمل أن تسقط في دوامة النسيان إذا اتّبعوا معها استراتيجية الصمت أو اللامبالاة.

وقد كان أبي أشدّ راديكالية فيما يتعلّق بالبحث عن مجتمع أكثر عدالة وأقل خسّة من المجتمع الكولومبي الطبقي العنصري. لم يكُن ينادي بثورة عنيفة، بل بتغيير جذري يشمل أولويات الدولة، مُحذرًا من أنه ما لم يتمّ تحقيق المساواة بين المواطنين في الفرص على الأقلّ، فضلًا عن الحدّ الأدنى من المعيشة الكريمة، وبأسرع ما يُمكن، فلسوف نعاني لوقت أطول كثيرًا من العنف والجريمة وظهور عصابات مسلحة وعناصر شرسة من حركة التمرّد المسلحة.

«إن مجتمعًا إنسانيًا يتطلع إلى أن يكون عادلًا لا بد وأن يوفّر نفس الفرص من حيث المناخ المادي والثقافي والاجتماعي لكافة عناصره، وإلّا فإنه يخلق بذلك تفاوتات مُفتعلة. فعلى سبيل المثال، يختلف المناخ المادي والثقافي والاجتماعي الذي يولد فيه ابن الأثرياء وابن الفقراء في كولومبيا. فيولد الأول في بيوت نظيفة حيث المرافق الجيدة والمكتبة والترفيه والموسيقى، أمّا الثاني فيولد في عشوائيات، أو بيوت بدون مرافق صحيّة، في أحياء بلا ألعاب أو مدارس أو خدمات طبيّة. يرتاد الأول عيادات خاصة فاخرة، أمّا الثاني فيتردّد على مراكز صحّة مكدّسة. يلتحق الأول بمدارس ممتازة، أمّا الثاني فيلتحق بمدارس بائسة. أهكذا إذن يحصلون على فرص متساوية؟ على العكس تمامًا. فمنذ لحظة الولادة يجدون أنفسهم في أوضاع غير متساوية ومجحفة. بل وحتّى قبل مولدهم، فمع الطعام الذي تتغذى عليه الأمهات، يبدأون حياتهم داخل الرحم في أوضاع متردّية. في مستشفى "سان فينسينتي"، قُمنا بقياس أطوال وأوزان أطفال ولدوا في «الجناح الخاص» (أُسَر قادرة على أداء مقابل الخدمات الطبيّة)، وبالمثل فعلنا في «الجناح الخيري» (أُسَر لا تقدر سوى على دفع أقلّ القليل أو لا شيء إطلاقًا مقابل تلك الخدمات) ووجدنا أن متوسط الأوزان

والأطوال بين مواليد «الجناح الخاص» أكبر بكثير منها بين مواليد «الجناح الخيري»، وهو ما يحمل دلالة مهمّة من المنظور الإحصائي. إذ يعني أن أوضاعهم غير متكافئة منذ لحظة الميلاد، ولا يرجع السبب في ذلك إلى عوامل بيولوجية، بل إلى عوامل اجتماعية (أحوال المعيشة، البطالة، الجوع). إنها حقائق جليّة لا تدع مجالًا للشك وليس هناك من ينكرها. لماذا نبذل كل تلك الجهود إذن لحفظ الوضع على ما هو عليه، رافضين تلك الحقائق؟ لأن الأنانية واللامبالاة من سمات العميان، ناكري الأوضاع المتردية التي يعاني منها الآخرون، مدفوعين بالرضى الشديد الذي يشعرون به إزاء أوضاعهم المواتية. فلا يرغبون في رؤية ما يقع نصب أعينهم، للحفاظ بذلك على وضعهم الحافل بالامتيازات في كافة المجالات. ماذا يُمكن فعله حيال هذا الوضع؟ على من تقع مسؤولية التحرّك؟ يبدو جليًا أن من ينبغي عليهم التحرّك هم المتضررين من الأوضاع. إلا أنهم في أغلب الأحيان، وفي خضم احتياجاتهم وهمومهم ومآسيهم، لا يكونون على دراية بهذا الأمر الواقع، فلا يستوعبونه، ولا يجعلون منه مسألة شخصية. ورغم ما قد يبدو في ذلك من مفارقة، فالبعض ممن حبتهم الحياة بأوضاع لائقة هم الذين استطاعوا إيقاظ ضحايا القمع والاستغلال للاستجابة والعمل من أجل تغيير الأوضاع المجحفة التي تؤثّر فيهم سلبًا، ولكن هذا هو ما جرت عليه العادة على مرّ التاريخ. وهكذا تحققت التغيرات المهمّة في أحوال معيشة السكان في الكثير من البلاد، ومن المؤكد أننا نمرّ بمرحلة من التاريخ تعيش فيها مجموعات - أرقى أخلاقيًا - في جميع البلاد، لا تقبل باستمرار تلك الأوضاع المجحفة وغير المتكافئة، على اعتبارها أمرًا «طبيعيًا». إن كفاحهم في مواجهة «الوضع القائم» لهو كفاح طويل وخطير. فلا بد لهم من مواجهة غضب وضيق المجموعات الأوسع نفوذًا في المضمارين السياسي والاقتصادي. ولا بد لهم من مواجهة عواقب تتعارض مع سكينة أنفسهم وإمكاناتهم، وتتعارض

مع تحقيقهم ما يُسمّى بالـ«نجاح» في المجتمع القائم. ولكن ثمّة قوّة داخلية تدفعهم إلى العمل لصالح المحتاجين لمساعدتهم، فتصبح تلك القوّة بالنسبة للكثيرين مبررًا لبقائهم على قيد الحياة. وفي ساعة الموت، يجد المرء للحياة التي عاشها ما يبررها لو أن أعماله وجهوده قد جعلت من العالم مكانًا أفضل قليلًا. إن العيش لمجرد الاستمتاع هو طموح مشروع ذو طابع حيواني. ولكن الإنسان، الجنس البشري العاقل، إذا عاش لمجرّد الاستمتاع يكون بذلك قد قنع بأقلّ القليل. ولنتميّز عن باقي الحيوانات، لتبرير مرورنا عبر الأرض، ينبغي علينا أن نطمح إلى أهداف أسمى من مجرد ذلك. إن تحديد الأهداف يميّز الرجال عن بعضهم البعض. وليس الأهمّ هو تحقيق تلك الأهداف، بل الكفاح من أجلها. ليس في الإمكان أن يكون كل واحد منّا بطلًا من أبطال التاريخ. ورغم أننا خلايا في ذلك الجسد الكوني البشري العظيم، فإننا على دراية بأن كلّ واحد منّا يستطيع فعل شيء من أجل تحسين العالم حيث نعيش، وسيعيش من يأتي بعدنا. يجب علينا العمل من أجل الحاضر والمستقبل، وهو ما سوف يعود علينا بمتعة أعظم من مجرّد اللذة البسيطة للمتعة المادية. ولا بد وأن تكون معرفتنا بأننا نساهم في صنع عالم أفضل هي أقصى طموح للبشرية.»

يُحسّ المرء في كلّ كتاباته بلهجته المدافعة عن حقوق الإنسان، الثقيلة، والجيّاشة، والمفعمة بالحيوية. كان يكافح بصوت مُطّلع ومُقنِع، في محاولة منه لإيقاظ الناس جميعًا، فقيرهم وغنيهم، ولكي يصرّوا على عمل شيء من أجل تحسين أوضاع البلاد الجائرة. وقد فعلها حتّى آخر يوم من أيام حياته، في محاولة يائسة لأن يحارب بالكلمات تلك الأفعال البربرية التي يرتكبها بلد أبى ويأبى أن ينتهج نهجًا آخر بخلاف الحفاظ على المظالم القائمة والدفاع عن ذلك الظلم الذي لا يمكن احتماله بأي شكل من الأشكال، حتّى وإن كان ذلك عن طريق اغتيال الساعين إلى تغييره.

-36-

لست أرغب في كتابة سيرة من سير القديسين، ولست مُهتمًا بتصوير رجل منزّه عن الضعف الإنساني. لو كان أبي أقلّ حساسية بقليل، لو كان قد استطاع التحرّر كليًا من الزهو برغبته في التفوق، لو كان قد استطاع كبح جماح ولعه بالعدالة، والذي بلغ حدّ التعصّب الصارم في بعض الأحيان ولا سيما في أواخر حياته، لربما كان قد استطاع أن يكون ذا تأثير أقوى، لأنه وفضلًا عن ذلك كانت تعوزه جرعة أكبر من المثابرة والمداومة لإنهاء المهام الزائدة عن الحدّ التي أخذها على عاتقه. كان يعترف بتلك النقيصة بنفسه، وكثيرًا ما قال: «أنا أبٌ جيّد جدًا، وأمّ غاية في السوء»، وهو ما يعني أنه كان يُحسن التخصيب وغرس بذور الأفكار الجيدة، بيد أنه لا يتحلّى بالصبر اللازم للحمل والتربية.

ارتكب حماقات كما فعلنا جميعًا، تورّط في حركات سخيفة، تعرّض للخداع بسذاجته، استُخدم في بعض الأحيان كمُكبّر صوت لخدمة مصالح الآخرين ممن عرفوا كيف يتلاعبون به عن طريق تملّقه. كان يردّد دائمًا نفس العبارة التي تفيض هزلًا وخيبة أمل عندما يلاحظ مدى الاستغلال الذي تعرض له: «إن الذكاء لم يجعل منّي سوى مغفلًا». فعلى سبيل المثال، كان يشعر بالخزي لقيامه بإيداع أحد أصهار أختي الكبرى، "ماري لوس"، بمستشفى الأمراض العقلية، بعد ادعائه ذات ليلة، وهو في حالة هياج، بأن رجال المافيا يلاحقونه. لم يكُن أبي في فترة الستينيات قادرًا على تقبّل فكرة إمكانية وجود رجال مافيا في "ميديّين". ناهيك عن تقبّل ما يدّعيه ذلك الفتى، "خوتا بيليس"، الذي أخذ

يردّد كالمجنون ما يقوم به رجال المافيا من قتل وتهديد وتصدير الكوكايين، وشراء النساء في بعض الأحياء، واستئجار البلطجية والقتلة المأجورين... خلط أبي بين تلك الحقائق وبين هذيان المجانين وبين الشيزوفرانيا، فتمّ اقتياد "خوتا" إلى مستشفى الأمراض العقلية القائمة في "بيّو" مُقيدًا بسترة المجانين. عندما تحقّق كل ما قال "خوتا"، وأخذت تلك الفظائع تتأكّد يومًا بعد يوم بمدينة في طريقها إلى السقوط في دوامة الوحشية، لم يبقَ لأبي خيار سوى الإقرار بجنونه شخصيًا، بعمى بصيرته وسذاجته، وطلب الصفح من "خوتا"، الفتى الذي سبق له وأن ندّد بتلك الأهوال في نوبة من صفاء الفكر المهتاج التي خلط أبي بينها وبين هذيان المجانين.

تورّط كذلك في لجنة صداقة بين دولتي كولومبيا وكوريا الشمالية، بعد أن عرفوا كيف يتملّقون غروره. بل وحمل إلى البيت كتب "كيم إل سونج" حول «فكرة "زوتشيه"»، كما شارك في مؤتمر يدعو للرثاء في البرتغال حيث تمّ تحليل فكر ذلك الديكتاتور الدموي الذي عاش في القرن العشرين، ذلك المريض بجنون العظمة. الخطير في الأمر أن أبي لاحظ خلوّ كلّ هذا من أيّ معنى، فكان يطلق ضحكاته المجلجلة سخريةً وحيرةً عند حديثه عن «فكرة "زوتشيه"»، إلّا أنه كان قد صعد بالفعل على ظهر نفس المركب مع تلك المجموعة، ومن يدري لماذا ترك نفسه للتيار دون أن يتبرأ من ذلك العار، ليصبح بذلك شريكًا في دكتاتورية! فضلًا عن ذلك لم يرِد الذهاب يومًا إلى كوريا الشمال، ربما لمعرفته أنه بمجرد النظر عن كثب إلى المسافة التي تفصل بين الكلمة والحقيقة لن يكون قادرًا على مواصلة دعم تلك الخرافة.

في أواخر سنوات حياته، تعرّض في بعض المرّات للتلاعب على يد اليسار المتطرّف الكولومبي. فعلى الرغم من الكراهية التي يكنّها للكفاح المسلّح، أصبح يبدي تفهمًا ويكاد يلتمس العذر (وإن لم يقرّ بذلك صراحة قط) لعناصر

حركة التمرّد المسلّحة، ولأنه كان يتفق مع بعض مواقفهم الأيديولوجية (الإصلاح الزراعي والحضري، توزيع الثروة، كراهية الاحتكار، النفور من طبقة أوليجاركيّة فاسدة جرّت البلاد إلى التعاسة وعدم المساواة الأشدّ خزيًا)، كان يغضّ بصره أحيانًا في حال ارتكبت الأعمال الوحشية على أيدي عناصر حركة التمرّد المسلحة، كالعمليات الإرهابية في الثكنات العسكرية، أو التفجيرات العبثية. على الرغم من ذلك فقد كان يمقت دائمًا اختطاف الضحايا الأبرياء بدون تمييز أو تنفيذ العمليات الإرهابية ضدّهم. وعلى غرار ما يحدث أحيانًا لبعض الناشطين في مجال حقوق الإنسان، كان يرى الأعمال الوحشية التي ترتكبها الحكومة على نحوٍ أوضح من تلك التي يرتكبها أعداء الحكومة المسلحون. كان يشرح الأمر على نحو متسق إلى حدٍ ما: إن اغتصاب طفل على يد كاهن أشد خطورة من اغتصابه على يد شخص منحرف. إنه الملح الذي لا يُمكن أن يفسد. لقد أقرّ عناصر حركة التمرّد المسلحة بخروجهم عن القانون، أمّا الحكومة فتدّعي احترام القانون. ولقد أصاب فيما ذهب، إلّا أنه من السهل أن يفقد المرء توازنه عبر هذا الطريق، ولقد فقد توازنه في بعض الأحيان. وهو الأمر الذي لن يبرر اغتياله أبدًا، ولكنه قد يفسّر ذلك الغضب القاتل الذي تملّك من قاتليه تفسيرًا جزئيًا.

أذكر أننا تناقشنا ذات مرّة حول عبارة ربما تكون من مقولات "بانتشو بيّا"، كان يحبّ ترديدها كثيرًا: «ما لم تتحقق العدالة، لا سبيل إلى تحقيق السلام.» أو بالأحرى: «ما لم تتحقق العدالة، لا سبيل إلى تحقيق السلام، ولا ينبغي له أن يتحقق.» سألته إذا كان الكفاح المسلّح، والحال كذلك، ضروريًا لمحاربة الظلم. فقال لي إنه كان ضروريًا في مواجهة هتلر. لم يكُن من المنادين بمبدأ السلام بمعنى الكلمة. ولكن في حالة كولومبيا، كان متأكدًا تمامًا من أن الكفاح المسلّح ليس هو الطريق السليم، وأن الأوضاع الراهنة لا تبرّر استخدام

القوّة وإساءة استخدامها من جانب حركة التمرّد المسلّحة. كان واثقًا من إمكانية بلوغ التغيير في البلاد عن طريق إجراء إصلاحات جذرية. لم يحدث وأن حاد به غضبه العارم قط عن مبدأ السلام الذي آمن به في أعمق أعماقه، حتّى عندما اشتدّ سخطه على الفظائع التي ارتكبها أفراد الجيش والحكومة، ورغم تفهّمه للطريق الذي سلكه آخرون، "كاميلو تورّيس" و"خوسيه ألبيار ريستريبو"، فقد كان يرى أن هذا ليس هو الحلّ. ما كان ليقدر على حمل بندقية يومًا، ولا قتل أحد لأي سبب كان، ولا تأييد حَمَلة السلاح بكلماته، بل كان يفضّل نهج غاندي، المقاومة السلمية حتّى وإن بذل حياته مُقدمًا بذلك تضحيته الكبرى.

فتح الأدراج

-37-

واحد من أشقّ الأمور التي لا بد وأن نقوم بها عندما يموت لنا قريب، أو حين يُقتل لنا قريب، هو إفراغ أدراجه من محتوياتها وفحصها. ولقد عهدوا إليّ بمهمة فحص الأدراج في مكتب أبي بعد مرور أسبوعين على مقتله (الملفات، الأوراق، المراسلات، الفواتير)، على أن تتولّى "ماري لوس" وأمّي أمر الأدراج في البيت. إن فتح الأدراج يعدّ بمثابة إحداث شقوق في عقل الآخر: ما هي أحبّ الأشياء إلى نفسه، من قابل، (وفقًا للمواعيد الواردة في الأجندة أو الملاحظات المدونة في إحدى مفكراته) ماذا أكل أو اشترى، (إيصالات من بعض المتاجر، كشوفات بنكية، فواتير)، ما هي الصور أو الذكريات التي كان يكنزها، أيّ مستندات كان يحتفظ بها مكشوفة، وأيّ مستندات كان يحتفظ بها سرًا.

ومن الأشياء الغريبة التي وقعت، اختفاء "إيسابيليتا" منذ يوم مقتل أبي، بعد أن عملت معه كسكرتيرة طوال العشر سنوات الأخيرة من حياته. لست أقصد أنها قد اختفت بالمعنى الحزين للمصطلح الدارج في أمريكا اللاتينية، ولكن على الرغم من معرفتنا بأنها بخير، كنّا نعرف أنها لا تريد رؤيتنا، أنها لا تريد العودة إلى المكتب، أنها تأبى الردّ على أي سؤال يرغب القضاة أو الأسرة في طرحه عليها، باختصار كنّا نعرف أنها خائفة. لم يعُد أي فرد من أفراد أسرتنا لرؤية "إيسابيليتا" منذ ما يقرب من عشرين عامًا، والآن أعتقد أنه ليس بيننا من يريد أن يسألها عن أيّ شيء. وإذا كانت صدورنا تغصّ بالأسئلة منذ

عشرين عامًا، فلقد أصبحت تلك الأسئلة اليوم متوارية، ومُجابة على نحو شخصي وسري، في أعمق أعماق فكرنا.

اضطررت للذهاب إلى المشرحة للمطالبة بملابس أبي ومتعلقاته بعد مرور عشرة أيام على وقوع الجريمة. تسلّمتها في كيس من البلاستيك، فأخذتها إلى مكتبه في جادة "تشيلي". أفرغت كلّ محتويات الكيس في الفناء: البدلة مضرجة بالدماء، القميص ملطخ بالدماء تبدو عليه ثقوب الرصاص، ربطة العنق، الحذاء. سقط شيء من ياقة السترة ثمّ قفز فوق الأرض بقوّة. دققت النظر، كانت رصاصة. لم يكلّف القضاة أنفسهم حتّى عناء فحص ملابسه. وفي اليوم التالي حملت الرصاصة إلى المحكمة، رغم معرفتي بأنها لن تنفع بشيء كذلك. حرقت كلّ ملابسه بسبب رائحتها المنفرة، باستثناء القميص، فتركته ليجفّ في الشمس، ملطخًا ببقع الدماء الداكنة المريعة.

احتفظت بذلك القميص المضرج بالدماء سرًا، لسنوات طويلة، وقد علقت به قطرات الدم المتخثرة التي اسودّت مع مرور الزمن وتفحّمت. لست أدري لما احتفظت به، وكأنني أودّ أن يوخزني كالإبرة، فلا يسمح لي بالنسيان كلما غفا ضميري، وكأنه مِنخس يوخز الذاكرة، وكأنه وعدٌ بضرورة الانتقام لموته. إلّا أنني أحرقت القميص بدوره وأنا أكتب هذا الكتاب، فلقد فهمت أن الانتقام الوحيد، والذكرى الوحيدة، والفرصة الوحيدة للصفح والنسيان، أشياء تتمثّل في رواية ما حدث، لا أكثر.

وعلى مدار الأيام التي تفحصت خلالها أوراقه، أخذت أختار بعض الفقرات من كتاباته الحديثة والقديمة شيئًا فشيئًا، وأخذت أعدّ كتابًا صغيرًا نشرناه فيما بعد بمساعدة المحافظ "فرناندو بانيسّو سيرنا" الذي أبدى لأسرتي بأكملها خير معاملة منذ أوّل يوم، وبمساعدة وزير التعليم "أنطونيو يبيس

بارّا"، الطبيب الذي سبق له وأن كان واحدًا من تلاميذ أبي، وأبدى رغبته في دعم المختارات التي وضعتها وأطلقت عليها في وقت لاحق «دليل التسامح». وقد أرسل إلينا المقدمة "كارلوس جابيريا" من منفاه في الأرجنتين.

ولكنني وجدت فيما وجدت بين تلك الأوراق والمستندات التي أخذت أتفحصها في مكتبه معلومات ذات طابع أكثر شخصية بكثير، وقد أعجبت بها رغم أنها فاجأتني. تذكرت قول أبي لي في الكثير من المرات بأن كلّ إنسان، وشخصيّة كلّ فرد، مثل دلو موضوع فوق طاولة. ثمّة وجه يُمكننا رؤيته جميعًا (سطح الدلو)، وأوجه يمكن للبعض أن يراها في حين لا يراها البعض الأخر، ويمكننا رؤيتها بدورنا إذا اجتهدنا في سبيل ذلك (الجوانب)، ووجه لا يراه سوانا (الجانب القائم أمام أعيننا)، ووجه آخر لا يراه سوى الآخرون (الجانب القائم أمام أعينهم)، ووجه خفي عن أعين الجميع، عنّا وعن الآخرين (الوجه السفلي للدلو). إن فتح درج من أدراج شخص متوفي كالغوص في ذلك الوجه الذي يبدو له وحده، ولا يرغب في أن يراه سواه، ويحول دون أن يراه الآخرون، وهو ذلك الوجه الخاص بالحياة الحميمية.

كان أبي قد أرسل إليّ إشارات كثيرة غير مباشرة حول حياته الحميمية. لم تكُن اعترافات، ولا مصارحات سافرة، فهي عادةً ما تكون عبئًا على الأبناء أكثر منها راحة للآباء، بل كانت أعراضًا خفيفة وإشارات سمحت بمرور بصيص من الضوء إلى مناطق الظلّ، إلى داخل الدلو الذي يُعدّ بمثابة الصندوق الأسود لضمائرنا. أمّا أنا فقد تركت تلك الإشارات في منطقة وسط بين الإدراك والعتمة، كتلك المشاعر التي يثيرها الحدس في نفوسنا ولكننا لا نريدها ولا نستطيع التأكّد منها عن طريق الوقائع، ولا نتركها تظهر على سطح الوعي بصفاء، أو بكلمات رائقة، أو أمثلة، أو تجارب، أو أدلة دامغة.

فقد أخذني أبي مرتين على سبيل المثل... مرتين لمشاهدة فيلم «موت في فينيسيا» لـ"لوكينو فيسكونتي"، ذلك الفيلم البديع المستوحى من رواية قصيرة لـ"توماس مان"، والذي يصور رجلًا في أواخر أيامه يشعر بتحرّك مشاعره نحو الجمال الفاتن المتمثل في الفتى البولندي "تادزيو"، وإذعانه له في الوقت نفسه (ربما كان مصدر إلهام "فيسكونتي" هو الموسيقار "مالر"، والذي كانت موسيقى الفيلم من أعظم مؤلفاته). ويقول "مان" إنه لم يرِد تصوير الجمال على أنه فتاة، بل فتى، حتّى لا يظنّ القرّاء أنه إعجاب جنسي بحت أو مجرد انجذاب جسدي. إن ما شعر به بطل الفيلم "جوستاف فون أشينباخ" كان أكثر من ذلك قليلًا، وأقلّ منه قليلًا: فهو افتتان بالجسد يكاد يكون مجرّدًا، وتجسيد لُمُثُل دعونا نقول إنها أفلاطونية، تمثّلت في جمال فتى مُراهق يجمع ما بين الذكورة والأنوثة. كُنت مستغرقًا أكثر مما ينبغي في عالمي الخاص عندما أصرّ أبي على أن نشاهد الفيلم من جديد، للمرة الثالثة، ربما حين لاحظ عدم مقدرتي على إدراك دلالته الأعمق والأكثر خفاءً.

في الخطاب الذي كتبه إليّ عام 75، ونشره خاتمة لكتابه الثاني (رسائل من آسيا)، قال ما يلي: «الأمر الذي يتضح لي رويدًا رويدًا أن أكثر ما يثير إعجابي هو الجمال. فما من سبيل لأن أكون عالمًا، وهو ما سعيت إليه طوال حياتي بلا فائدة، ولا أن أكون سياسيًا كما كنت أودّ. ربما لو كنت قد عقدت العزم على ذلك، لاستطعت أن أصبح كاتبًا. ولكن ها أنت قد بدأت تفهم وتحسّ بكل الجهد، والعمل، واللوعة، والعزلة، والوحدة، والألم المبرح الذي تقضي به الحياة على من اختار طريق خلق الجمال صعب المسالك. أنا متأكّد من قبولك لدعوتي بأن نشاهد سويًا «موت في فينيسيا» لـ"فيسكونتي" هذا المساء. الفيلم الذي أبهرني شكلًا حين شاهدته وحدي لأوّل مرة. أمّا آخر مرّة فقد استطعت أن أدرك جوهره، عمقه. سنتناقش حوله الليلة.»

ذهبنا لمشاهدة الفيلم مرة أخرى، بيد أننا لم نتناقش حوله تلك الليلة، فربما كان ثمّة ما لا أريد فهمه وأنا في السابعة عشر من عمري. أعتقد أنني لم أتوصّل لفهمم ما أراد لي أبي أن أراه حين أخذني لمشاهدة «موت في فينيسيا» سوى في وقت لاحق، بعد مرور عقد من الزمان على موته، وأنا أنقّب في أدراجه. ثمّة مناطق ظليلة في حياتنا جميعًا، وهي ليست بالضرورة مناطق مخزية، بل ومن الممكن أن تكون أكثر الفصول مدعاة للفخر في تاريخنا، تلك التي تجعلنا نفكر في النهاية أن مرورنا عبر الأرض كان له ما يبرره رغم كلّ شيء، ولكننا لا نريد أن نشاطرها مع الآخرين، إذ تمثّل الجزء الأكثر حميمية من حياتنا. ومن الممكن كذلك أن تكون مناطق خافية لأنها تبدو لنا مخزية، أو على الأقلّ لأننا نعرف أن المجتمع المحيط بنا في تلك اللحظة سيرفضها باعتبارها بغيضة أو شنعاء أو قذرة، رغم أنها بالنسبة لنا ليست كذلك. أو من الممكن أن تكون تلك المناطق في الظلّ لأنها حقًا، وبغضّ النظر عن الوقت أو الثقافة، أفعال مذمومة، مقيتة، لا تقبل بها القيم الإنسانية لكائن من كان.

لم تكُن الظلال التي وجدتها في أدراج أبي من ذلك النوع الأخير. بل إن كلّ ما وجدت يجعله أعظم وأعزّ وأجدر بالاحترام في نظري، ولأنه لم يرغب في أن تطّلع عليه زوجته ولا أيّ من بناته، فسوف أترك ذلك الدرج مغلقًا بدوري، إذ لن يؤدي فتحه سوى لإثارة الثرثرة عديمة الفائدة التي تليق بالمسلسلات، ولا تليق بإنسان أحبّ كل المظاهر الإنسانية للجمال، إنسان كان تلقائيًا وفي الوقت نفسه متكتمًا.

كيف يأتي الموت

-38-

ثمّة حقيقة بلا أهمية، نقول بها بغير شكّ أو يقين، ورغم ذلك فمن المهم أن تكون تلك الحقيقة حاضرة معنا بصفة دائمة: كلّنا سيموت، وختام كلّ حياة واحد. ويُعدّ حضور الموت والوعي به واحدًا من أبرز أوجه الشعر الكلاسيكي باللغة الإسبانية. وبعض من أفضل صفحات الأدب الإسباني يتناول الموت بجمال قاسٍ وشجيّ في الوقت نفسه، بذلك العزاء المنطوي على مفارقة، والمتمثل في استحضار الموت مُغلفًا بكمال الفن، على غرار أشعار "سان خوان دي لا كروث"، و"ثيربانتس"، و"كيبيدو"...

وخلال نزهاتنا الطويلة عبر الحقول، أنشد أبي بعضًا من «قصائد دون "خورخي مانريكي" في رثاء والده» من الذاكرة، مرات كثيرة إلى الحدّ الذي جعلني أحفظها بدوري، وأعتقد أنها رافقتني كما رافقته طوال الحياة، تدقّ جدران رأسي بإيقاعها البديع، بنغمها المثالي المُعزّي الذي يُطلّ على السمع والفكر من أعمق ثنايا ضمير يسعى لتفسير ما لا تفسير له:

«أيقظ النفس النائمة من سباتها،
اشحِذ عقلك وأفِق،
متأملًا
كيف تمرّ الحياة،

كيف يأتي الموت
يخيّم عليه كلّ هذا الصمت،
وبأي سرعة تمضي المسرّات،
وكيف... نتألم لذكراها،
كيف يتراءى لأعيننا
أن أيّ وقتٍ مضي
كان أجمل.

ولو رأينا الحاضر،
على أنه منقضٍ... راحل
عند نقطة من الزمان،
لو حكمنا بحكمة،
لحسبنا الآتي ماضيًا.
فلا، لا ينخدعن أحدكم،
ظنًا أن ما في الانتظار
باقٍ أطول مما مضى،
فكلّ شيء يمرّ
من ذاك الطريق.

حياتنا أنهار تجري
لتصبّ في البحر،
بحر الموت،
حيث يذهب السادة رأسًا،

إلى النهاية والفناء،
هناك حيث النهر الدافق،
هناك حيث الغدير،
والجدول،
تصبّ جميعًا،
حيث الغنيّ
ومن يعيش من كدّ يديه
سواء.»

نعرف أننا سنموت لسبب بسيط، وهو حقيقة أننا على قيد الحياة. ونعرف ماذا سيحدث (سنموت)، بيد أننا لا نعرف متى، ولا كيف، ولا أين. ورغم أن هذا الختام مؤكد، لا مفر منه، فحين يضرب الموت، الذي ينزل دائمًا بشخص آخر، يروق لنا التحقّق من لحظة الموت، ورواية التفاصيل حول الكيفية، ومعرفة دقائق المكان، والتكهّن بالسبب. ومن بين كلّ الميتات الممكنة ثمّة واحدة نقبلها بقدرٍ كافٍ من التسليم: الموت الناجم عن الشيخوخة، في السرير، بعد حياة نعيشها طولًا وعرضًا، حياة متّقدة ونافعة. وهكذا كان موت «السيّد دون "رودريجو مانريكي" ذائع الصيت وبالغ الشجاعة»، ولهذا فإن «قصائد» ابنه دون "خورخي"، وعلى نحو معيّن، لم تكُن نهايتها تنطوي على تسليم بالأمر فحسب، بل كانت سعيدة رغم تناولها لموت أبيه. فلم يرضَ الأب بموته فحسب، بل لاقاه بسرور:

«هكذا، وقد أدرك هذا،
محتفظًا بكل حواسه البشرية،

بين زوجته
وأبنائه وإخوته
وخدمه،
أسلم الروح لباريها
(نتضرع إليه ليسكنه فردوسه ومجده)
وحتّى وإن فارقته الحياة،
فقد ترك لنا فيضًا من العزاء،
ذكراه.»

متقدمًا في السن، محتفظًا بحواسه ومحاطًا بأحبائه... تلك هي الميتة الوحيدة التي نرضى بها بهدوء، فيما تعزّينا الذكرى. تكاد تكون كلّ الميتات الأخرى مقيتة، وتُعدّ أنكرها وأشدّها عبثًا هي ميتة الطفل أو الشاب، أو الموت الناجم عن العنف القاتل على يد إنسان آخر. فيقابل الضمير تلك الميتات بالتمرّد، والألم، والغضب الذي لا يلين، وهو ما كان، على الأقل في حالتي. فلم أرضَ قط بموت أختي مُسلّمًا بالأمر، ولن أستطيع أن أقبل بمقتل أبي بهدوء يومًا. صحيح أنه، وعلى نحو ما، كان راضيًا عن حياته وعلى أهبة ملاقاة الموت إن لزم الأمر، ولكنه كان كارهًا لتلك الميتة العنيفة التي بدا من الواضح أنهم بصدد إعدادها له. وهو أنكر الأمور وأشدّها إيلامًا. وهذا الكتاب ما هو إلّا محاولة لتسجيل شهادة حول ذلك الألم، شهادة عديمة الفائدة وضرورية في آن واحد. عديمة الفائدة لأن الوقت لا يُردّ، ولا الأفعال تُبدّل، بيد أنها ضرورية على الأقلّ بالنسبة إليّ، لأن حياتي وعملي سيكونان بلا معنى إن لم أكتب ما أشعر بضرورة كتابته، وما لم أستطع كتابته طوال ما يقرب من عشرين عامًا، وحتى الآن.

في وقت مبكر جدًا من الإثنين، الرابع والعشرين من أغسطس لعام 1987، في حوالي السادسة والنصف صباحًا، تلقّى أبي اتصالًا من إحدى المحطات الإذاعية قيل له خلاله إن اسمه على قائمة اغتيالات وُجدت في "ميديّين" ووردت بها إشارة إلى النيّة المعقودة على قتله. فقرأ له المتصل الفقرة التي تعنيه: «"إكتور آباد جوميس": رئيس لجنة أنتيكويا لحقوق الإنسان. طبيب، معاون لعناصر حركة التمرّد المسلّحة، ديمقراطيّ زائف، يمثل خطورة بسبب شعبيته التي تعزّز من فرصته للفوز بانتخابات المحافظة في "ميديّين". مغفّل على قدر من الأهمية لدى كلّ من الحزب الشيوعي الكولومبي والاتحاد الوطني.» ثمّ استضيف أبي على الهواء مباشرةً فطلب أن تُقرأ عليه المزيد من الأسماء التي تضمنتها تلك القائمة. وقد كان. ومن بينها كانت أسماء كل من الصحفي "خورخي تشيلد"، ووزير الخارجية السابق "ألفريدو باسكيس كارّيسوسا"، والكاتب الصحفي "ألبرتو أجيرّي"، والزعيم السياسي "خايمي باردو ليال" (الذي اغتيل بعد شهور)، والكاتبة "باتريسيا لارا"، والمحامي "إدواردو أومانيا لونا"، والمغنّي "كارلوس بيبيس"، وغيرهم الكثيرين. لم يقُل أبي سوى إن له عظيم الشرف أن يكون مع رفقة تضمّ شخصيات صالحة ومهمّة إلى هذا الحدّ، شخصيات تفعل كلّ ما تفعل لصالح البلاد. عقب انتهاء اللقاء، طلب من الصحفي عبر الهاتف الداخلي أن يسديه صنيعًا بإرسال نسخة من تلك القائمة إلى مكتبه.

قبل ذلك بأسبوع، في الرابع عشر من أغسطس، قُتل عضو البرلمان اليساري "بيدرو لويس بالينسيا"، والذي كان بدوره طبيبًا وأستاذًا جامعيًا، فنظّم أبي مسيرة في التاسع عشر من أغسطس «من أجل الحقّ في الحياة»، وخرج على رأسها في بادرة احتجاج على اغتياله. قطعت تلك المسيرة العظيمة شوارع وسط "ميديّين" في صمت، وصولًا إلى حديقة "بيرّيو" حيث كانت الكلمة الوحيدة التي ألقيت يومئذ لأبي. وأثناء مروره، شاهده الكثيرون عبر شاشة التلفزيون،

ورأوه من النوافذ والمكاتب، ثمّ أخبرونا بما جال بخاطرهم: سيقتلونه هو أيضًا، سيقتلونه. وفي مقاله قبل الأخير تحدّث عن تلك الجريمة وندّد بالجماعات شبه العسكرية. كما عقد مؤتمرًا في جامعة "بونتيفيسيا بوليباريانا" حيث اتّهم الجيش ومسؤولين في الدولة بالتواطؤ مع المجرمين.

وفي ظهيرة ذلك اليوم، الاثنين الرابع والعشرين من أغسطس، اتّصل "ألبرتو أجيرّي" به في بيته (بعد أن قضى النهار بأكمله يبحث عنه في المكتب بلا فائدة) ونجح في إقناعه بأن يطلب مقابلة المحافظ "ويليام خاراميّو"، لسؤاله عن المزيد من المعلومات حول مصدر تلك التهديدات، وربما لطلب بعض الحماية، واتفقا على اللقاء يوم الأربعاء في تمام الحادية عشر بمكتب أبي. وفي مساء نفس اليوم اجتمعت لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان، وقررت إصدار بيان موجه إلى الرأي العام إزاء خطورة الموقف، تندّد فيه بِفِرَق الموت والجماعات شبه العسكرية التي تُجري عملياتها في المدينة عن طريق اغتيال شخصيات من الجامعة. وقد حضر اجتماع اللجنة كلٌّ من "كارلوس جابيريا" و"ليوناردو بيتانكور" و"كارلوس جونيما" وآخرين. وفي اليوم التالي اغتيل "ليوناردو" وأبي، أمّا "كارلوس جونيما" فقد اغتيل في الثاني والعشرين من فبراير، بعد أشهر قلائل، في حين نجا "كارلوس جابيريا" بحياته لأنه غادر البلاد.

وفي نهاية الاجتماع سأل "كارلوس جابيريا" أبي عن رأيه في مدى جديّة التهديد الشخصي الذي دار حوله الحديث صباح ذلك اليوم في الراديو. فدعاه أبي للبقاء بعض الوقت لتجاذب أطراف الحديث وليخبره برأيه. فتح زجاجة ويسكي صغيرة على هيئة جرس (أخذها "كارلوس" خاوية مساء ذلك اليوم وما زال يحتفظ بها في مكتبه كتذكار)، ثمّ قرأ عليه القائمة التي أُرسلت إليه، ورغم قوله بأن التهديد جاد، فقد كرّر أنه يشعر بعظيم الفخر لوجوده مع رفقة صالحة إلى هذا الحدّ. «لا أريد أن أُقتل، ولا أريد تعريض نفسي للمخاطر،

ولكن ربما لا تكون تلك شرّ ميتة. حتّى وإن قتلوني، ربما أفاد قتلي بشيء.» عاد "كارلوس" إلى بيته يساوره إحساس بالقلق.

وعلى مدار تلك الأيام تحدّث أبي مرات عديدة عن الموت بنبرة غامضة تتراوح ما بين التسليم والخوف. كان قدّ تأمّل موته بالقدر الكافي منذ وقت طويل. بل وأهدى إليه واحدةً من القصص القليلة التي كتبها طوال حياته، حيث صوّر الموت متمثلًا في شخصية أسطورية، عجوز متّشحة بالسواد تحمل على كتفها منجلًا، تزوره ذات مرّة، ولكنها تمهله بعض الوقت. ومن بين الأوراق التي جمعتها بعد موته ونشرتها بعنوان "دليل التسامح"، وجدت تلك الخاطرة: «قال "مونتين" إن الفلسفة ذات فائدة، فهي تُعلمنا الموت. أمّا بالنسبة لي، الآن وقد أصبح موقعي في المسيرة بين الحياة والموت، والتي نسمّيها الحياة، أقرب إلى المرحلة الأخيرة منه إلى الأولى، فإن موضوع الموت يزداد بساطة وطبيعية، ويمكنني القول بأنه يزداد جاذبية (ليس باعتباره موضوعًا، بل حقيقة). وليس لأنني أشعر بخيبة الأمل تجاه شخص أوشيء ما. بل ربما يكون العكس تمامًا. فأنا أعتقد أنني عشت الحياة طولًا وعرضًا، بقوّة، وبما فيه الكفاية.»

كان بالفعل، وبلا شكّ، على أهبة الاستعداد للموت، ولكن هذا لا يعني رغبته في أن يُقتل. وفي أحد اللقاءات التي أُجريت معه ذلك الأسبوع، سُئل عن الموت، أو بالأحرى عن احتمال تعرّضه للقتل، فجاء ردّه كما يلي: «أنا راضٍ جدًا عن حياتي ولا أخشى الموت، ولكن ما زالت لديّ دوافع كثيرة للبهجة: عندما أكون مع أحفادي، عندما أغرس الورد وأتجاذب أطراف الحديث مع زوجتي. أجل، رغم أنني لا أخشى الموت فلا أريد أن أُقتَل، أتمنّى ألّا أُقتَل، أريد أن أموت محاطًا بأبنائي وأحفادي، بهدوء [...] لا بد وأن الموت العنيف أمرٌ رهيب، لن يروق لي إطلاقًا.»

-39-

في ذلك اليوم، الثلاثاء الخامس والعشرين من أغسطس، استيقظت وأختي مبكرًا للذهاب إلى "لا إينيس"، المزرعة الواقعة في "سورويستي"، والتي ورثها أبي عن جدّي "أنطونيو". كنّا قد طلبنا إنشاء حمام سباحة وذهبنا يومئذ لتسلمه. ونظرًا لعدم وجود طريق يمكن من خلالها الوصول إلى البيت، طلبنا من دونيا "لوسيا دي لا كويستا"، مالكة مزرعة "كالاماري" المجاورة، إذنًا بمرور المواسير المعدنية ومواد بناء حمام السباحة عبر المراعي الخاصة بها. ومن كثرة الأحجار والأسمنت التي تمّ نقلها بواسطة السيارة الـ"جيب سوزوكي"، تكوّن ممر صغير عبر الأرض، ومن هناك مررت و"ماري لوس" لتسلّم الأعمال المطلوبة. رأينا حمام السباحة ممتلئًا بالمياه، غمرتنا البهجة حين فكّرنا في الأوقات الطيبة التي سنقضيها من ذلك الحين فصاعدًا. كنّا في طريق العودة إلى "ميديّين" قبل الظهيرة، وأخذت أختي ثمرتي "باديا" ضخمتين لتهديهما إلى أبي، كانتا من أولى ثمار الشجيرة التي غرسها أبي بنفسه في المزرعة قبل شهور.

وفي موعد الغداء، لم ترِد "ماري لوس" أن تقول له أين يقع مكان حمام السباحة، أو تخبره عمّا إذا كانت قد تمّ بناؤه في الفناء الخلفي أو الأمامي للمنزل، بل وكذبت عليه كذبة بيضاء لتزيد من وقع المفاجأة، فقالت له إن النقود لم تكفِ لهدم السور المحيط بالمر، وهو السور الذي لم يكن يروق لأبي. في ظهيرة ذلك اليوم اتصلت دونيا "لوسيا دي لا كويستا" بدورها لتخبر أبي أنه نظرًا لانتهاء حمّام السباحة سيتم تعليق الإذن بالمرور عبر مزرعتها، وإلّا فلسوف نكتسب حق ارتفاق على أرضها. سألها أبي عمّا إذا كانت ستسمح له

بالدخول بسيارته فقط في ديسمبر، فقالت له "لوسيا" بلطف كلا، فهو بخير حال ويمكنه بلوغ بيته على ظهر الحصان. فأصرّ أبي قائلًا: «وعندما يتقدّم بي السن ولا أقدر على امتطاء الحصان؟» فأجابته "لوسيا": "ما زال أمامك الكثير يا "إكتور"، سنرى.» وقد روت لي دونيا "لوسيا" بنفسها تلك المحادثة بعد سنوات. جميع من تحدّث إليه ذلك اليوم يذكر كلّ كلمة من كلماته.

في ذلك الوقت كان أبي المرشح المحتمل لمنصب محافظ "ميديّين" عن الحزب الليبرالي، وهي أوّل مرّة تختار فيها كولومبيا محافظيها عن طريق الانتخابات المباشرة. وكان أبي مرتبطًا بموعد على الغداء يوم الخميس في مزرعة "ريونجرو" مع الدكتور "خيرمان سيا إيرنانديس"، والذي جاء من "بوجوتا" في محاولة لإقناع الليبراليين المحتمل ترشحهم بالاتفاق على مرشّح واحد. وقد أبدى رئيس المجلس الليبرالي "برناردو جيرّا" اعتراضه على أن يكون هذا المرشح هو أبي، رغم أنه كان أوفر المرشحين حظًا، بل ورفض حضور غداء الخميس في المزرعة، والذي حضره كلّ الليبراليين المحتمل ترشحهم. شرعت أمّي في تحضير الطعام ومباشرة ترتيبات ذلك الغداء منذ الثلاثاء. في حين أعدّت أختي الأخرى "بيكي" مأدبة في بيتها يوم الجمعة، بحضور كلّ القادة الليبراليين المنشقّين، ومن بينهم حبيبها السابق وعضو البرلمان "ألبارو أوريبي بيليس". ورغم سذاجته الشخصية فيما يتعلّق بالسياسة، فقد كان أبي يتمتع بحدس جيد لمعرفة الأشخاص الذين يُمكنهم النجاح في ذلك المضمار. وفي آخر لقاء أجراه أبي ونشرته جريدة "إل إسبكتادور" في نوفمبر من عام 1987، صرّح بما يلي: «في هذه اللحظة يحوز إعجابي كلّ من "إرنستو سامبر بيسانو" و"ألبارو أوريبي بيليس"، فهما يعرضان مقترحات جيدة.» وكلاهما وصل بعد سنوات إلى كرسي الرئاسة في كولومبيا.

في صباح نفس اليوم، الخامس والعشرين، اغتيل "لويس فيليبي بيليس" رئيس هيئة التدريس في "أنتيوكيا"، عند مدخل مقرّ النقابة، مما أثار سخط أبي. بعد سنوات طويلة، وفي كتاب نُشر عام 2001، اعترف "كارلوس كاستانيو" الذي تولّى زعامة الجماعات شبه العسكرية على مدار عشر سنوات بقيام المجموعة التي كان يرأسها في "ميديّين"، بناءً على مشورة المخابرات العسكرية، باغتيال كل من عضو البرلمان "بيدرو لويس بالينسيا"، تحت سمع وبصر أبنائه الصغار، ورئيس هيئة التدريس "لويس فيليبي بيليس" وغيرهم الكثيرين من الضحايا. وقد اتّهمهما بالضلوع في أعمال الاختطاف.

وتروي أمّي أنه في ظهيرة يوم الثلاثاء، وأثناء عودتهما سويًا من المكتب، أراد أبي أن يستمع إلى أخبار الجريمة التي راح ضحيتها "لويس فيليبي بيليس"، بيد أن الحديث لم يتطرق إلى أي شيء بخلاف كرة القدم على كافة المحطات الإذاعية. كان أبي يرى أن الإفراط في الأخبار الرياضية هو أفيون الشعب الجديد الذي يبقيه غافيًا، دون أن تكون لديه أدنى فكرة حقيقية عما يدور في الواقع، وهكذا كتب عدة مرات. وأثناء وجوده مع أمّي ضرب عجلة القيادة بقبضة يده، ثمّ قال حانقًا: «إن المدينة تنهار، ومع ذلك فلا حديث إلّا عن كرة القدم.» تقول أمّي إنه كان منزعجًا يومئذ، يعتريه مزيج من الغضب والحزن، ويكاد يبلغ حافة اليأس.

وفي صباح نفس اليوم، الخامس والعشرين من أغسطس، قضى أبي بعض الوقت في كلية الطبّ، ثم في مكتبه بالطابق الثاني من البيت الذي تُدار منه الشركة الخاصة بأمّي في وسط المدينة، في جادة "تشيلي"، بجوار البيت حيث سبق لـ"ألبرتو أجيرّي" الإقامة في شبابه، وحيث كان لا يزال أخوه مقيمًا. كان ذلك هو مقرّ لجنة "أنتيوكيا" لحقوق الإنسان. وأعتقد أنه في وقت ما من نهار ذلك اليوم نسخ أبي بخط يده سوناتا لـ"بورخيس" كان يحملها في جيبه مع قائمة الاغتيالات حين قُتل. كانت قصيدة تُدعى «نقوش على شاهد القبر» وتقول:

«لقد صرنا النسيان الذي سنكون.

التراب البدائي، الجاهل بنا،

التراب الذي كان آدم الأحمر،

وصار اليوم كلّ الرجال،

التراب الذي لن نراه.

لقد صرنا تاريخين فوق شاهد القبر،

تاريخ البداية وتاريخ النهاية.

صرنا الصندوق

التعفّن الكريه، والكفن،

انتصار الموت، والنواح.

لست أنا ذلك الأحمق الذي يتشبث

برنين اسمه الساحر.

أفكّر، يحدوني الأمل، في ذلك الرجل

الذي لن يعرف أنني كنت على الأرض.

وأسفل زرقة سماء لا تبالي

أجد في تلك الخاطرة عزاء.»

في المساء عاد إلى مكتبه، كتب مقاله للصحيفة، أجرى بعض الاجتماعات مع المشاركين في حملته الانتخابية واتفق على مقابلة القائمين على الدعاية في مقرّ المجلس الليبرالي مساءً. كانوا ليلتها يفكرون في إغراق المدينة بلافتات تحمل اسم المرشح وصورته. وقبل التوجّه إلى مقرّ المجلس، اقترحت امرأة لا نعرف اسمها، ولم نعُد لرؤيتها قط، أن يذهب أبي إلى نقابة المعلمين لحضور الوداع الأخير للقائد الذي راح ضحيّة الاغتيال. أعجب أبي بالفكرة كثيرًا، بل ودعا "كارلوس جابيريا" و"ليوناردو بيتانكور" للذهاب معه، وقد كان في طريقه إلى هناك حين رأيته لآخر مرّة.

تقابلنا صدفة عند باب المكتب. كنت قد وصلت مع أمّي في سيارتها التي قدتها بنفسي، أمّا هو فقد كان في طريقه خارج الباب برفقة تلك المرأة الممتلئة، التي تبدو بلا خاصرة، وترتدي ثوبًا أرجوانيًا على غرار تماثيل أسبوع الآلام المأساوية. قلتُ لأمي ضاحكًا معها حين رأيتهما: «انظري يا أمي، أبي يخونك مع امرأة أخرى.» اقترب أبي من السيارة في حين ترجلنا منها. طبع قبلة رنانة على وجنتي بقوّة، مُشرقًا كدأبه دائمًا كلما رآني، وسألني كيف كانت المقابلة التي أجريتها في الجامعة.

كنت قد عدتُ من إيطاليا قبل ذلك بأشهر قلائل، ولي زوجة وبنت بالكاد تخطو خطواتها الأولى، بلا عمل، وعمري ثمانية وعشرين عامًا. ولكي أتدبر أمري التحقت بشركة أمي حيث عملت بكتابة الرسائل والمذكرات وتدوين المحاضر وإدارة البنايات طالما كان العمل له علاقة بما درست. كنت قد أجريت مقابلة لتوي مع أستاذ على قدر عظيم من الأهمية في مجال دراسات العلوم الإنسانية، وهو الأستاذ "بيكتور ألباريس"، والذي نجح أبي في أن يحدّد لي مقابلة معه مساء ذلك اليوم. كان اجتماعي بالأستاذ "بيكتور" محزنًا بالنسبة لي، إذ لم يمنحني أدنى أمل بالفوز بإحدى الوظائف الشاغرة التي فتح باب

الترشح إليها حديثًا للعمل كأستاذ بدوام جزئي. فلم تكُن شهادتي معترفًا بها في جامعة "أنتيوكيا"، بل وأخبرني بأن كل الأماكن مشغولة في مجال دراستي التي أجريتها حول الآداب الحديثة، ويجب أن ننظر في الأمر لاحقًا، ربما العام المقبل. حكيت لأبي على نتيجة المقابلة ورأيت إمارات خيبة الأمل العميقة بادية على وجهه. كانت ثقته فيّ بلا حدود، فكان يعتقد أنه ينبغي على الجميع استقبالي بأذرع مفتوحة وفتح كافة الأبواب على مصراعيها من أجلي. وبعد لحظة بدا خلالها وجهه وقد علته مسحة من الكآبة، بمزيج من الحزن والدهشة التي اعترته إثر الإخفاق، أشرق وجهه فجأة بابتسامة سعيدة من جديد، وكأن فكرة سارة قد خطرت له في الوقت نفسه، ثمّ قال لي، في منتصف القبلة التي كان يودعني بها دائمًا، آخر ما سمعت منه في حياته (كان أمامه عشر دقائق قبل أن يُقتل):

«هدئ من روعك يا حبيبي، سترى عمّا قريب أنه سيأتي يومٌ يكونون هم من يطلبونك فيه.»

كنّا والحال كذلك عندما وصل واحد من أعزّ تلاميذه، "ليوناردو بيتانكور"، بدراجته البخارية. حيّاه أبي بحرارة، وجعله يصعد إلى المكتب لتوقيع آخر بيان صدر عن لجنة حقوق الإنسان، والذي كُتب في الليلة السابقة، وبعد ذلك تمّ تبييضه. دعاه لمرافقته بعض الوقت إلى تأبين المُعلّم ضحيّة الاغتيال، على بعد ثلاث نواصي من هناك، في مقرّ النقابة. ذهبا سيرًا على الأقدام يتجاذبان أطراف الحديث، بينما دخلتُ وأمّي إلى المكتب، حيث أخذتُ أُحضّر اجتماع مجلس الإدارة الخاص ببناية "كولسيجوروس" المزمع عقده في السادسة، في حين أخذت تعتني هي بأعمالها. لعلها كانت الخامسة والربع تقريبًا.

أمّا ما تلا ذلك من أحداث فلم أره، بيد أنني توصلت إليه من خلال ما رواه بعض الشهود، أو ما قرأت في المحضر رقم 319، محكمة الجنايات الابتدائية المتنقلة، والذي تحرر في السادس والعشرين من أغسطس لعام 1987 بجريمة قتل وإحداث إصابات شخصية، وتمّ حفظه بعد سنوات قلائل بلا جناة أو محتجزين، وبلا وضوح، وبلا أية نتائج. إذا قرأنا ذلك التحقيق اليوم، بعد مرور ما يقرب من عشرين عامًا، فإنه يبدو ممارسة للتستر ومحاولة متواطئة لترجيح كفّة الإفلات من العقوبة أكثر منه تحقيقًا جادًا. يكفينا القول إنه قد تمّ منح إجازة للقاضية التي تولّت القضية بعد شهر على فتحها، وتمّ تعيين موظفين من "بوجوتا" لمراقبة التحقيق عن كثب، أو بمعنى أصحّ لتجنب إجراء تحقيقات جادة.

سار كلٌ من أبي و"ليوناردو" والمرأة عبر جادة "تشيلي" وصولًا إلى شارع "أرخنتينا" حيث انعطفوا يسارًا، عبر الرصيف الواقع على الجانب الشمالي. بلغوا ناصية "بالو" ثمّ عبروا الطريق. واصلوا مسيرهم نحو "خيراردوت"، ثمّ تجاوزوها ليقرعوا باب نقابة المعلمين، «رابطة المعلمين في "أنتيوكيا"»، عند الناصية التالية. انفتح الباب، وهناك تجمّع حشد صغير، فقد أخذ يتوافد معلمون آخرون في تلك اللحظة بغرض الاستعلام. كان قد تمّ نقل جثمان "لويس فيليبي بيليس" منذ ما يزيد عن ساعتين لعرض النعش خلال الجنازة ومن ثمّ لإقامة مظاهرة احتجاجية في "كوليسيو". بحث أبي مستغربًا عن وجه المرأة التي ذهبت معه إلى هناك، بيد أنه لم يراها بجانبه، كانت قد اختفت.

يقول أحد الشهود إن دراجة بخارية يقودها شابان مرّت من شارع "أرخنتينا"، ببطء في البداية، ثمّ بسرعة شديدة. قيل إن الشابين كانا حليقي الرؤوس كما هو شائع بين الميليشيات وبعض القتلة. تركا الدراجة البخارية دائرة وأوقفاها على جانب الرصيف، ثمّ اقتربا من الجمع الصغير الواقف أمام الباب وهما يخرجان أسلحتهما من الأحزمة.

هل أتيح لأبي الوقت الكافي لرؤيتهما؟ هل عرف أنهما سيقتلانه في تلك اللحظة؟ حاولت طوال ما يقرب من عشرين عامًا أن أضع نفسي مكانه، في مواجهة الموت، في تلك اللحظة. أتصوّر نفسي في الخامسة والستين من عمري، بالسترة وربطة العنق، أسأل عند باب إحدى النقابات عن تأبين القائد الذي اغتيل صباح ذلك اليوم. لعله سأل عن الجريمة التي ارتكبت قبل ساعات قلائل، لعلهم أطلعوه لتوهم على تفاصيل مقتل "لويس فيليبي بيليس" هناك، في ذلك المكان بعينه حيث يقف. يخفض أبي بصره إلى الأرض، إلى قدميه، وكأنه يودّ رؤية دماء المعلّم ضحيّة الاغتيال. لا يرى أثرًا لأي شيء، ولكنه يسمع خطوات مسرعة تقترب، أنفاس لاهثة تبدو وكأنها تلفح عنقه. يرفع بصره فيرى وجه القاتل الخبيث، يرى النيران تنطلق من فوهة المسدس، وفي الوقت نفسه يسمع الطلقات، ويشعر بضربة في صدره تطرحه أرضًا. يسقط على ظهره، تقفز نظارته وتتحطم، ومن مكانه على الأرض يتسنى له أن يرى بارتباك فوهة المسدس تنفث النيران مرّة أخرى وتقتله من جديد بعدّة طلقات في الرأس والعنق والصدر، بينما هو يفكر للمرّة الأخير في أحبائه جميعًا، أنا على يقين من ذلك، والألم يعتصر جانبه. ستّ طلقات، مما يعني أن أحد القاتلين قد أفرغ فيه مسدسه. وفي تلك الأثناء يطارد البلطجي الآخر "ليوناردو بيتانكور" إلى داخل البيت حيث مقرّ النقابة، وهناك يرديه قتيلًا. لا يرى أبي تلميذه العزيز يسقط

قتيلًا، في الحقيقة لم يعُد يرى شيئًا، لم يعُد يذكر شيئًا، يُدمي، بعد لحظات قلائل يتوقّف قلبه عن الخفقان، وينطفئ عقله.

فارق الحياة دون أن أعرف، فارق الحياة دون أن تعرف أمّي، دون أن تعرف أخواتي، دون أن يعرف أصدقاؤه، دون أن يعرف هو نفسه. وفي الوقت نفسه أبدأ الاجتماع الإداري لبناية "كولسيجوروس"، فيقرأ محضر الجلسة السابقة رئيس مجلس الإدارة، المحامي وخبير الخطوط "ألبرتو بوسادا أنخيل" (والذي سيتعرض للاغتيال بدوره طعنًا بالسكين بعد بضعة سنوات)، ثمّ يصل شخص آخر متأخرًا قليلًا، وقبل أن يتخذ لنفسه مقعدًا يخبرنا بأنه قد شهد مقتل ضحيّة أخرى لتوّه. ويحكي لنا عن رصاصات القتلة، وما صارت إليه "ميديّين" من فظاعة. لا أتصوّر من يكون الضحية، وأسأل في غفلة من أمري تقريبًا من يكون القتيل. أتلقّى اتصالًا هاتفيًا في تلك اللحظة. من الغريب أن تتمّ مقاطعتي في عزّ الجلسة، ولكن الأمر عاجل حسبما يقال، أغادر الاجتماع. المتحدّث أحد الصحفيين من معارفي القدامى، يقول: «أخيرًا سمعت صوتك، يتردّد هنا أنك قُتلت.» فأقول كلّا، أنا بخير، وأنهي المكالمة، ثمّ في اللحظة نفسها أعيد التفكير وأدرك من هو القتيل، دون أن يخبرني أحد. إذا كان ثمّة من يقول إن "إكتور آباد" قد قُتل، فهذا لأن شخصًا يحمل نفس الاسم قد قُتل. أتوجّه إلى مكتب أمّي رأسًا وأقول لها: «أعتقد أن الأسوأ قد وقع.» كانت تتحدث عبر الهاتف إلى إحدى صديقاتها، "جلوريا بيّيجاس دي مولينا". تنهي المكالمة على عجل وتسألني: «قتلوا "إكتور"؟» أقول لها إنني أظنّ كذلك. نقوم، نريد التوجّه إلى مكان سقوط القتيل حسبما تردّد. نسأل الرجل الذي جاء إلى اجتماع مجلس الإدارة متأخرًا فيعطينا شيئًا من الأمل: «كلّا، كلّا، أنا أعرف الدكتور، وليس هو القتيل.» فلنذهب على كل حال. يسبقنا أحد السعاة بالمكتب. ونسير عبر نفس الطريق الذي مرّ من خلاله أبي برفقة "ليوناردو" منذ دقائق، عبر جادة

"تشيلي"، ثمّ ننعطف يسارًا عند شارع "أرخنتينا"، ونعبر شارع "بالو". وفيما نحن نقترب من "خيراردوت"، نرى عن بُعد حشدًا من محبي الاستطلاع متجمعًا عند باب أحد البيوت، باب مقرّ النقابة. ومن بين الجمع يخرج الساعي الذي يومئ برأسه مؤكدًا: «أجل، إنه الدكتور، إنه الدكتور». نركض، وها هو، ملقى على ظهره، غارقًا في بركة من الدماء، مسجى بملاءة ينتشر فوقها الأحمر الداكن الكثيف أكثر فأكثر. أعرف أنني آخذ يده وأطبع قبلة فوق وجنته، وأن تلك الوجنة ما زالت دافئة. أعرف أنني أصرخ وأكيل الشتائم، وأن أمي تلقي بنفسها عند قدميه وتعانقه. لا أعرف كم من الوقت يمرّ قبل أن أرى أختي "كلارا" وزوجها "ألفونسو" عند وصولهما. بعد ذلك يصل "كارلوس جابيريا"، وقد تقلّصت أسارير وجهه ألمًا، أصرخ فيه أن يرحل، أن يختبئ، يجب أن يرحل لأننا لا نريد المزيد من الموتى. نحيط بالجثمان أنا وأختي وصهري وأمّي. تخلع أمّي دبلة الزواج عن يده في حين أُخرجُ الأوراق من جيوبه. وأطّلع عليها في وقت لاحق: صورة من قائمة الاغتيالات، و«نقوش على شاهد القبر» لـ"بورخيس" مكتوبة بخط يده وقد تناثرت فوقها قطرات الدماء: «لقد صرنا النسيان الذي سنكون.»

وفي تلك اللحظة لا أستطيع البكاء. أشعر بحزن جاف، بلا دموع. حزن تام، ولكنه حزن مشدوه، مرتاب. الآن وقد كتبته يمكنني البكاء، ولكن في تلك اللحظة اجتاحني شعور بالذهول. دهشة تكاد تكون رصينة إزاء فداحة الشرّ، غضب بلا غضب، نحيب بلا دموع، ألم في دخيلة نفسي لا يبدو متأثّرًا بل مشلولًا، فوران هادئ. أحاول التفكير، أحاول الفهم. أعد نفسي بالحفاظ على هدوئي إزاء القتلة طوال حياتي. أنا على حافة الانهيار، ولكنني لن أسمح لنفسي بالانهيار. يا أبناء العاهرة! أصرخ، الشيء الوحيد الذي أصرخ به، يا أبناء

العاهرة! وما زلت أصرخ بنفس الشيء في دخيلة نفسي، كلّ يوم، أصرخ بما كانوا، وما زالوا، وسيظلّون ما بقوا على قيد الحياة: أبناء عاهرة!

وبينما أجلس مع أمّي بجوار جثّة أبي الهامدة، ما زال أصدقائي وأخواتي لا يعلمون، ولكن الخبر يصلهم. أهل بيتي جميعًا، بمن فيهم أخواتي الأربع وأبناء أخواتي، يذكرون بوضوح اللحظة التي عرفوا فيها بمقتله. ذات مساء، في مزرعة "لا إينيس"، وبينما نتطلع إلى الأرض والمشهد الذي ورثناه عن أبي، تناوبنا فيما بيننا جميعًا على رواية ما فعلناه وما مررنا به يومئذ.

روت لنا "ماري لوس"، الأخت الكبرى، أنها كانت في صالة منزلها. تلقت مكالمة من "نيستور جونساليس"، والذي كان قد سمع بالخبر لتوّه عبر الراديو، إلّا أنه لم يجرؤ على إخبارها. وبعد الكثير من اللف والدوران سألها فحسب: «وماذا عن والدك؟ كيف حال والدك؟» «بخير حال، كدأبه دائمًا يكرّس نفسه لحملته الانتخابية وحقوق الإنسان.» أغلق "نيستور" الهاتف غير قادر على إخبارها. ثمّ اتصلت بها صديقة أخرى، "أليسيا خيل"، والتي لم تستطع أن تنقل إليها الخبر الذي سمعته عبر الراديو بدورها. بعد لحظات رأت "ماري لوس" حذاء رجل يدخل إلى المكان حاملًا حقيبة، إنه "مونو مارتينيس". تسأله أختي «ما هذه المعجزة؟» «يا "ماري"، لقد وقع أمرٌ رهيب.» فعرِفَت بما حدث: «هل قتلوا بابا؟»

لقد حدسنا جميعًا ما جرى قبل أن نعرف بوقوعه. قالت لنا "ماري لوس": «بعد وهلة الجنون الأولى، تمالكت نفسي وهدّأت من روعي، لم أكُن أبكي، وهدّأت الآخرين. أمّا "خوان دابيد" (الابن الأكبر وأوّل الأحفاد وأحبّهم إلى قلب أبي) فقد أخذ يصرخ ويضرب الجدران بيديه، ويعدو في الشارع، من بيتنا إلى بيت «جِدّو» (هكذا كان ينادي الأحفاد جدّهم). وصلت صديقاتي وهن يصرخن. تلقّت ابنتي "مارتيس" اتصالًا من زميلة لها في مدرسة "ماري

ماونت" حيث كانت تدرس آنذاك، فقالت لها زميلتها بسعادة: «يا "مارتيس"، أليس هذا أمرٌ عظيم! لن نذهب إلى المدرسة غدًا، يبدو أن رجلًا مهمًّا جدًا قد قُتل.» أمّا "بيلي"، الابنة الأخرى، والتي كانت في عمر السادسة، فقد أغلقت باب غرفتها على نفسها ولم تفتح لأحد، كانت تصرخ: «عندي الكثير لأذاكره، لدي كمٌّ كبير من الواجبات المدرسية، من فضلكم لا تقاطعوني!» أمّا "ريكي" فقد كان برفقة أبناء خالته "كلارا".»

كما روت لنا "ماري لوس" أنها في تلك اللحظة أفصحت عن أحقاد قديمة، فقالت لصديقاتها: «لتخبرن "إيبان سالدارّياجا" ألّا يفكر حتّى في المجيء إلى هنا.» والأخير يملك مصنع مثلجات، وقد دار خلاف بينه وبين "ماري لوس" منذ أمد بعيد حول أقوال وكتابات أبي. قالت له في نهاية الشجار: «لو حدث وأن قتلوا أبي، من فضلك لا تفكّر حتّى في حضور الجنازة.» إلّا أنها سامحته حين جاء ليلتها باكيًا. وقام "سالدارّياجا" بنشر نعي في الصحف وشراء الطعام لجميع الحاضرين بالجنازة.

وتواصل "ماري لوس" فتقول: «كان الجميع يسألني خلال الجنازة لماذا لا أبكي. لم أبكِ سوى لحظة وصول "إديلسو"، كبير الخدم العزيز الذي جاء من "ريونيجرو" حاملًا باقة هائلة من الورد، اقتطفها من الشجيرات التي غرسها أبي بيده، ووضعها فوق النعش. في تلك اللحظة لم أستطع تحمّل المزيد وانخرطت في البكاء. ولكنني لم أبكِ أثناء الجنازة. كنت أرى أصدقائي مختبئين خلف أشجار مدفن "كامبوس دي باس". أذكر "فرنان أنخيل" واقفًا خلف شجرة، خائفًا من وقوع إطلاق نيران أو اندفاع الحشود في ذعر، أو حدوث شيء ما. كانت جنازة مذعورة، فقد أخذ الكثير من الحضور يردّدون الهتافات، فيما يطوف رجال مسلحون حول البيت والمدفن. ظن الكثيرون أنهم سيقتلون الحضور، وستندلع أحداث الشغب وتبادل إطلاق النيران. أذكر أن الأوراق كانت

ترتجف بين يدي "كارلوس جابيريا" وهو يلقي كلمته، إلّا أنه أحسن الحديث. كما ألقى "مانويل ميخيًا باييخو" كلمة عبر الميكروفون بجوار القبر.»

أحتفظُ بالكلمة التي ألقاها كلٌ من "ميخيًا باييخو" و"كارلوس جابيريا". وقد قام الروائي القادم من "أنتيوكيا"، والمولود في "خيريكو"، نفس البلدة التي ولد بها أبي، بإلقاء كلمة حول التهديد الوشيك للنسيان: «نعيش في بلد ينسى أفضل وجوهه، أفضل نبضاته، وستستمر الحياة بإيقاعها الرتيب الذي لا سبيل إلى علاجه، بينما نولي ظهورنا لأولئك الذين يمنحوننا مبررًا للوجود والاستمرار على قيد الحياة. أعرف أنهم سيأسفون لغيابك، وستخضب الأعين التي رأتك وعرفتك بنحيب حقيقي. ثمّ يجيء الزوال المروّع، لأننا أرض خصبة لنسيان أحبّ الأشياء إلينا. إن الحياة هنا آخذة في التحوّل إلى تجسيد لأسوأ المخاوف على أيديهم. وسيجيء ذلك النسيان كالمسخ الذي يقضي على كلّ شيء، ولن تبقى لهم من اسمك ذكرى. أعرف أن موتك سيكون بلا الفائدة، وأن بطولتك ستلحق بكلّ ما سبقها إلى الغياب.»

ركّز "كارلوس" أكثر على شخصية المدافع عن حقوق الإنسان في مواجهة دولة آخذة في الانحدار: «ماذا فعل "إكتور آباد" كي يستحق ذلك الحظّ، يجب أن تتمّ إجابة هذا السؤال من خلال المُقارنة، بوضع كلّ ما كان يجسّده "إكتور آباد" في مواجهة القيم السائدة بيننا اليوم. فقد عاش متسقًا مع مهنته، وحارب من أجل الحياة، إلّا أن القتلة انتصروا في المعركة. عاش منسجمًا مع رسالته وأسلوب حياته (أسلوب حياة الأستاذ الجامعي)، واشتبك مع الجهل على الطريقة السقراطية، إذ اعتبره أصل كلّ الشرور التي تثقل على العالم. حينئذ هاجمه القتلة في خطبهم مُردّدين مقولة "ميّان أستراي" البربرية التي اقشعرّت لها الأبدان في "سالامانكا" ذات مرّة: «فليحيا الموت، وليسقط الذكاء!» إن ضميره، كرجل متحضّر يبحث عن العدالة، جعله يقرّر أن خوض المعركة من

أجل سيادة القانون مهمة تقع على رأس أولوياته، في حين يُظهر أولئك الذين كلفتهم الدولة بتلك المهمة ثقةً أعظم في دعوة القذائف المدفعية.»

وتذكر "ماري لوس" أنها ذهبت إلى مكتب أبي ليلة الخامس والعشرين، بعد معرفتها بما حدث بوقت قصير، رغم أنها لم تكُن ترغب في الذهاب إلى مكان الجريمة. وهناك التقيت وكلّ أخواتي، ما عدا "صول"، إذ أغلقت على نفسها باب غرفتها ولم ترغب في الخروج حتّى وقت متأخر جدًا. وتذكر إحدى التفاصيل الأخرى، فتقول: «صباح ذلك اليوم، وفي طريق عودتنا من مزرعة "لا إينيس" عبر "سانتا باربارا"، قُلتَ لي:

- على الرغم من موت "مارتا"، فقد حالفنا حسن الحظّ في الحياة، لدينا مزرعة غايةً في الجمال، وجميع أفراد الأسرة على خير ما يُرام.

فقلتُ لكَ بالطبع، فالحياة تعوّض الأخيار، وكيف لا تكون حياتنا بأحسن حال ما دمنا صالحين ولم نؤذِ أحدًا؟ ثمّ بعد ذلك بادرتني صارخًا، ثائرًا، حين التقينا في مكتب أبي ليلتها:

- طبعًا، لا نؤذي أحدًا، ولذلك ستكون حياتنا دائمًا على خير ما يرام، أليس كذلك؟ انظري ماذا حدث لأبي جزاء الإحسان إلى الجميع. لقد كنت حانقًا على الدنيا بأكملها. بعد ذلك دخلت "سونيا مارتينيس" قريبة "ألبرتو أجيرّي"، والتي كانت تسكن في البيت المجاور وسبق لها وأن أعطت "مارتا" دروس الجيتار، حينئذ بادرتَها بالصراخ:

- قولي لــ"أجيرّي" أن يهرب من كولومبيا حالًا، فهو التالي، ولا نريد المزيد من الموتى!»

تذكر أختي الثانية "كلارا" أنها كانت في اجتماع برفقة زوجها "ألفونسو أرياس" و"كارلوس لوبيس" في وكالة "أولترا بوبليسيداد" للدعايا والإعلان. وخرجا من هناك قبيل السادسة متوجهين نحو المكتب. عرف "كاليتشي لوبيس" بالأمر بعد دقائق من وقوعه، وأخذ يقول في نفسه: أتمنّى ألّا يُديرا الراديو. لم يُدِر "ألفونسو" و"كلارا" الراديو، ووصلا إلى المكتب. تروي "كلارا" قائلة:

«رأيت حشدًا أكبر من اللازم في الخارج عند وصولنا. بدا لي أمرًا غريبًا في البداية، ثمّ قلت لنفسي إنه قد يكون شيئًا طبيعيًا، فهي ساعة خروج الموظفين. عندما توقفت لاحظت أن الجميع ينظر إلي نظرات غريبة. كانت طريقتهم معي مختلفة. سارت "ليخيا" التي كانت تسكن في نفس البيت حيث يقع المكتب نحو السيارة ببطء. لم أجرؤ على النزول، أخذت أرتجف، جعلتني نظرات "ليخيا" أعتقد أن شيئًا فظيعًا قد وقع. اقتربت "ليخيا" من النافذة:

- لدي خبر مؤسف. لقد قتلوا والدك.

طلبت أن يأخذوني إلى مكانه، ولكن أحدًا لم يرغب في ذلك. قال لي الساعي "داريو مونيوس": «سآخذك إلى هناك.» ذهبت برفقة "داريو" و"ألفونسو" سيرًا على الأقدام. وفي تلك اللحظة شعرت بشيءِ دافئ يسيل بين ساقيّ. أصبتُ بنزيف لا يمكن احتواؤه في الجزء السفلي، كالنزيف الذي أصبتُ به يوم صعد أبي وأمّي على متن الطائرة مع "مارتا" المريضة في طريقهم إلى "ميديّين". كان نزيفًا مروعًا. أنهار من الدماء. كدت أفقد عقلي فيما أسير وأركض عبر تلك الشوارع القليلة التي تفصل بين المكتب ومكان أبي، كنت كالمجنونة. وعندما شارفنا على الوصول إلى المكان لمحت الهرج والمرج والجمع الغفير. سألت الساعي:

- هنا؟

- أجل، هنا.

وصلت فوجدت أمّي و"كينكين" هناك بالفعل. لم أستطِع أن أصدّق، لم أستطِع أن أصدّق.

لمحت "بيكي" في أحد الأركان، إلّا أنها لم تقترب. ناديتها:

- يا "بيكي"، تعالي، تعالي! لماذا لا تأتي "بيكي"؟

ظلّت في أحد الأركان الضيقة طوال الوقت، فلم تقترب، لم تستطِع. حاولوا نقل الجثّة، بيد أننا كنّا نريد أن تراها بناته جميعًا. قُلنا، ولا أعرف لماذا:

- لن نسمح بنقله من هنا حتى تصل "ماري لوس" و"صول بيا"، حتّى وإن اضطررنا للجلوس فوق الجثّة. يجب أن تشاهدا ما فعلوا به. وصلت القاضية، وقالت لنا إنه لا بد من نقله وإلّا أدّى ذلك إلى اندلاع الشغب. أقنعنا "ألفونسو"، وأخيرًا سمحنا بنقله. رفعه عن الأرض عدد من الأشخاص، من يديه وقدميه، وقذفوا به على نحوٍ فظّ في الجزء الخلفي من شاحنة، ألقوا به بعنف، وكأنه جوال من البطاطس، بدون أدنى احترام، وهو الشيء الذي آلمني، وكأنهم يهشّمون عظامه، رغم أنه لم يعُد يشعر بشيء.»

يذكر "ألفونسو أرياس"، زوج "كلارا" آنذاك، أنه عندما بلغ المكان مع أختي شعر بانخفاض في ضغط الدمّ وظنّ أنه سيسقط مغشيًا عليه. «كنّا هناك مكبين على وجوهنا بجوار أبيك، وعندما وقفت مادت الأرض بقدميّ وكدت أسقط، ولكن أحدًا لم يلاحظ. بعد موته بدأت أكتشف حجم القبول الذي حظي به والدك ومدى أهميته بالنسبة للمجتمع والدولة والكثير من الناس. كان المرء في حياته اليومية يعتبره فردًا من أفراد العائلة، أب وجد عظيم، ولكن لم يتسنى لنا تقدير كلّ شيء كانه، وكلّ شيء مثّله، والأثر العظيم الذي أحدثه موته، والذي تجلّى في الأعداد الغفيرة التي كان يمدّ لها يد العون دون علم أيّ من أفراد أسرته. كان من عادته أن يقرأ علينا مقاله الأسبوعي خلال العطلات، فنقرأه

ونتناقش وندلي برأينا حوله. وهو ما كان يبدو لنا أمرًا يوميًا إلى حدٍ كبير، فلم نكُن نولي تلك المقالات كلّ ما تستحق من تقدير. كنت أقدّره على المستويين الشخصي والإنساني، إلّا أنني لم أقدره باعتباره شخصية عامة ذات تأثير على المجتمع سوى بعد رحيله بوقت طويل. اعتنيت بالورد الذي غرسه والدك في "ريونيجرو" طوال سنوات بحنان كبير، بل وبحبّ إن جاز لي القول. كنت أحبّ أن أفعل ذلك لأنه بمثابة تكريم له. إن صورة أبيك جاثيًا على ركبتيه، مرتديًا البنطلون الجينز الأزرق والقبعة المصنوعة من القشّ وملطخًا بالطين، هي أجمل الصور التي أحتفظ بها له. كانت تلك الحديقة تمثّل الكثير، كانت رمزًا، وقد فهم والدك الأمر بدوره على هذا النحو، لم تكُن مجرد هواية، بل إنه أراد أن يقول شيئًا بتكريسه ذلك الجهد والعمل للجمال. لم تكُن للحديقة فائدة تُذكر، سوى أنها ببساطة جميلة. أراد والدك أن يقول شيئًا بتكريسه هذا القدر من الجهد والعمل لها. كانت ثمّة رسالة ضمنية هناك، ولقد أردت تلقّي تلك الرسالة. ما زلت أمرّ من هناك وأرى شجيرات الورد من الطائرة أحيانًا، عبر النافذة، فالطائرة تمرّ بجوار الحديقة تمامًا عند الهبوط، فيتسنى لي إلقاء نظرة خاطفة على النقاط الصغيرة الملونة، وهو آخر ما رأيت من تلك الحديقة.»

أمّا "بيكي"، ثالث أخواتي، فتروي أنها كانت مع أطفالها وأطفال "كلارا" في مركز "بيّانوبيا" التجاري، حيث سمحت لهم باللعب في الملاهي. ثمّ صحبتهم قبل السادسة بقليل إلى شقّة "كلارا" عبر جادة "سورأمريكانا". قالت لها "إرما" عاملة النظافة عند وصولها: «يا دونيا "بيكي"، اذهبي إلى المكتب فقد وقع شيء رهيب.» عرفت "بيكي" أيضًا دون أن يخبرها أحد: «ماذا حدث؟ هل قتلوا أبي؟»، «تركتُ الأطفال في حالة من الهياج والبكاء، فقد بلغ الخبر مسامعهم، ثمّ توجّهت إلى المكتب، حيث قيل لي عندما وصلت:

- اسرعي، فقد قتلوا والدك.

كان الناس ينتحبون كالمجانين. أخبروني عن مكانه، هناك بالأعلى، فجريت مسرعةً إلى فوق. وهناك وجدت المكان يزدحم بحشد من الناس، وعدد كبير من محبي الاستطلاع. وجدت "كلارا" كالمجنونة، ورأيت أبي على الأرض مسجى بملاءة. لم أستطِع الاقتراب، صُعقتُ إلى الحدّ الذي لم أرغب معه في رؤية أبي عن كثب. أذكر بوضوح نشرة الأخبار التي قدّمتها "بيلار كاستانيو" في وقت لاحق، والتي استهلتها بقولها: «اليوم لا يسعنا أن نقول مساء الخير، فقد شهد هذا البلد من المآسي أكثر مما ينبغي.»

كما تذكر "بيكي" أن "ألبارو أوريبي بيليس"، حبيبها السابق، والذي كان عضوًا بالبرلمان في ذلك الوقت، قد وقف إلى جانبنا. فقد عرفت أنه أوقف جلسة البرلمان، وطلب من أعضائه الوقوف دقيقة حداد، ثمّ كتب مقترحين بسحب الثقة وإعلان الحداد على أبي. ونظرًا لتردّدها على أرقى أوساط "ميديّين"، كانت "إيبا" صاحبة الحظّ الأوفر في تلقّي إشارات تفيد بضلوع أثرى أثرياء المدينة بمباركة اغتيال أبي بطريقة ما. فقد دار الحديث معها حول أصحاب مزارع موز من خليج "أورابا"، ومزارعين من "لا كوستا"، وملّاك أراضي من "ماجدالينا ميديو"، بالتحالف مع مسؤولين في الجيش. ليس في وسعها التأكّد من كل ما قيل، ولا يمكنني كتابته، فلسنا متأكّدين من صحته، ولا يمكننا التحقّق منه.

كانت "صول" تؤدّي فترة التدريب في المستشفى، وعادت إلى البيت يومئذ في السادسة تقريبًا، لتجد الخادمة "إيمّا"، العزيزة على قلوبنا والتي خدمت في بيتنا طوال العمر، تنتحب، وحكت لها عما تردّد عبر الراديو حول اغتيال "ليوناردو بيتانكور". ثمّ قالت "إيمّا": «ويبدو أنهم قتلوا والدك أيضًا.» لم تصدقها "صول بيا"، لم ترِد أن تصدقها، وأغلقت على نفسها باب الغرفة حانقة بسبب الفظائع التي تتفوّه بها "إيمّا". أخذ يدقّ جرس الهاتف، ثمّ يقهقه المتحدّث قائلًا: «عظيم، عظيم، قتلوا ابن العاهرة!» حينئذ تناولت

"صول" المقصّ وقطعت أسلاك الهاتف عن آخرها. وبعد برهة، فيما هي مطلّة من النافذة، لمحت سيارة أبي الحمراء تصل إلى المكان، وقالت لنفسها: «يا لها من بلهاء! تخبرني بأنهم قتلوا أبي، وها هو يصل.» ولكن ما إن رأت شخصًا آخر يقود السيارة حتّى صدّقت، وغرقت في النحيب والأسى.

اتصلتُ في نفس الليلة بـ"داريو بالينسيا"، مدير هيئة الشركات العامة، والذي قام بتغيير رقم الهاتف على الفور حتّى لا يستمرّ أولئك الأشخاص في الاتصال بنا بغرض الضحك والاحتفال بواقعة الاغتيال. قمنا بترقيع الأسلاك التي مزقتها "صول"، إلّا أن الهاتف ظلّ أخرس لأسابيع على كلّ حال، فكما لم يحصل على الرقم الجديد الراغبون في إزعاجنا عن طريق الاحتفال بالخبر عبر الهاتف، كذلك لم يحصل عليه الراغبون في الاتصال لتقديم تعازيهم أو التعبير عن تضامنهم معنا ببضع كلمات.

بعد أن نُقلت الجثّة، وأثناء تواجد الإخوة في مكتب أبي بالطابق الثاني من مقرّ شركة أمّي، لمحنا على مكتبه مظروفًا مغلقًا باسم "مارتا بوتيرو دي ليبا"، نائبة مدير جريدة "إل موندو". أجرت أمّي إليها اتصالًا هاتفيًا، فجاءت باكيةً لاستلام المظروف. قامت بفضّه، كان مقاله الأخير، وعنوانه: «من أين يأتي العنف؟». في اليوم التالي اختير المقال ليكون افتتاحية الجريدة. وقد كتب مساء ذلك اليوم: «لقد بلغ الفقر في "ميديّين" حدًا يمكن معه استئجار قاتل محترف لقتل أيّ شخص مقابل ألفين "بيزو". إننا نعيش أوقاتًا عنيفة، وينشأ ذلك العنف عن الإحساس بعدم المساواة. فلو تمّ توزيع كافة الثروات على وجه الأرض على نحوٍ أفضل، بما في ذلك العلوم والتكنولوجيا والأخلاق، أو بعبارة أخرى الإبداعات الإنسانية العظيمة، لأمكننا الحدّ من العنف كثيرًا. وذلك هو التحدّي الأعظم الذي يواجه البشرية اليوم، ولا يواجهنا وحدنا. فعلى سبيل المثال، لو سمحت القوى العظمى لأمريكا اللاتينية مُتحدّة بالبحث عن الحلول

المناسبة لها، لكان حالنا أفضل كثيرًا. ولكن ليس هذا بأكثر من حلم، تدريب غير عنيف يسبق التحقيق العظيم لأي حلم. الحلم الذي ستتمكن من تحقيقه إنسانية تتمتع بعقل سليم، وسيشهده نسلنا، ذات يوم، خلال العشر آلاف سنة المقبلة، ما لم ندمّر أنفسنا عاجلًا أم آجلًا.»

أكتب الآن من "لا إينيس"، الأرض التي ورثناها عن أبي، وورثها أبي عن جدّي، وورثها جدّي عن جدّته، وشقّها جدّي الأكبر في الجبال بكلتا يديه. أُخرجُ تلك الذكريات من داخلي كما لو كانت عملية ولادة، أو استئصال ورم. لا أنظر إلى الشاشة، أتنفس وأتطلع إلى الخارج. إنها رقعة متميزة من الأرض. بالأسفل، وعلى مرمى البصر، يشقّ نهر "كارتاما" طريقه عبر الخضرة. وبالأعلى، على الجانب الآخر، تلوح تلال "لا أوكولتا" و"خيريكو". تتناثر الأشجار فوق المشهد الذي غرسه أبي وجدّي: نخيل، أشجار أَرْز وبرتقال وساج ويوسفي وآقية ومانجو. أتطلع بعيدًا وأشعر بأنني جزء من تلك الأرض ومن ذلك المشهد. تغريد الطيور، أسراب الببغاوات الخضراء، الفراشات الزرقاء، وقع حوافر الجياد في الإصطبل، رائحة روث الأبقار في الحظيرة، الكلاب تنبح من آن لآخر، زيز الحصاد يحتفل بحرارة الجو، موكب النمل يتقدّم في صفوف، تحمل كلٌّ منها زهرة وردية دقيقة الحجم فوق ظهرها. وعلى مرمى البصر تلوح قمّتا جبل "لا بينتادا" المهيب، واللتان علّمني أبي كيف أنظر إليهما بحيث يبدوان على شكل نهدي امرأة عارية وممددة على ظهرها.

مرّ حوالي عشرين عامًا على مقتله، وخلال تلك السنوات العشرين كان ينتابني، كلّ شهر، وكلّ أسبوع، إحساس بواجبي الذي لا مفرّ منه، ولست أقصد بذلك الثأر لموته، بل أقصد على الأقلّ روايته. لا يمكنني القول بأن شبحه قد ظهر لي ليلًا طالبًا مني الثأر من أجل «مقتله الوحشي الرهيب» على غرار والد "هاملت". علّمنا أبي دائمًا أن نبتعد عن الانتقام. في المرات القليلة التي حلمت فيها به، وخلال تلك الرؤى

الشبحية، ثمار الذكرى والخيال، والتي نراها أثناء نومنا، كانت أحاديثنا هادئة أكثر منها كئيبة، تفيض بذلك الحنان الجسدي الذي تبادلناه دائمًا، في جميع الأحوال. فلم نلتق في الحلم للمطالبة بالثأر، بل للعناق.

ربما ردّد أبي في الحلم قول شبح الملك "هاملت"، «اذكرني»، وحينئذ يمكنني أن أجيبه بكلمات ابنه:

«أذكرك؟

آهٍ أيها الشبح المسكين،

سأذكرك..

ما بقيت في تلك الكرة الشاردة ذاكرة،

أذكرك!

سأذكرك،

ومن لوح ذاكرتي سأمحو كل السطور التافهة العابثة،

كلّ تعاليم الكتب،

وكلّ الأشكال،

وكلّ الصور،

التي خطّتها يد الشباب والتجربة هناك،

وحدها أوامرك ستبقى،

بين دفتي كتاب عقلي،

لا يشوبها دنس.»

ربما يكون كلّ هذا بلا فائدة، فليس من كلمة تردّه إلى الحياة، ولن تنفخ قصة حياته ومماته في عظامه نفسًا جديدًا، لن يسترد ضحكاته المجلجلة، ولا قيمته العظيمة، ولا حديثه المُقنِع المفعم بالحياة، بيد أنني في حاجة لأن أرويها على كلّ حال. فما زال القتلة مطلقي السراح، ويزدادون نفوذًا يومًا بعد يوم. ويدي غير قادرة على محاربتهم، وحدها أصابعي قادرة على قول الحقيقة والكشف عن الظلم، فيما تغوص تحتها الأزرار واحدًا تلو الآخر. فأنا أستخدم نفس السلاح الذي حارب به: الكلمات. لماذا؟ من أجل لا شيء، أو من أجل أبسط الأشياء وأكثرها أساسية: حتّى يُعرف ما جرى. ولكي تعيش ذكراه أطول بقليل، قبل أن يدركنا النسيان المؤكّد.

في حين كانت برشلونة على حافة السقوط، والهزيمة في الحرب الأهلية وشيكة، كتب "أنطونيو ماتشادو" الطبيب ما يلي: «ليس من المعروف أن الشجاعة سمة من سمات العُزّل والمسالمين - فلم تكن الشجاعة من سمات القتلة قط - وليس من المعروف أن من ينتصر في الحروب في اللحظة الأخيرة هم رجال السلام دائمًا، وليسوا المنادين بالحروب أبدًا. فوحدهم الشجعان قادرون على أن يسمحوا لأنفسهم بالرفاهية الحيوانية التي تُدعى حبّ الآخر، وتلك هي السمة الإنسانية على وجه التحديد.» ولهذا لم أكتفِ بأن أحكي عن شراسة قاتليه - من يفترض بهم أن يكونوا هم المنتصرين في تلك الحرب - بل حكيت كذلك عن حياة مبذولة ومُكرّسة لمساعدة الآخرين وحمايتهم.

لو أن الذكرى تعني المرور عبر ثنايا القلب مرة أخرى، فلقد ذكرته دائمًا. ولم أكتب طوال تلك السنوات لسبب بسيط للغاية: كانت ذكراه تثير مشاعري إلى الحدّ الذي يجعلني غير قادر على الكتابة. ففي المرّات غير المعدودة التي

حاولت فيها الكتابة، كانت الكلمات تخرج رطبة، تكسوها مادة دمعية حزينة، ولقد آثرت دائمًا أن تكون كتابتي أكثر جفافًا، وأكثر خضوعًا للسيطرة، وأكثر بُعدًا. أمّا الآن وقد مرّت عشرة أعوام مرتين، أصبحت قادرًا على الاحتفاظ بالرصانة بينما أكتب ما يشبه دفتر أحوال ديوان المظالم. إن الجرح هناك، في الموضع الذي تمرّ من خلاله الذكريات، إلّا أنه قد صار ندبة أكثر منه جرحًا. أعتقد أنني استطعت كتابة ما أعرفه عن أبي أخيرًا بدون الإفراط في العاطفية، وهو ما يمثّل مخاطرة كبيرة عندما يتعلّق الأمر بمثل هذا اللون من الكتابة. لم تكُن حالته هي الوحيدة، وربما لا تكون الأشدّ تعاسة. ثمّة آلاف مؤلفة من الأباء الذين قُتلوا في هذا البلد، الذي أصبح بمثابة تربة خصبة لزراعة الموت. ولكنها حالة خاصة بلا شك، وبالنسبة لي هي الحالة الأشدّ تعاسة. فضلًا عن أنها تُلخّص الكثير من حوادث القتل المجحفة التي عانينا منها هنا، وتجمع بينها.

أصنع لنفسي قهوة داكنة حزينة، أُدير موسيقى «Réquiem» لـ"برامز"، فتختلط بتغريد الطيور وخوار البقر. أفتّش عن رسالة كتبها لي أبي من هذا المكان في يناير من عام 1984 ثمّ أقرأها، جاءت رسالته ردًا على رسالة أخرى أخبرته فيها بعدم رضائي عن نفسي في إيطاليا، وباكتئابي ورغبتي في تغيير دراستي الجامعية مرّة أخرى والعودة إلى المنزل. أظن أنني ألمحت إلى ضيقي حتّى بالحياة نفسها. فجاء ردّه في رسالة تمدّني بالثقة والقوة دائمًا. ويُشعرني نقل تلك الرسالة بشيء من الخجل، إذ يخصّني أبي بالمديح بين سطورها، ولكن في هذه اللحظة أريد أن أعيد قراءتها لأنها تكشف حبًّا غير مشروط شعر به أب نحو ابنه. إن ذلك الحبّ غير المستحق هو الذي يعيننا على تحمّل أسوأ ما في الحياة، بل والحياة نفسها، لو شاء لنا الحظّ وحظينا به:

«ابني الحبيب: إن الإصابة بالاكتئاب في مثل عمرك أكثر شيوعًا مما يبدو. أذكر أنني مررت بإحدى حالات الاكتئاب في "مينيابولس" بولاية "مينيسوتا"

وأنا بعمر السادسة والعشرين، وكنت على وشك أن أنهي حياتي. أظنّ أن الشتاء وبرودة الجو وغياب الشمس بالنسبة إلينا، نحن الكائنات الاستوائية، عوامل من شأنها إشعال فتيل الاكتئاب. ولأكون صريحًا معك، أن تعود إلى هنا فجأةً وتضرب بكل ما هو أوروبي عرض الحائط، يجعلني وأمّك في قمّة السعادة. لديك ما يفوق أية «شهادة» جامعية، إذ إنك أحسنت توظيف الوقت لتكوين نفسك ثقافيًا وشخصيًا إلى درجة يصبح معها السأم من الجامعة مجرّد أمر طبيعي. أيًا كان ما فعلت من الآن فصاعدًا، كتبت أو لم تكتب، حصلت على الشهادة أو لم تحصل عليها، عملت في شركة أمّك أو في صحيفة "إل موندو" أو مزرعة "لا إينيس"، درّست في مدرسة إعدادية أو ألقيت المحاضرات على غرار "إستانيسلاو سوليتا"، عملت محللًا نفسيًا لأبويك وأخواتك وأقاربك، أو كنت ببساطة "إكتور آباد فاسيولينسي"، فلا بأس بذلك، أهمّ شيء هو ألّا تكفّ عن كونك الشخص الذي كنته حتّى الآن، عن كونك «إنسانًا» حظي بودّ واحترام وقبول وثقة و«حبّ» أغلب من عرفوه، لمجرّد أنه هو نفسه، وليس من أجل ما يكتب أو ما لا يكتب. هكذا نريد أن نراك دائمًا، لا على أنك مشروع كاتب عظيم أو صحفي أو إعلامي بارع أو أستاذ أو شاعر، بل على أنك الابن والأخ والقريب والصديق والمنادي بالإنسانية الذي يتفهم الآخرين حتّى وإن لم يتفهموه. ما أهميّة رأيهم فيك؟ وما أهميّة البريق لمن يعرف «جوهرك». يا إلهي! كيف يخطر ببالك أننا «نعيلك» يا عزيزي "كينكين" [...] لأن «هذا الفتى قد يحقق نجاحًا عظيمًا»، لقد حققت بالفعل نجاحًا عظيمًا، أعظم من كلّ ما حلمنا به، وأفضل من كلّ تصوراتنا لأيّ من أبنائنا. أنت تعرف تمام المعرفة أنني وأمّك لسنا نطمح إلى أن يحقق «جميع» أبنائنا المجد، أو الثراء، ولا حتّى السعادة، فهي كلمة ذات وقع حسن، ورغم ذلك بالكاد يُمكن تحقيقها مرات قلائل ولأوقات قصيرة للغاية (ربما لهذا تحديدًا تحظى بكلّ هذا التقدير) بل نطمح لأن ينعم

أبناؤنا «بالرخاء»، تلك الكلمة الأكثر رسوخًا، وأطول عمرًا، وأكثر احتمالًا، وأسهل منالًا. كثيرًا ما دار الحديث بيننا حول الضيق الذي شعر به كلّ من "كارلوس كاسترو سابيدرا" و"مانويل ميخيّا باييخو" و"رودريجو أريناس بيتانكورت" والكثير من أشباه العباقرة الذين نعرفهم معرفة شخصية، فضلًا عن "ساباتو" أو "رولفو" أو "جابرييل جارسيا ماركيز" شخصيًا. ماذا يهمّ؟ تذكّر قول "جوته": «يا صديقي، رمادية هي كلّ نظرية (وأُضيفُ إلى ذلك كلّ فن)، وخضراء هي شجرة الحياة الذهبية.» كلّ ما نريده هو أن «تعيش». فالحياة تعني أشياء أفضل بكثير من الشهرة والحصول على الشهادات والفوز بالجوائز. أعتقد أنني في شبابي كنت أملك طموحات ضخمة بدوري في مضمار السياسة ولهذا لم أكُن سعيدًا. الآن فقط، وبعد أن جرى كلّ ما جرى، أشعر بالسعادة حقًا. وهي السعادة التي يشكّل جزءًا منها كلٌّ من زوجتي "سيسيليا" وأبنائي وأحفادي، ولا يشوبها سوى ذكرى "مارتا سيسيليا". أظنّ أن الأمور تصبح بهذا القدر من البساطة بعد التفكير فيها كلّ تلك المرّات وتعقيدها إلى هذا الحدّ. لا بد من القضاء على ذلك الولع بالأشياء بالغة الأثيرية مثل الشهرة، والمجد، والنجاح...

حسنًا يا عزيزي "كينكين"، أنت تعرف رأيي فيك وفي مستقبلك. ليس عليك أن تقلق. أنت على خير ما يرام وستكون أحسن فأحسن عامًا بعد عام، وحين تبلغ عمري أو عمر جدّك وتتمكن من الاستمتاع بمنظر مزرعة "لا إينيس" التي أفكر في أن أتركها لكم، بين الخضرة والشمس والدفء، سترى أنني كنتُ محقًا. لا تجشّم نفسك فوق ما تحسب أنك قادر عليه. وإذا أردت العودة سنستقبلك بأذرع مفتوحة. وإن ندمت وأردت الذهاب مرّة أخرى، فلدينا ما يكفي لنشتري لك تذكرتي الذهاب و«العودة»، ولا تنسَ أبدًا أن الأخيرة هي الأهمّ. قبلات أبيك الحارة.»

وها أنا أعود، أكتب عنه من نفس المكان الذي كان يكتب منه إليّ، واثقًا من أنه كان على حقّ، فما الحياة إلّا السعادة (الخضرة، والدفء، واللون الذهبي). ها أنا ذا، في مزرعة "لا إينيس" التي تركها لي ولأخواتي. ولن ينتصر علينا القتلة البائسون الذين سلبوه الحياة، وسلبونا السعادة، بل والعقل أيضًا، لسنوات طوال، لأن حبّ الحياة والبهجة (ما علّمنا أبي) أقوى كثيرًا من نزوعهم إلى الموت. ورغم ذلك فقد تركت فعلتهم الشنعاء جرحًا لا يندمل، وكما قال شاعر كولومبي: «ما كُتِب بالدمّ لا يزول».

في رسالة أخرى كتبها إليّ من "لا إينيس" عام 1986، قال: «إنني أغرسُ المزيد من أشجار الفاكهة، بخلاف الـ"بامبليموسا"، لتهنأوا بها مع "دانييلا"، بل ومع أبناء "دانييلا".»

كانت ابنتي "دانييلا" قد ولدت قبل زمن قصير، في وقت سابق من ذلك العام، وتسنّى لأبي أن يساعدني على استقبالها قبيل مقتله بأسابيع قلائل، ووقف إلى جواري بينما كانت تتعلم السير وتخطو خطواتها الأولى.

ثمّة رباط عائلي لم ينقطع. فلم يستطِع القتلة القضاء علينا ولن يتحقق لهم ذلك، لأن في هذا المكان ثمّة رابطة من القوة، والبهجة، وحبّ الأرض والحياة، لن يتمكّن القتلة من الانتصار عليها. فضلًا عن أنني تعلمت من أبي شيئًا لا يستطيعه القتلة: أن أضع الحقيقة في كلمات، حتى تعيش عمرًا أطول من أكاذيبهم.

منفى الأصدقاء

-41-

في أواخر نوفمبر من عام 1987، بعد مقتل أبي بثلاثة أشهر، وأثناء خروجنا من حفل أقيم في الفناء الخاص بجمعية "أنتيوكيا"، داخل أمّي إحساس قوي بأنني على وشك أن أُقتل، فغطتني بجسدها. أسرع في اتجاهنا رجلان يحملان حقيبة ظهر، إلّا أنها تدخّلت وثبتت في مكانها، تحدّق إلى عينيهما. انحرف الرجلان عن مسارهما. لا أعرف ما إذا كانا يريدان الإقدام على شيء، ورغم ذلك فقد تجمدت الدماء في عروقنا. في تلك الليلة، وخلال فعاليات حفل إعادة تشكيل لجنة "أنتيوكيا" للدفاع عن حقوق الإنسان، قام أربعة منّا بإلقاء كلمة: "لويس فرناندو بيليس"، رئيس اللجنة الجديد والمحامي وعالم اللاهوت والأستاذ الجامعي والناشط في الحزب المحافظ. كان رجلًا صالحًا، وله كتب في مجال الأنثروبولوجيا حول أساطير هنود "كاتيوس". لم يفهم أو يتحمّل مقتل زميله في رابطة الأساتذة، "إكتور آباد جوميس"، وأراد يتسلّم رايته. ما زلتُ محتفظًا بالكلمة التي ألقاها الأستاذ "بيليس"، والتي تقول إحدى فقراتها: «لقد استشهد أولئك الذين رفعوا راية المهمّة النبيلة التي تقضي بالدفاع عن حقوق الإنسان في "أنتيوكيا". واليوم، يتسلّم الناجون من تلك الموجة الأولى الراية التي تطهرت بدماء من سقطوا ضحايا، تكريمًا لذكراهم.»

كما تحدّث كلّ من عضو اللجنة العتيقة "كارلوس جونيما"، ونائب البرلمان عن الحزب الشيوعي "جابرييل خايمي سانتا ماريا". وألقيت كلمة بصفتي

ممثلًا عن الأسرة. لم أكن أريد دخول اللجنة، بل وكانت كلمتي في الواقع بمثابة بيان هزيمة. وهناك قلت فيما قلت:

«لست أعتقد أن الشجاعة سمة تنتقل بالوراثة، ولا حتّى يُمكن تعلّمها عن طريق القدوة، وهو أسوأ ما في الأمر. ولا أعتقد أن التفاؤل يُورَّث أو يُلقّن. والدليل على ذلك أن من يتحدّث إليكم، ابن الرجل الشجاع المتفائل، قد تملّك منه الخوف وبلغ منه التشاؤم مبلغه. ولسوف أتحدّث دون أن أقدّم أيّ نوع من أنواع التشجيع لأولئك الراغبين في مواصلة المعركة، الخاسرة في نظري. أنتم هنا لأنكم تملكون الشجاعة التي تحلّى بها أبي، ولأنكم لم تتجشموا ما عانى منه ابنه من يأس وشعور بفقدان الجذور. لقد ميّزت فيكم شيئًا أحببته وما زلتُ أحبّه في أبي، شيئًا أشعر نحوه بإعجاب عميق، بيد أنني لم أستطع إعادة إنتاجه بداخلي، ناهيك عن أن أقلّده. إن الحقّ إلى جانبكم، ولهذا تحديدًا أتمنّى لكم كلّ توفيق، رغم أن تمنياتي لكم قد لا تكون قراءة للطالع كما وددت. أقف هنا لمجرّد أنني كنت شاهدًا مُقرّبًا على حياة صالحة، ولأنني أريد أن أترك شهادة حول ألمي وغضبي إزاء الطريقة التي انتزعوا بها تلك الحياة من بين أيدينا. ألم بلا تخفيف وغضب بلا رجاء. ألم لا يطلب عزاء ولا يفتّش عنه، وغضب لا يطمح إلى الثأر. لست أعتقد أن كلماتي الانهزامية قد تكون ذات تأثير إيجابي يُذكر، ولكني أتحدّث إليكم مدفوعًا بقصور ذاتي يعكس تشاؤم الفكر كما يعكس تشاؤم الفعل. إنه بيان هزيمة. ولعلّه من المفيد إخباركم بأنني وأسرتي نشعر بخسارة المعركة، كما يقضي فنّ الخطابة بالقول في مثل هذا الموقف. بل والأكثر من ذلك، أننا نشعر بأننا قد خسرنا الحرب.»

«تستدعي الضرورة نبذ أحد القواسم المشتركة الحاضرة على ساحة الوضع السياسي الراهن، ويمتلك ذلك القاسم المُشترك ما للمسلمات من قوّة مُقنعة، فلا يشكّك فيه سوى القليلون، ونتقبله جميعًا بسلبية، دون تفكير، دون حتّى

مناقشة الحجج التي تدعمه ولا الشروخ التي قد تفنّده. ذلك القاسم المشترك هو ما يؤكّد على أن العنف السياسي الذي نعاني منه في كولومبيا حاليًا أعمى وأحمق. أيكون العنف الذي نعيشه عشوائيًا؟ مجنونًا؟ غير مُنظّم؟ على العكس تمامًا. فمصدر القتل الحالي منهجي، ومنظّم، وعقلاني. بل والأكثر من ذلك أننا إذا قمنا بعمل صورة أيديولوجية لضحايا الماضي لأمكننا رسم وجوه ضحايا المستقبل بدقّة. ولربما فوجئنا بوجود وجهنا شخصيًا.»

ينبغي أن أقول لكم إن كل من قام بإلقاء كلمة ليلتها قد قُتل ("بيليس"، و"سانتا ماريا"، و"جونيما") فيما عداي. ينبغي أن أقول إن "خيسوس ماريا بايّي"، رئيس اللجنة الجديد الذي شغل مكان "لويس فرناندو بيليس"، قُتل بدوره (وقد أقرّ "كارلوس كاستانيو"، قائد الجماعات شبه العسكرية بإعطاء الأوامر بقتله شخصيًا). وفي الثامن عشر من ديسمبر من عام 1987، حين ظهرت جثّة "لويس فرناندو بيليس" في "روبليدو"، عرفت أنه يجب عليّ مغادرة البلاد ما لم أكُن راغبًا في نفس المصير. وقد كان اثنان من أعزّ أصدقاء أبي في المنفى وقتئذ، وهما "كارلوس جابيريا" في "بوينوس آيريس" و"ألبرتو أجيرّي" في مدريد. فضلًا عن صديق آخر نُفي في زمن أشدّ خسّة قليلًا، وهو "إيبان ريستريبو" الذي كان يعيش في المكسيك. اتصلت بهم عبر الهاتف من "كارتاخينا"، فكان أكثرهم تشجيعًا لي على الذهاب إلى مكان تواجده هو "أجيرّي". ولذا فقد ذهبت إلى مدريد عبر "باناما" في اليوم الموافق عيد الميلاد المجيد من عام 1987. رحلت عن "ميديّين" في الثامن عشر من الشهر دون أن أمرّ حتّى بالبيت لإعداد الحقيبة، فقد اختبأت في بيت خالتي وزوجها وأبنائهم في "كارتاخينا". أذكر أن صديقًا لهم من سلاح البحرية قد رافقني إلى المطار، مُبديًا مسدسه المثبت في الحزام الخاص به للعيان، حتّى صعدت على متن الطائرة المتجه إلى "باناما" لمواصلة الرحلة إلى مدريد في اليوم التالي. كان

"ألبرتو أجيرّي" في انتظاري بالمطار، في فجر الخامس والعشرين. كان شعره مرسلًا، أشعث، وقميصه مُمزّق، يلفّ حول عنقه وشاح امرأة وردي اللون. في حين كان "كارلوس جابيريا" لا يزال في "بوينوس آيريس"، يمرّ بظروف مشابهة. أمّا أنا فقد انتهى بي المطاف آخيرًا في إيطاليا، في "تورين" أولًا ثمّ "بيرونا" حيث بدأت تدريس الإسبانية وتأليف الكتب التي ساعدني "كارلوس جابيريا" على نشر أولها، «خواطر شريرة»، عند عودته من منفاه بالأرجنتين بعد سنوات، وصدر عن دار النشر الخاصة بجامعة "أنتيوكيا". كان هذان الصديقان هما أعظم ما ورثت عن أبي، وكأنه عرِف أنه ما زال ينقصني شيء من الأبوية ليكتمل رشدي الذي كان رخوًا آنذاك.

كان لقائي بـ"أجيرّي" في مدريد قاسيًا وجميلًا. كان في إسبانيا منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر. تخيّلوا معي مجنونًا، مجنونًا مرسل الشعر أشيبه، مُرسَل الشعر إلى حدٍ بعيد، مُطلَق اللحية، يرتدي معطفًا واسعًا أسود اللون ومُستعارًا، قميصه مُمزّق عند موضع الإبط، وشبح القذارة يلوح فوق ياقته الكالحة، تمرّ المياه من ثقب في نعل حذائه، وقد لفّ حول عنقه وشاح امرأة وردي اللون. يسير عبر الطرقات يكلّم نفسه. يتكلّم ثمّ يتكلّم كالمجانين، يتطلع إلى الفتيات بعينين كالجمرتين، فهو بلا امرأة، ويتعزّى بالتطلع إليهن. لا يمرّ بناصية الشارع عند عبوره الطريق أبدًا، بل يعبر الطريق من منتصفه. يخاله الجميع مجنونًا، حتّى أنا حسبته مجنونًا حين رأيته. نحن الآن في أواخر ديسمبر، وبرودة الأراضي المرتفعة الجافة تُفضي إلى تَشقّق البشرة كالجليد. يعبر المجنون الطريق من أي موضع في شارع "جران بيا". يوقف السيارات والحافلات ملوحًا بذراعيه، ناظرًا بسخط إلى أعين السائقين الذين يطلقون أبواق السيارات وينهالون عليه بالسباب، ولكنهم يكبحون سياراتهم. «هذا هو ما يُدعى عبور الشارع على طريقة مصارعي الثيران» قال المجنون شارحًا، وقد كان محقًا،

فأراه بعيني يصارع السيارات والحافلات الحمراء ويناورها بلا وشاح أحمر عبر شارعي "جران بيا" و"لا كاستيّانا"، ناهيك عن "باركيّو" و"بينيالبير".

يدلف إلى الحانة، يجلس، فلا يخدمه النادل. يلاحظ أنه لا يأتي، يصفّق بيديه كما يفعل في بلاده. لا يأتي النادل، يصرخ: «أيها النادل!»، ولكن أحدًا لا يقدّم إليه خدماته، يخلع حذاءه الممزق فيبدو شرابه المهترئ، يضع قدميه فوق الكرسي الذي أمامه، يُخرج الجريدة المطوية على نحوٍ سيء من جيبِ معطفه، ثمّ يشرع في القراءة، يبلّل أصابعه فيما يقلب صفحات الجريدة. بعد وهلة يقترب النادل أخيرًا، يبدو عليه أنه سيطرده إلى الشارع، ولكن نظرة من عينيّ المجنون تثنيه عن ذلك. يطلبُ قدحًا من الـ"تينتو"، وعندما يُحضر له النادل كأسًا من النبيذ الأحمر، يقول مُنزعجًا: «قصدتُ قهوة، ولكنكم لا تفهمون! أحضِر لي قهوة سادة، خفيفة، أمريكية كما تسمونها.» وهكذا دواليك، وفقًا لما يرويه المجنون، حتّى يقرّر أنه من الآن فصاعدًا لن يتحدّث إليهم سوى بالإنجليزية. إنهم يمقتون فيه لهجة أمريكا الجنوبية، كلمات أمريكا الجنوبية، عدم دقّة أمريكا الجنوبية، أحذية أمريكا الجنوبية، وفوق كلّ شيء، يمقتون فقر أمريكا الجنوبية.

«Waiter, please, a coffea, an american coffea, if you don't mind.»

هكذا أفضل، يحسبونه سائحًا غريب الأطوار. لا يبدو مجنونًا طوال الوقت، حين يغتسل ويصفف شعره المرسل إلى الخلف يخلط الناس بينه وبين الشاعر "رافاييل ألبرتي". أحيانًا يدنو منه بعض الشباب في المقاهي والحانات: «يا سيد "ألبرتي"، يا مُعلّم، أيمكننا الحصول على توقيعك؟» فيقول المجنون أجل، يأخذ الورق أو المنديل الذي يُقدّم إليه ويضع فوقه توقيعه بخطّ مائل تسهل قراءته:

"ألبرتو أجيرّي"، متبوعًا بعلامة تعجب. «اذهبوا إلى الجحيم!» نفس الإهداء دائمًا، « "ألبرتو أجيرّي" اذهبوا إلى الجحيم!» بالفعل، كان المجنون مجنونًا.

أحيانًا، يبكي في الشارع، أو لا يبكي، بل ببساطة يفكّر في أحد ملامح البلد النائي، فتحمّر عيناه لمرأى الصور القاصية، ويهتاج التهاب العين بسبب عدم الرؤية، فينساب خيط من المياه فوق وجنتيه، ولكنه لا يبكي، لنقُل أنها تمطر فوق وجنتيه، فيسمح للمطر بأن يندّي وجهه، بكلّ بساطة. وكما تطفر قطرات الدموع من عينيه، مالحة، هكذا تخرج الكلمات من بين شفتيه، عذبة. يخاله الناس يكلّم نفسه، المجنون يكلّم نفسه. ولكن ليس الأمر أنه يكلّم نفسه، بل هو في الحقيقة يتلو أبياتًا مطولة يحفظها من أشعار "تويرتو لوبيس": «يا ركن أجدادي الكريم، لا شيء»، ومن أشعار "جرايف": «أحبّ الوحدة، أحبّ الصمت»، ومن الغراميات الإسبانية: «يا "خيرينيلدو"، يا "خيرينيلدو"، يا وصيف الملك الأثير، من يأتيني بك اليوم في حديقتي الزاهرة!» أو أي شيء كان. يسير عبر طرقات مدريد يتلو الأشعار... كالمجنون؟ كلّا، بل كالمنفي.

أكرّر ما قلت: نحن الآن في فجر الخامس والعشرين من ديسمبر لعام 1987. عبرت المحيط الأطلنطي لتوي على متن طائرة خاوية. هكذا أذكرها، وهذا صحيح، فقد كانت طائرة جامبو بلا مسافرين، خاوية تمامًا، تعبر المحيط الأطلنطي يوم عيد الميلاد المجيد، عام 1987. أقلعت الجامبو من مدينة "باناما" عند مغيب الشمس. أفراد طاقم الطائرة الخمسة عشر يتحركون بضجر. طيارون، مضيفات، مساعدو طيار، وأنا. عند مطلع الفجر، يهبط الجامبو الشبح في مدريد، فيما ينطفئ ويضيء شعاعان حمراوان في عتمة السماء المحكمة، ثمّ يشحط أمام واحد من ممرات المطار. ليسَ هناك تأشيرات بعد، ولا صفوف من المهاجرين. يختم الموظف جواز السفر دون النظر إلى عينيّ. بعد مرور سنوات، عندما أصبح الحصول على التأشيرة إلى إسبانيا إجباريًا بالنسبة للكولومبيين، وقّعتُ على خطاب

أقسم فيه بألّا أعود لإسبانيا يومًا. ولكنهم لا يفهمون لماذا. لو كان الحصول على تأشيرة في عام 1987 إجباريًا، لما كنت قد حصلت عليها قط، ولا حتى على سبيل الخطأ، بل ولربما عجزت عن الذهاب كما فعل "أجيرّي"، بدون تأشيرة، لأنفذ بجلدي. فلم يكن يعرفني أحد، ولم يكن لدي مليم واحد، ولم يكن في مقدوري إثبات تعرضي للملاحقة.

أخرجُ من مكتب الجمارك أجرجر حقيبة بالغة الثقل، مزدحمة بالملابس القديمة. عند خروجي أجد المجنون، جالسًا فوق مقعد بجوار الباب. أتوقف، أنظر إليه، أصبح عجوزًا في غضون الأشهر الأربعة الماضية. أجده وقد أخذته غفوة، وأسند ذقنه على صدره، وأغمض جفنيه بإحكام. يرتدي معطفًا أسود باليًا، ووشاح امرأة وردي، شعره مُرسل شديد الشيب، أشعث، لم يحلق لحيته منذ أيام. يبدو وكأنه «clochard» كأولئك المشردين ممن يتجرعون لترات من النبيذ الأحمر الرخيص على أنه عقار منوم. لا تفوح منه رائحة النبيذ. إنه هو.

أمسّ كتفه فيفتح عينيه مذعورًا. نتبادل النظرات عارفين أنها لحظة عصيبة. يمكننا أن نشرع في البكاء والصراخ كالحملان في هذا المكان بعينه. نزدرد ريقنا، عناقٌ خشن، نهمس بكلمات قليلة. «رحلة سعيدة؟» «أظن كذلك، نمتُ وقتًا طويلًا، جاءت الطائرة خاوية فنمت في منتصفها.» «لنستقل سيارة أجرة ونذهب إلى البنسيون.» نصل إلى البنسيون. المجنون يسكن مع عجوز حيزبون، طويلة الأنياب، أحد أسنانها مفقودة. تتسلم العجوز أجر سرير وإفطار وقيلولة لمدة عشرة أيام مقدمًا، بيدين برزت عظامهما، وأظفار قذرة. تقترب ساعة الظهيرة، نخرج للتمشية في أنحاء وسط المدينة. وهناك يعلمني عبور الطريق على طريقته، كمصارعي الثيران، ويحكي لي أن الناس يخلطون بينه وبين "ألبرتي" أحيانًا. نضحك، وفيما نضحك ألاحظ حذاءه المُمزّق كذلك. ثمّ يحكي لي لماذا لا يخدمه أيّ نادل.

لا مفرّ من أن يدور الحديث بيننا حول الموتى. أجل، فقد استمرّ القتل. وقُتل "جابرييل خايمي سانتاماريا"، كما قُتل منذ أسبوع عالم اللاهوت والأجناس "لويس فرناندو بيليس"، الذي تسلّم راية لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان. كان شجاعًا، شهيدًا، انتحاريًا، كلّ هذا. ظهرت جثته في مكان ما بـ"روبليدو"، تبدو عليها آثار التعذيب. لا مفرّ من أن يدور الحديث بيننا حول الخامس والعشرين من أغسطس، اليوم المشؤوم الذي لمسنا فيه الموت عن قرب شديد، واختبأ "أجيرّي" كالأرانب على حدّ قوله، كالأرانب، في إحدى الشقق. لم نلتقِ منذ ذلك اليوم، أربعة أشهر بالتمام دون أن نلتقي. في ظهيرة الرابع والعشرين من نفس الشهر، يحكي لي أنه تحدّث إلى أبي حول قائمة الاغتيالات التي أُعلِن عنها، والتي اشتملت على حكم الإعدام بحقهما. حكم الإعدام بحق "ألبرتو أجيرّي" لكونه شيوعيًا ويدافع عن النقابات في كتاباته ويثير الاستياء بمقالاته، وبحق "إكتور آباد جوميس" لكونه مغفلًا يستخدمه عناصر حركة التمرّد كأداة. شيء من هذا القبيل، لا أريد تكرار ما ورد في القائمة نصًا، إذ يصيبني بالغثيان كلما قرأته.

يحكي لي "أجيرّي" قائلًا: «تحدّثت إليه ظهيرة الاثنين، فأخبرني بأن الأمر شديد الجديّة، ويجب علينا البحث عن شخص ما، لعلّه يستطيع حمايتنا.» كنّا سنلتقي يوم الأربعاء في الحادية عشرة. لم يكُن ممكنًا. ومن مخبأه كتب "أجيرّي" مقاله الأخير، والذي ختمه بقوله: «ثمّة ما هو أسوأ من منفى الحدود، منفى القلب.» لم يعُد للكتابة الصحفية لسنوات طوال.

عند عودته عام 1992، كسر حاجز الصمت بمجموعة من الخواطر الفاترة الجافة حول تجربته، بعنوان «عن المنفى». نشرتها في الفترة التي كنت أدير خلالها مجلة جامعة "أنتيوكيا". لا أجد المجلة بينما أكتبُ ما أكتب. ليس هناك أيّ شيء فيما يخصّ هذا الموضوع في مكتبة بابل الجديدة على "جوجل"، بل يطويه النسيان

رغم أنه لم تمرّ سنوات أطول من اللازم بعد. يجب عليّ أن أكتبه، وإن أخجلني ذلك، حتّى لا يُنسى، أو على الأقل حتّى يُعرف لبضع سنوات.

ثمّة شيء آخر أريده أن يُعرف، قصة أخرى. لنعد مرّة أخرى إلى الخامس والعشرين من أغسطس لعام 1987. في ذلك العام شديد القرب بالنسبة لتاريخي الشخصي، والذي يبدو شديد البُعد بالفعل بالنسبة لتاريخ العالم، فلم يكُن قد تمّ اختراع الإنترنت بعد، ولم يكُن قد سقط حائط برلين، وكانت الحرب الباردة لا تزال تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكانت المقاومة الفلسطينية شيوعية وليست إسلامية، وكانت طالبان حليفة الولايات المتحدة في مواجهة الغزاة السوفييت. خلال تلك الحقبة في كولومبيا، اندلعت مطاردة مروّعة، ضلع فيها الجيش وأفراد الجماعات شبه العسكرية بقتل الناشطين من حزب الاتحاد الوطني وعناصر حركة التمرّد المُسَرَّحين، وقتل كل من يشتمّ منه رائحة اليسار أو الشيوعية بوجه عام.

"كارلوس كاستانيو"، قائد «قوات كولومبيا المتحدة للدفاع الذاتي»، ذلك القاتل الذي كتب فصلًا من تاريخ كولومبيا بحبر من الدماء وقلم من البارود، ذلك القاتل الذي سقط قتيلًا بأوامر صدرت عن أخيه فيما يظهر، قال شيئًا تفوح منه رائحة الموت حول تلك الحقبة. وكعادة كلّ المصابين بجنون العظمة، فهو من الوقاحة بحيث يشعر بالفخر بما ارتكب من جرائم، ويعترف بذلك غير آسف في كتاب قذر له: «كرّست نفسي لإطفاء عقول أولئك الذين يبثون الأفكار الهدامة في المدينة. لم ولن أندم على ذلك ما حييت! وأرى أنه كان قرارًا حكيمًا. فبتصويب سلاحي حيث صوبته، أعدمت أقلّ عدد ممكن من الأشخاص. وإلّا لكانوا قد نجحوا في مدّ أجل الحرب لوقت أطول. كلّي قناعة في هذه اللحظة بأنني أنا الذي أقود تلك الحرب إلى نهايتها. وإذا كان الرب قد أنعم عليّ بنوره، فلكي أتفهّم هذا الأمر.»

ذلك الذي أنعم عليه الرب بنوره، والذي قاد حربنا إلى نهايتها منذ ما يقرب من عشرين عامًا على طريقته الحكيمة (الحرب التي ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا)، يروي في موضع لاحق في كتابه كيف كان يُتّخذ القرار بالقتل: «وهنا يحين دور «الفرقة 6». وقد ضمّت «الفرقة 6» رجالًا من أرقى طبقات المجتمع الكولومبي على مدار مساحة شاسعة من التاريخ القومي. صفوة الصفوة! تعرّفت على أولهم عام 1987، قبل مقتل "خايمي باردو ليال" بأيام [...] كنتُ أُطلعهم على قائمة بأسماء ومناصب وأماكن تواجد الأعداء. أيّهم يجب إعدامه؟ كنتُ أسألهم، ثمّ تذهب ورقة الأسماء معهم إلى غرفة أخرى. ومن هناك تعود وقد تمّ التأشير على الاسم أو الأسماء الواجب إعدامها، فيتمّ اتخاذ الإجراء المناسب وإحراز نتائج مُرضية جدًا [...] كانوا رجالًا وطنيين بحقّ، فلم يدعوني أو يعلّموني أن أصفّي شخصًا بدون وجه حق، بل علّموني أن أحب كولومبيا وأؤمن بها.» ثمّ يقرّ باغتيال "بدرو لويس بالنسيا" قبل مقتل أبي بأسبوع، بمساعدة جهاز مخابرات الدولة، بعد ذلك يقرّ باغتيال "لويس فيليبي بيليس" في نفس الموضع ونفس اليوم الذي قُتل فيه أبي.

لن أقتبس المزيد من أقوال ذلك الرجل الوطني لئلا تتلوث أصابعي. ولكن لنعُد إلى عام 1987 وبركة الدماء التي جرت على يديه وشركائه.

المكان: ناصية شارع "أرخنتينا" وطريق "خيراردوت" في "ميديّين". بركة من الدماء، وجسد ملقى على ظهره، مسجى بملاءة، على غرار إحدى لوحات "مانيه"، لا أدري إذا كنتم تعرفونها، ولكنكم ستتذكرون إن رأيتموها يومًا. أنا جالس عند حافة بركة الدماء. على حدّ قول القاتل، ثمّة عقل قد انطفاء في اللحظة التي تدفقت فيها الدماء خارجًا. «إطفاء العقل»، ذلك التعبير الملطّف الذي يستخدمه القاتل بدلًا من «القتل». ورغم ذلك فقد كان على جانب كبير من

الصواب، فتلك هي الفكرة، إبادة الذكاء. أنا جالس هناك، يصل رجل أشيب الشعر، أشيب اللحية، يائس، يركض كالمجنون. رجل ليس من عادته أبدًا أن يسلك سلوك المجانين، رجل رصين، متّزن، عقلاني. يصل إلى هناك، وهي اللحظة التي أقول له فيها، وأتوسل إليه: «"كارلوس"، اختفِ، اختبِئ، يجب أن ترحل عن هنا، وإلّا قتلوك أنت أيضًا، لا نريد المزيد من الموتى!» كان ينتوي الذهاب إلى نفس التأبين الذي أقيم تكريمًا للمعلّم القتيل برفقة أبي و"ليوناردو"، بيْد أنه لم يصل في الوقت المناسب لأن "إريبيرتو ساباتا" طبيب الأسنان الذي يعالجنا جميعًا، أنا وأبي و"كارلوس"، قد تأخّر على موعده وكشف عليه في وقتٍ لاحق. ولهذا نجا بحياته.

نتحدّث لوهلة، بين دموع وغضب عاجز. يغادر المكان بعد وقت قصير، ولكنه لا يرحل عن البلد بعد. في اليوم التالي، يتمكن من إلقاء كلمة أثناء الجنازة، بيدين مرتعشتين، ولكن بصوت شديد الثبات. لقد حدس كلّ شيء، دون أن يتمكّن من معرفته على وجه الدقّة: نحن في مواجهة عمل فاشي معتاد. «إن تشبّث "إكتور آباد جوميس" بفكرة العقيدة الليبرالية، وهي الفكرة التي ترقى إلى أسمى درجات الإنسانية، جعل منه أكثر مرونة وتسامحًا، في حين لم يبقَ في كولومبيا مكانًا سوى للمتعصبين.» وفي النهاية يتذكّر كلمات "ميّان أستراي" المنفّرة، ويردّدها واثقًا من أن القتلة يتخذون من نفس الكلمات شعارًا لهم: «فليحيا الموت، وليسقط الذكاء!» وهو نفس ما قال به الآخر: القتل لإطفاء العقول.

بعد أشهر قلائل، يسير نفس الرجل الذي تفشّى الشيب في رأسه ولحيته عبر جادة "مايو" ويتوقّف عند رقم 829. يرتدي سترة وربطة عنق، ويتأبّط كتابًا بوقار. ثمّة مقهى في العقار الذي يحمل ذلك الرقم، ربما يكون أجمل مقاهي "بوينوس آيريس"، وهو مقهى "إل تورتوني". لا يتردّد النادل في تقديم خدماته على الفور، فهذا الرجل يعدّ صورة للأناقة والوقار. يطلب كأسًا من

الـ"فيرموت" الأحمر، والقليل من المياه الفوارة. لا أحد يطلب توقيعه. يفتح الكتاب، ويشرع في القراءة، يضع خطوطًا ويدوّن ملاحظاته بعناية. إنها إحدى محاورات أفلاطون. لا تتسنّى لي رؤية أي واحدة من بين المحاورات جميعًا، ولكنني أفترض أنها محاورة "ليسيس"، أو محاورة الصداقة، والتي يدور فيها الحديث عن الشيب على نحو غريب، فيقول سقراط: «دعونا نرى. إذا اصطبغ شعرك الأشقر بطبيعته بالرصاص الأبيض، أيكون شعرك حينئذ أبيض في الحقيقة أم في ظاهر الأمر؟»

صراحةً أنا لا أعرف ما يريد قوله سقراط في تلك المحاورة. فالحديث يدور بينهم حول الصداقة والخير والشرّ، وشخص يصبغ شعره الأشيب، أو العكس، شخص يصبغ شعره باللون الأبيض، فيبدو أشيب في حين أنه خالٍ من الشيب. أقع في الحيرة كلما قرأت محاورات أفلاطون. أحتاج إلى أستاذ أشيب الشعر مثل ذلك الذي أتحدّث إليكم عنّه، أستاذ لا يصبغ شعره باللون الأبيض ولا الأسود، بل هو أشيب الشعر منذ حداثة سنّه. أشيب على غرار مجنون مدريد.

لقد ارتبط الشعر الأشيب بالتقدّم في السنّ، ولكنه ارتبط بالرصانة والحكمة كذلك. ذلك الرجل الجالس في مقهى "إل تورتوني" هو كولومبي آخر في المنفى، تفشّى الشيب في رأسه، عاد بعد سنوات إلى البلاد ووضع بعضًا من الأحكام والقوانين التي ما زالت تعطينا الأمل في ألّا يكون بلدنا همجيًا تمامًا. إن "كارلوس جابيريا" واحد من القلائل الذين يفكرون على نحوٍ مستقل وليبرالي، في الوقت الذي تسري فيه مخاوف من احتمال عودة الظلام الذي ساد كولومبيا في أواخر الثمانينيات مرة أخرى. لم أره في "بوينوس آيريس" خلال تلك السنوات، بيد أننا كنّا نتكاتب في كثير من الأحيان، وحين ذهبت إلى الأرجنتين لأول مرّة، منذ وقت ليس بعيدًا، صحبني في جولته اليومية، الشوارع والمقاهي

التي كان يتردّد عليها خلال أيامه في المنفى، المنتزهات، الطُرق الـ"بورخيسية"، مكتبات الكتب الجديدة والمستعملة.

لست أشكّ أنه، وحتّى يومنا هذا، ثمّة بعض الراغبين في «إطفاء عقول» أشخاص مثل "ألبرتو أجيرّي" و"كارلوس جابيريا"، رجلان كولومبيان تعرضا للنفي قسرًا، ونجيا بحياتهما، وعادا، ولا يزالان هنا، يجسدان ضميرنا الأخلاقي الأكثر حرية والأشدّ ضرورة. جرىَ كلّ هذا عام 1987، قبل زمن ليس أبعد مما ينبغي. ولقد «انطفأت عقول» البعض بالفعل، ولكن البعض الآخر نفذ بجلده حين رحل إلى المنفى، إلى إسبانيا أو الأرجنتين أو أماكن أخرى، والآن عادوا، بنفس القدر من الشعر الأشيب، ولكن بقدرٍ أعظم من الحكمة. أزدادُ شيبًا يومًا بعد يوم، ورغم ذلك فإنني لا أضاهيهما شيبًا. ومع ذلك، فكلما ظهرت شعرة بيضاء في رأسي، تمنيت أن أكون مستحقًا لها. إنهما صديقان عزيزان ورثتهما عن أعزّ أصدقائي، ذلك العقل الذي لم يتسنّى له الخروج إلى المنفى، وانطفأ على أيدي القَتَلة الدامية.

النسيان

-42-

جميعنا محكومون بالتراب والنسيان، وأولئك الذين استحضرتهم في ذلك الكتاب إمّا موتى أو على وشك الموت أو على الأكثر سيموتون - أقصد سنموت - بعد سنوات لا تُعدّ بالقرون بل بالعقود. «الأمس مضىَ، وغدًا لم يأتِ، واليوم راحل دون أن يمكثَ خطوةً. أنا ماضٍ، أنا آتٍ، أنا حاضر تَعِب»، هكذا كان يقول "كيبيدو" في إشارة إلى وجودنا الخاطف، السائر دائمًا من غير بدّ نحو تلك اللحظة حين لا يعود لنا وجود. سنحيا لبضع سنوات هشّة بعد الموت في ذاكرة الآخرين، ولكن تلك الذاكرة الشخصية تدنو من الزوال أبدًا مع كلّ لحظة تنقضي. والكتب هي محاكاة للذكرى، طرف صناعي وظيفته التذكّر، محاولة يائسة لنجعل مما هو فانٍ، لا محالة، أطول عمرًا بقليل. كلّ أولئك الأشخاص الذين نُسجت منهم الحبكة الأثيرة في ذاكرتي، كلّ أولئك الحضور الذين شكّلوا طفولتي وشبابي، أو الذين غابوا بالفعل، وأصبحوا مجرّد أشباح، أو إننا في الطريق إلى الزوال، مشروع أطياف ما زالت تمشي على الأرض. كلّ أولئك الأشخاص الذين هم من لحم ودم، كل أولئك الأصدقاء والأقارب الذين أكنّ لهم كلّ حبّ، كلّ أولئك الأعداء الذين يبغضونني بإخلاص، قريبًا لن يكونوا أكثر واقعية من أيّة شخصية خيالية، وستكون لهم نفس كثافة الأشباح والأطياف، هذا في أحسن الأحوال، فالغالب أنه لن يبقى منهم سوى حفنة من التراب ونقش على شاهد قبر في مدفن، ستزول حروفه. ومن هذا المنظور، وبالأخذ في الاعتبار أن الزمن الذي تعيشه الذكرى الحيّة قصير إلى هذا الحدّ، فإننا قد «صرنا النسيان الذي سنكون» كما قال "بورخيس"، الذي كان من رأيه أن ذلك النسيان وذلك التراب البدائي الذي سنصير إليه بمثابة عزاء، «أسفل زرقة سماء لا تبالي». لو أن السماء، كما يبدو، لا تبالي بأيّ من

مباهجنا ومصائبنا، لو أن الكون لا يكترث لوجود الإنسان من عدمه، فإن العودة للإندماج بالعدم الذي جئنا منه، هو بالتأكيد شرّ المصائب، ولكنّه في الوقت نفسه النجدة الكُبرى والراحة الوحيدة، فحينئذ لن نُعاني مأساة الشعور بآلام أحبائنا وموتهم. وإن كنتُ مُدركًا لها، فلست أريد أن أتصوّر تلك اللحظة الأليمة حين لا يعود لأحبّ الناس إلى قلبي وجود (الأبناء، الزوجة، الأصدقاء، الأقارب)، وهي اللحظة التي لا يعود لي فيها وجود كذكرى حيّة في خاطر شخص ما، إلى الأبد. أبي بدوره لم يعرف، ولم يرِد أن يعرف، متى سأموت. ولكن ما عرفه بحقّ، (وهي تعزية أخرى من تعازينا الهشّة)، أنني سأذكره دائمًا، وسأحارب لأنقذه من النسيان بما للكلمات من قدرة على إثارة الذكريات، لبضعة سنوات أخرى على الأقل، لست أعلم كم ستدوم. لو أن الكلمات تنقل أفكارنا وذكرياتنا وخواطرنا جزئيًا، (إذ لم نجد حتّى الآن وسيلة أفضل لذلك، إلى الحدّ الذي ما زال البعض يخلط معه بين اللغة والفكر)، لو أن الكلمات ترسم خارطة تقريبية لعقولنا، فإن جزءًا لا بأس به من ذاكرتي قد انتقل إلى هذا الكتاب. وباعتبار الناس جميعًا إخوة، على نحوٍ ما، لأن ما نفكر فيه ونقول به متشابه، ولأن طريقتنا في الإحساس بالمشاعر تكاد تكون متطابقة، فإنني آمل أن أجد فيكم، في القراء، حلفاء وشركاء، قادرين على ترديد الصدى على نفس أوتار صندوق النفس المبهم، الذي يتشابه فيه كلٌّ منّا بشدّة، وهو العقل، القاسم المشترك بين أبناء جنسنا. «أيقظ النفس النائمة من سباتها!»، هكذا تبدأ واحدة من أعظم القصائد باللغة الإسبانية، مصدر الإلهام الأول لهذا الكتاب، لأنها تُعدّ بالإضافة إلى ذلك بمثابة تكريم لذكرى أب مثالي وحياته. ولقد كان هذا هو ما سعيت إليه، إيقاظ أعمق ذكرياتي. لو حدث وشعر بعضكم بالانسجام مع ذكرياتي، لو استطعتم تفّهم ما شعرت به (وسأكفّ عن الشعور به)، وميّزتموه في شيء مما تحسّون أو أحسستم به، حينئذ يُمكن أن يتأجّل ذلك النسيان الذي سنكون، للحظةً أخرى، في الوميض الخاطف لخلاياكم العصبية، بفضل الأعين التي مرّت فوق تلك الأحرف ذات مرّة، كثيرة كانت أو قليلة.

جميعنا محكومون بالتراب والنسيان، وأولئك الذين استحضرتهم في ذلك الكتاب إمّا موتى أو على وشك الموت أو على الأكثر سيموتون - أقصد سنموت - بعد سنوات لا تُعدّ بالقرون بل بالعقود. «الأمس مضى، وغدًا لم يأتِ، واليوم راحل دون أن يمكث خطوةً. أنا ماض، أنا آت، أنا حاضر تَعب»، هكذا كان يقول "كيبيدو" في إشارة إلى وجودنا الخاطف، السائر دائمًا من غير بدّ نحو تلك اللحظة حين لا يعود لنا وجود. سنحيا لبضع سنوات هشّة بعد الموت في ذاكرة الآخرين، ولكن تلك الذاكرة الشخصية تدنو من الزوال أبدًا مع كل لحظة تنقضي. والكتب هي محاكاة للذكرى، طرف صناعي وظيفته التذكر، محاولة يائسة لنجعل مما هو فانٍ، لا محالة، أطول عمرًا بقليل.





ولد "إكتور آباد فاسيولينسي" عام 1958 بمدينة "ميديّين" في كولومبيا.

حصل على «الجائزة الوطنية الكولومبية للقصة القصيرة» عام 1980 عن قصة «أحجار الصمت» وهو في عمر الحادية والعشرين.

نُشرت له أربع روايات: «علاقات السيد الماجن» (1994)، «شذرات حبّ عابر» (1998)، «قمامة» (2000)، والتي نال عنها جائزة السرد الإبداعي الأولى مُقدّمة من «دار أمريكا اللاتينية بمدريد»، وأخيرًا روايته "أنجوستا" (2003).

هذا إلى جانب مجموعة قصصية بعنوان «أفكار شريرة» (1991)، وكتاب رحلات بعنوان «القاهرة، حيث يبدأ الشرق» (2001)، وسيرة ذاتية بعنوان «كلمات طليقة»، وكتاب لونه الأدبي غير واضح المعالم بعنوان «وصفات طعام للنساء الحزانى» (1996).

نالت «النسيان» جائزة حقوق الإنسان المقدّمة من مكتب واشنطن لشؤون أمريكا اللاتينية "WOLA"، وأيضًا على جائزة أفضل عمل مُترجم إلى اللغة البرتغالية لعامي 2008 و2009 مُقدّمة من «دار أمريكا اللاتينية بلشبونة».


ISBN 978-977-319-197-9



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg